هُدَى عَبْدِ المُنْعِم
أَثَرُ الفَرَاشَة
رواية

هدى عبد المنعم

أثر الفراشة

رواية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

إهداء

إلى قرة عيني؛ ابني: (مالِك رائِف حياتي)

كُن ما تريده أنت لنفسك لا ما يريده الآخرون لك

شكر خاص

ماما: أودّ لو أوفيكِ حقك!

رائف حياتي: إيمانك بي هو الأجمل.

هبة عبد المنعم: ممتنة للأبد.

مايا الطرابيلي: هل شكرتك كفاية؟

تمهيد

لرفرفة جناح فراشة في الهواء الأثر على ضرب إعصار لمنطقة ما من العالم!

تعبير مجازي عن حدث ما ينجم عنه سلسلة من التأثيرات المتوالية، فتفوق حجمه الأول بمراحل.

أثر الفراشة – نظرية الفوضى

الفصل الأول

لا شيء يُعَد مقبولاً قدر ما نولَد فنجده من حولنا

هشام مطر

مُدَت أسلاك عدة تحمل إضاءات مطلية بالألوان على طول منزل آل المهدي المؤلف من طابقين في حي توريل بالمنصورة. تصدح من مكبر صوت رديء تشكيلة أغاني الزفاف، ثم وصلة زغاريد تهز الطابق الثاني حيث شقة أم العروس؛ تعلن عن وصول المأذون. تُماثِل الجارات والمعارف على بعضهن البعض في تبجح واستهزاء، يتضاحكن ويتشاركن الهمزات واللمزات:

- آصال وقعت واقفة. بنت المحظوظة!

- بختها نادِ. من كان يصدق؟

تسمعهن نادرة، فتمصمص شفاهها في حسرة لا تحاول أن تخفيها، وتنظر إلى العروس شذرًا وثغرها مزموم، غير راضية، وترد بابتسامة وقحة، مُعيِّرة:

- أخي بخته مايل. الله أعلم ماذا أعجبه في هذه الإبرة الكالحة! جلد على عظم.

(أريد أن أُترَك لحالي الليلة، هذه الليلة بالتحديد)

راحت آصال تلهو بالخصلات الشاردة من تصفيفة شعرها المرتخية، بينما خاطِبها الجالس إلى جوارها يوزع ابتساماته وإيماءاته المُرَحبة بالمدعوين من حولهما، وينظر لها بود من حين لآخر؛ فتنصرف عنه عيناها، وتجولان بضيق متصاعد على السقف المزخرف لشقتها كأنما تكتشفه لأول مرة! في محاولة يائسة

لشغل نفسها عن الفرحة المزعومة حولها، والابتسامات الفارغة على وجه العريس ووجوه الحاضرين.

- في هذه الليلة المباركة نعلن ميلاد أسرة؛ نسأل الله تعالى أن ينبتها نباتًا حسنًا ويرزقها الذرية الصالحة.

تمسكت آصال بمقعد الصالون الذهبي الذي تجلس عليه، تعترض بلغة جسد متصلب وامتلاء الشفتين الغليظتين بالرفض، تتعالى بتقوس حاجبيها الرفيعين، ويشمخ أنفها المستقيم، أما عيناها اللتان لم تنطبع عليهما لمحة واحدة من الشفافية، غامقتان كحبر طافح على ورقة ببياض وجهها النحيل؛ فلا تكفان عن التحديج بعقارب الساعة الكبيرة التي علت جدار الصالة بتوعد؛ لكأنها ستلقنها درسًا إن تباطأت عن ملاحقة الوقت بسرعة تنهي الليلة، لتلتحف حياتها الخالية من المواءمات والتظاهر كما اعتادت أن تحبها.

- نبدأ بقراءة الفاتحة والصلاة على نبي الله ومصطفاه...

تعض على شفتها بندم، وتغمض عينيها لبرهة على غلالة رقيقة من الدموع، تحبسها في مقلتيها، وتتنفس في مشقة؛ تحاول ألا تحمل نفسها فوق طاقة بالكاد تسع كل شيء آخر، فلا تنقصها. تحاول تحميل كل ذي ذنب ذنبه؛ تنجح أحيانًا وتفشل في أحايين أخرى.. وفى كل الحالات تكره بالجملة.

(أكرههم، وأكرهني، وأكره هذا المكان، والحضور

أمامي في صفوف متراصة؛ شهود على أمر لستُ أقل كرهًا له!)

أرخى المأذون محرمًا أبيض على يدي خاطبها ووكيلها المتعاقدتين على القران؛ وردد الأخير وراء المأذون:

- زوجتُكَ موكلتي ابنة أختي الآنسة البِكر الرشيد آصال قاسم أبو زيد زواجًا شرعيًا على كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى الصداق المسمى بيننا...

اغتمت عينا آصال بسواد حالك، ومضى العقد على مرأى ومسمع منها ومن الشهود، يطعنها في السر والعلانية دون رحمة بها. تهز رأسها في استهانة؛ تعهدات جوفاء راح العريس يرددها وراء المأذون.. إرث من العادات والتقاليد الجائرة ستحكم زواجهما، ويأتي يوم مثقل بالتجني؛ تنسى فيه الأذن وينكر اللسان، ويتلظى القلب وحده بفرحة لا تدوم العمر كله كما يقتضي الوعد!

- بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير...

دوت صفارات صاخبة وقام القعود مهنئين في خضم الزغاريد المجلجلة، اتجهوا جميعًا إلى العريس بالمصافحة والأحضان وحمله بعضهم على الأكتاف، وانخرطت أمها في تقبيل النساء، وشد خالها قامته في وسط الرجال مستقبلاً التهاني بينما انتحت نادرة إلى جانب ممتعضة، ولكزت ابنتها حسناء المبتهجة دون

سبب، لتلزمها بعدم التحرك من جوارها بالقوة.

لم يلقِ أحد بالاً بآصال على نحو أثار حفيظتها؛ يباركون للبائع والشاري، وتجلس بعد في مقعدها كقطعة أرض جامدة؛ البيعة لا تهم. أخيرًا تملصت أمها من حشود النساء وعانقتها في راحة غامرة، وتذكر خالها مشكورًا أن يقبّل رأسها في ود روتيني وهو يسلمها لزوجها؛ لتتأبط ذراعه على مضض وينقبض كفها المتخشب حول ساعده القوي، استعدادًا للمغادرة إلى فندق مارشال ليقضيا ليلة الزفاف ومن ثم يسافران في الصباح إلى القاهرة حيث بيت الزوجية.

كانت آصال قد أحجمت باستماتة عن إقامة عُرس واكتفت بعقد القران في بيت جدها لأمها الذي ترعرعت فيه؛ تكره تلك العادات التي لا تزيد عن كونها مظاهر باهتة مكررة؛ فلا تكاد تُفرِق بين واحد والآخر: مهرجان محلي لألوان الملابس، زينة وجوه متكلفة، رقص أشبه بزار شعبي لنفض الروح، ومراسم مقلدة بالحرف والمغنى والحركة والترتيب، وإن تكن العروس مغصوبة على الزيجة أو العريس مسلمًا أمره لأهله!

لم تمهلها أمها الرفض ذاته لثوب الزفاف الأبيض؛ فألبستها إياه عنوة، وهي تكاد تجن لمحاولتها ادعاء البساطة والتهرب منه، وهي البِكر!

- ماذا ليقول الناس عنا؟ ألا يكفينا شر ألسنتهم لعدم إقامتنا لحفل وأنتِ لم يسبق لكِ الزواج، وزوجك ليس

معوزًا لئلا يفعل؟!

تنبهها أمها إلى حقيقة الناس فتكرههم أكثر! وترجوها وضعهم خارج الاعتبار؛ فلا يهمها ما قد توسوس به صدورهم ناحيتها. ثم تحاول ترضيتها وإعفاءها من الحرج، بحجة معقولة تكف عنها ألسنتهم التي تُسيِّر الحيوات؛ فهو قد سبق له الزواج! لكن لم يبدُ تبريرها كافيًا لإقناع أمها؛ فإذا بها تواجهها في شراسة:

- قد تكرهين نميمة الناس وتدخلاتهم يا آصال، يحق لكِ. لكنكِ تخادعين نفسك حين تدعين عدم الاهتمام بهم؛ أنتِ تهتمين يا حبيبتي، وهذا طبيعي، ليس بعيب. تتصرفين في كثير من أمورك على هذا الأساس، وأقرب شيء الحادث الذي تخفين حقيقته إلى الآن عن المقربين منك، حتى جلال لم تفاتحيه بشأنه رغم أنه مَعني به!

- ذلك لأن حياتي ليست مشاعًا؛ ليس من حق أيًا كان التدخل بكل بساطة في شأني.

- لكنني أحللتك من الوعد، قلت لكِ مرارًا تكلمي لعلكِ ترتاحين. لكنكِ تخشين أحكامهم ونظراتهم؛ أي تهتمين.

- صدقيني، لا أهتم بأحد غيرك يا روحية، لهذا لبّيت لكِ رغبتك.

تقربها أمها إليها في حنان لم تعهده من سواها، وتسألها:

- هل لديكِ شك يا حبيبتي أني ما طلبت منكِ ذلك إلا

لمصلحتك؟

التوت شفتا آصال في امتعاض، مجيبة:

- لا أشك في نواياكِ الطيبة يا ماما، لكن أشك أن هذا الزواج في مصلحتي.

تنهدت روحية وسكتت بعض الوقت، ثم قالت كأنما لم تسمع جملة ابنتها الأخيرة:

- كل ما أود قوله يا آصال إننا لا يمكننا الشذوذ عمن حولنا دون أن يصيبنا ضر، ولا أتحمل أن يمسسك سوء يا حبيبتي.

(لو أن الأمر يخصني وحدي؛ سأتحمل كل السوء الحاصل عنه، لكن لأجلك، أرخيت القبضة والحبال.. مجددًا يا أمي!)

***

تتفرس عينا جلال ببطء وتلذذ في شفتي زوجته الغليظتين، تعلق بهما بقايا حُمرة شاحبة. يداعب أنفه حبيبات النمش البنية الصغيرة على أنفها وحول حدوده أعلى وجنتيها، راحتاه تجولان على ثوبها المحكم على قدها الرشيق بضيق هائل، منسدل بخط مستقيم صارم؛ فالفرحة تنورة واسعة! استغلت آصال تفرق نظراته وانشغاله عن عينيها لتتخطف ملامحه؛ تمر حدقتاها بسرعة على تشابك حاجبيه الكثين، انبعاج أنفه الطويل، ترقق شفتيه، وتضاؤل ذقنه في مواجهة عرض جبينه. ثم ما لبثت أن أقلعت عن مطالعة قسمات وجهه،

متحاشية النظر بالأخص إلى عينيه العسليتين العميقتين، تتفادى محاولاتهما إعادتها إلى أيام لا تود تذكرها. وعلى عكسها، بقي جلال لفترة آبيًا إفلاتها؛ يلاحق سكناتها وحركاتها، ويحسب أنفاسها بين الزفير والشهيق، مستفزًا من فتورها التام. ولما تعاظم شوقه البائن عندما التقت بالكاد نظراتهما؛ نكست آصال وجهها سريعًا وأجلت أحبالها الصوتية المنهكة من الغصة، متمتمة:

- لا تأمل فيّ الليلة.. أرجوك.

تلاقى حاجباه في استغراب سكن عينيه لكنه لم يفرج عنه وهو يسأل بابتسامة متشككة:

- هل أنتِ متعبة؟

تصلبت ولم يبدر منها جواب، ليتسلل اسمها من بين شفتيه الرقيقتين يحمل طابع صوته الأجش، مداعبًا أذنها بخفة قصدها وهو يضمها إليه في رفق:

- آصال. لا تخشي شيئًا، سأكون رقيقًا.

عضت على شفتها بقدر يجبرها على البقاء بين ذراعيه دون آهة نفور، وقالت برجاء مستتر:

- أرجوك، دعني.

- ما خطبك يا آصال؟ ظننتك ستكفين عن تباعدك بعدما تصيرين حلالي!

تململت أمام سؤاله المباشر، فيما طالع خواء نظراتها

باستفهام ملح:

- ما الأمر؟ لماذا تحاولين التهرب مني؟

ظلت ملامحها جامدة دون أن يغادر شفتيها المضمومتين بقوة حرف واحد، فأفلتها وقال ممتعضًا:

- أتفهم حياء العذارى، لكن أدرك جيدًا أنه ليس السبب.

دلف إلى الحمام الملحق بغرفة الفندق في انفعال مكبوت، بدل ملابسه على عجل، وعاد ليخلع عويناته على الكومود ويعتلى الفراش، مديرًا لها ظهره؛ فغادرها الهدوء الذي اجتهدت طيلة الليلة لإبقائه على خطوط وجهها، وأولته ازدراءها الذي شمله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه المتدثرتين بالغطاء، وبقيت واقفة في ثوب لم يُمَس بياضه، في منتصف غرفة تجمعها بواحد لم تظن أنها ستنتهي معه، بعدما أفرطت في الهرب.

***

-٢-

- سأشترط عليه شرطًا في العقد يا ماما.

خبطت روحية على صدرها بيدها في فزع، وهتفت في تحذير مبالغ فيه، مخافة تهور من ابنتها تضرب به عرض ما تقول؛ كعادة بعض أفعالها.

- هل جننتِ؟ إياكِ. البنات المحترمات لا يطلبن توقيع أزواجهن على شروط! هذه قلة أصل لا تليق ببناتنا. لا تتسببي بفضيحة لنفسك وله، لن ينسى الناس فعلتك، ولن يسامحك عليها أبدًا.

صاحت آصال في عصبية محفوفة بالغضب:

- ما هذا التهويل؟ إنه حقي الشرعي!

- حقك مصون، سيحافظ عليكِ دون قيد أو شرط.

هدرت في تجلد:

- مثلما حافظ عليكِ غيره، أليس كذلك؟

عاتبتها أمها بعينيها في رفق، وهي تلين القول:

- جلال من خيرة الرجال يا آصال، وأنتِ من دمه، لن يسيء إليكِ.

رنت ضحكة آصال ساخرة في قلبها المجوف:

- ماذا رأيتِ أنتِ بالذات لتحسني الظن؟

***

- تشردين كثيرًا يا آصال! بالكاد سمعتني بعد المرة

الخامسة التي ناديتك فيها.

طالعت آصال زوجها في حدة إثر انتباهها إلى قوله، فيما فضحته عيناه موفرتين عليها السؤال الذي همت بإلقائه عليه؛ فأسرعت بالتمنع قبل أن يكشف عن غرضه، لكنه لم يعفها من الحرج هذه المرة:

- صبرت عليكِ كثيرًا يا آصال! ليس كل الرجال مثلي لو تعلمين.

تقلبت عيناها ببطء في محجريهما الضيقين، واجتاحت الغرفة حرارة مباغتة بزفرة حانقة منها وهي تسأله في تهكم:

- هل تعلم أنت قول الله تعالى «وعاشروهن بالمعروف»؟ هل المعروف أن تأتيني على غير رغبة مني؟

قطب حاجبيه في انزعاج من يستعصي عليه الفهم:

- هذا ما أريد فهمه! لماذا لا ترغبين؟

أخفت ارتعادها من حدته، وأجابت في هدوء:

- أنا لست مثلك، أرجوك تفهم الفرق.

زمجر وهو يشيح بكفه في وجهها ويغادر الغرفة غاضبًا:

- لا يمكنني أن أكون أكثر تفهمًا، تفهمي أنتِ.

تنهدت بعمق، ودعكت جبينها بقسوة تدرك سببها. تدمدم: (لن ننتهي حتى ينال مراده!) وتتمنى لو أنها

قادرة على منحه ما يريد لإعفاء كليهما من الحرج، لكن الأمر ليس هينًا عليها؛ ليس بعد كل ما جرى! تستطيع ممارسة كل شيء مع الرجل أو حتى ضده، إلا الحب! هذا النوع بالتحديد من الحب.

والآن، تنظر إلى رقدتها على فراشه، وتفكر جديًا في ضرب رأسها في جدار البيت الذي جمعها به. ويل لها! ربطت قدميها بحجر ثقيل وألقت بنفسها في اليم، مُنهية أنفاسها القليلة المتبقية في مقاومة لم تبذل فيها الجهد قاصدة! ورقدت في القاع، مُسلِّمة الروح لذنبها الوحيد وفرحها الأوحد؛ أمها. لتتزوج بابن خالها الأربعيني المطلق؛ أفضل ما تستطيع الحصول عليه في هذه السن! بشهادة الجميع وهمسات النساء الملحوظة ليلة عقد القران وحسرتهن البائنة على حظه المتواضع؛ فقد كان بإمكانه أن يحظى بمن هي أصغر وأحلى وأكثر أنوثة منها: هي النحيلة، طويلة القامة، عادية الملامح، ولو كانت سمراء أيضًا لانتهى أمرها!

(كُلي، ارجعي إلى مقعدك وكُلي عليكِ اللعنة، هذه وجبة فأر! أطعميها يا امرأة، إنها طويلة ونحيلة كنخلة، لن ينظر إليها رجل؛ ستبور، وأموت وأحزن في قبري، دون أن يُصان شرفي)

ألجمت دموعها المقهورة، وتمتمت بصوت خافت؛ لئلا يسمعها جلال الذي عاد إلى الغرفة بعدما أغلق زر الإضاءة:

- فلترتح في قبرك يا أبي، النخلة تسترت وصانت شرفك.

- ماذا تقولين؟.

سألها جلال وهو يضجع إلى جوارها، فتقلبت على جانبها واقتربت من حافة الفراش آخذة أضيق حيز ممكن، مغمغمة:

- تصبح على خير.

حركة خفيفة إلى جوارها، انكمشت بعدها لملمس شفتيه المفاجئ بمحاذاة ثغرها. جثم عنوة مستغلاً عامل المفاجأة؛ يعانقها في شوق ويهمس برغبة محتدمة:

- لم أطفئ النور لننام.

أفرزت مسام جلدها مزيجًا فوريًا من القرف والدهشة لديها، تكاد تنبعث منها رائحة نفاذة كعرق الجسد المُر. عيناها متباعدتان عنه عن عمد، وحركتها هامدة إلا من انقباض يديها على الملاءة بشدة وذُعر كدجاجة مُسَاقة للذبح، ووعيها بين الصدمة والقرار؛ يجبرها لاإراديًا على التسليم لأشرس كوابيسها (إنه زوجك!) لا تجوز المقاومة (لا أطيق كلينا في ذات اللحظة) ذاك حقه يأتيه متى يشاء (لن أغفر له الغدر والإتيان بالقوة!) بأي طريقة أخرى كان ليتم الأمر؟ هل كانت لتسلم أبدًا لو لم تُؤخَذ عنوة؟ هذه زاوية مناسبة للنظر إلى الأمر، حجة فعالة لتقبله.

أطبقت فمها في قوة تمنع الاستغاثة، وودت لو تدس الوسادة في وجهها؛ تقي عينيها شر المنظر وتكتم أنفاسها المتلاحقة. يطغى عليها شعور ثقيل بالاشمئزاز من ريقه على مواطئ جسدها، ثقله في انكبابه عليها، تعريته لها من ستر ملابسها.. حيائها، حرمة جسدها! ليس من السهل التخلي عن الظهر، وبلا ترضية؛ لن تبلغ إلا ذروة الألم.

طفق جلال يهمس مستلذًا:

- لا تخافي، لا تخافي، هيا، لا تتخشبي يا آصال. ساعديني، ستكونين بخير.

سددت نظراتها ناحيته ببطء وحدة، طالعها في بادئ الأمر متفهمًا، لكن سرعان ما استشعر أن هذه ليست سحنة امرأة همها الألم أو الخوف! جمدت حركته ولاح ارتباكه لبرهة وقد زم شفتيه في تردد؛ كأنما كان يتحدى كبرياءه أن يقوم من فوره عنها! غير أنه باشر مهمته في الفض سريعًا كالمتنمر، بهمة عظيمة، غيظًا أو احتجاجًا، أم ربما تنكيلاً بها؟ لا تعرف لكنها رجحت القسوة.

استلقى أخيرًا إلى جانبها بأنفاس متقطعة وجسد مُشبع ونفس غير راضية. ثم قرب وجهه من وجهها النافر، وطبع قبلة آلية على جبينها المتعرق، ممعنًا في قرص وجنتها، وقد ندت عنه غمغمة رقيقة لا تخلو من جمود:

- أحسنتِ. مبارك يا عروس.

***

تجفف شعرها بعناية وروية، ثم تتمهل في إحاطة عينيها الضيقتين بكحل أقل قتامة من النظرة التي تنعكس منهما! وتزيد العينين ضيقًا بتقطيبة الحاجبين، ثم تضبط هندامها على جسدها الذي عرف الطريق إليه – وبرضاها - رجل! فأخلف عليه لمساته وشهقاته المكتومة وماءه. تفعل كل شيء على مهل، في تراخٍ، لعلها تنشغل بالأشياء الظاهرة فيها، مُحاوِلة الالتهاء بها عن الأشياء الراقدة تحت جلدها: الحواس التي غفت في الدقائق الفائتة؛ تخشى إن صحث وعرفث كيف أُخذ منها ما أُخذ! لو صحث، ربما لتموث في الحال! لتكتفي بكونها آلة كما تعامل معها، وقد أدت الآلة مهمتها كما اتفق، الآلة لا تفكر أو تشعر. هذا مريح.

إلى أي مدى كانت تتوقع أن يصل صبره؟ وأن ما حدث لن يحدث؟ لكن الأهم: إلى متى سيظل يحدث؟ تخشى أنها قد لا تحجم شعورها بالانتهاك والمهانة في مرة أو مرات، فتصده بالغصب وتدفعه عن عرضه! كيف ستعيش مع الهتك الحلال؟ تخبئ ثدييها تارة وتضم ساقيها تارة أخرى، وترتبك يداها ولا تصلان لكل ما تودان تخبئته، فتفلتهما عنها، وتلتصق بحائط الحمام؛ يعافر كتفاها لإفساح مكان لها داخله، عله يستر ما لم يستره القماش على جسدها.

مسحت بخار الماء العالق بالحائط باحتكاك ظهرها عليه، لاختلال قدميها عن حملها، وهوت في عنف

ودموعها تسابق وقوعها على الأرض الباردة؛ أسراب متدافعة من الماء المالح تنهمر على وجنتيها في قوة وإيحاء الشلالات! طفقت تمحوها ويأتي المد في سرعة وشدة، كأن شيئًا لم ينمحِ! كانت تزداد كلما أدركت أنها تملأ وجهها دون استجابة لشعور ما منها. لا تحس بشيء، صار الإحساس عصيًا.

***

-٣-

أحكمت آصال غلق باب الشقة بإرهاق بادٍ بعد تغيبها لساعات في الخارج. كان جلال قد عاد قبلها على غير العادة، وقف في استقبالها وهو يتفحصها بتعجب، مطلقًا في أثر خطواتها تجاهه صفيرًا منغمًا، لتمرق بسمة عفوية على شفتيها، تلاشت فورما استوعبت تهكمه الذي ظنته غزلاً في بادئ الصفير.

- ليتكِ تتجملين هكذا لأجلي كما تتجملين للناس.

ردت في تحفز:

- أنا لا أتجمل لأحد.

- لكن هذه الملابس التي تخصصينها للخروج تشي بأنوثة ورقة تقضي عليهما منامات البيت وجواربك الملونة السميكة.

تأذت من تلميحه الساخر وابتسامته الماكرة، تستطيع أن تتزين وتدير رأسه بسهولة لكن لا تعنيها الطريقة التي ينظر بها إليها، ولن تجتهد لنيل إعجابه. حاولت أن ترد له الإهانة؛ فلم تتحجج أو تتدلل، بل أكدت على تعمدها ذلك، متنهدة في راحة:

- لا أكاد أصدق العودة إلى المنزل لأبدل بملابس العمل تلك السراويل والسترات القطنية المريحة.

- قولي لي شيئًا لا أعرفه! وتعودين أيضًا مرهقة وغير رائقة المزاج. لو تركتِ العمل ستجدين حينها وقتًا وبالاً

للكثير من الأشياء التي تهملينها بسببه.

طالعته في استغراب لتذمره الواضح وهذيانه حول ملازمتها للمنزل؛ ستروقها حقًا! طموحها أقل من المئة والخمسين مترًا مربعًا مساحة الشقة!

- ليكن في حسبانك: هذا شيء لن يحدث أبدًا. أنا أعمل منذ نعومة أظفاري، العمل صار جزءًا من روحي، لا يمكنك انتزاعه مني.

- لم يهمك حتى أن تسألي عن إهمالك!

تكره أعمال المنزل المتكاثرة دون أمل في فنائها، لطالما تركتها على كاهل أمها إلا قليلاً، لكنها أخذت تبذل جهدًا مضاعفًا على غير عادتها منذ زواجهما، تفاديًا للسماح بأن يُؤخذ أي مأخَذ عليها، لينعتها هو الآن بذلك بكل بساطة واستنكار!

- من فضلك لا تقل عني مهملة، لستُ مقصرة في المنزل. أقوم بواجباتي على أكمل وجه.

- فليحترق المنزل! هل هذا هو مفهومك عن الزواج؟ أنتِ حتى لا تدعين بعض الاهتمام بي أنا، مهملة في حقي أنا، لا تقومين بواجباتك على أكمل وجه نحوي أنا. أنا!

طالعته بنظرة جانبية طويلة، تستوضحه في تعالٍ عن شكواه، ليلوح بكفه في نزق:

- أستغرب والله أن العروس التي رفضت الاحتفال بزفافها، لا تطلب كذلك إجازة زواج، بل وتباشر عملها

في شهر العسل الذي لم تهتم أيضًا بالسفر لتقضيته في أي مكان، كأنها سفيرة أو وزيرة لا غنى عنها! هل هذا طبيعي؟ لماذا تتعاملين مع زواجنا كأنما هو يوم وانتهى قبل الصباح التالي؟ كيف لا تدركين أنه حياة جديدة يجب أن تستقبليها وتتعاملي معها بشكل آخر أبعد ما يكون عما تفعلينه هذا؟ لا أحب أن يفوق اهتمامك بي أي شيء أو أي شخص. اتركي عملك هذا الذي يشغلك ويملأ حياتك إلى هذا الحد، اهتمي بي وببيتك.. حياتك الحقيقية هنا.

- أنت مُصِر إذن! لماذا؟ لماذا يا جلال ترى أني ما دمت تزوجتك فلا حاجة بي لشيء سواك وسوى خدمتك؟ لماذا ترى أن منزلك كافٍ لي لتقضية بقية العمر؟ أي فكر رجعي هذا؟!

- انتبهي إلى كلامك يا آصال.

أشار بسبابته في وجهها محذرًا، فلانت لهجتها لاإراديًا:

- قل لي لماذا إذن؟ ألأن بعض إناث غايتهن عريس أو طفل؟ هذه ليست غايتي ولا يفترض أن تكون غايتهن، كلنا مدعوون إلى الكدح، كلنا، ذكورًا وإناثًا.

شددت على كلمتيها الأخيرتين فتلاقى حاجباه في استغراب، وقال:

- لستِ بحاجة إلى الكدح، أنا أعولك. هل طلبتِ شيئًا لم ألبه لكِ؟

التوت شفتاها بنصف ابتسامة؛ لا تدع له فرصة ليفعل ويتصدق عليها بمصروفاتها الشخصية؛ ليملكها ويسيرها ويعايرها! راتبها تزايد به على سلعة لا ترغب في بيعها لقاء ماله، تقايض به استقلالها وعوزها؛ تعلمت أن المال مذل عندما تصل المرأة إليه عن طريق صاحبه.

- الكدح ليس مرادفًا للمال يا جلال. ثم ما أدراك أن هذا هو همي الوحيد؟ لماذا تعتقد أني لست من الغرور البشري بحيث أريد أن أشكل فارقًا وأترك بصمة، أن أتميز؟ هذا حق مكفول للإنسان على حد علمي.

- يمكنك أن تتركي بصمتك على أشياء أخرى، أكثر أهمية لي ولكِ.

- مثل ماذا؟

أطرق رأسه لوهلة في تردد طفيف، ثم رفعها ليجيب بثقة؛ الإجابة الأبعد عن مخيلتها، إجابة لم تكن في انتظارها، عندما عقدت ساعديها أمام صدرها وسألته بتحدٍ!

- طفل. سيغنيكِ ويلهيكِ عن العمل.

- طفل! ومن قال إني حينها سأكتفي بذلك؟ هل يمكن أن تكتفي بأسرتك لو لم تكن بحاجة إلى المال كما تريد مني أن أفعل؟

- دعينا لا نضع الوقت في جدل مراهق؛ الأمر مختلف..

توقعت أن يدافع عن مهنته؛ رسالة سامية لا يزاولها

من أجل المال فحسب، واستعدت لتقليله من شأن فنها؛ باعتباره لا يرقى إلى مقارنته بالطب! حينها لن تسكت، ستدافع عن عملها وشأنها. (أنا فنانة!) ليست بممرضة أو طبيبة امتياز تكتفي بمشاهدة الجراح العظيم يفعل كل شيء، وينحصر دورها في مده بالأدوات اللازمة لذلك وتجفيف عرقه! لكنه في الواقع لم يتطرق لهذا قط؛ كانت لديه أسباب أخرى، اختصرها في كلمة صريحة ونافذة:

- أنا رجل.

حاولت التماسك بدون جدوى، لكن قطرت كلماتها حقدًا دفينًا، متحدية الماضي والحاضر:

- وماذا بعد؟ لماذا لم تكمل حديثك؟ طبعًا لستَ في حاجة إلى ذلك؛ كونك رجلاً يبتر كل الأحاديث فعلاً! يفترض أن أضع لساني في فمي الآن وأسكت، أليس كذلك؟ لا مجال للمقارنة بالفعل!

لم يرد، ممنيًا نفسه بالثبات، فسكتت بدورها والتقطت نفسًا عميقًا، ثم قالت في تصميم:

- أيًا كان يا جلال، لن أترك الورشة، ليس دوامها يوميًا على أية حال، وقد كنت واضحة معك في هذا الشأن، وأنت وافقت – تابعت بصبر نافد - يكفي أني تركت عملي ببنك المنصورة.

- حسنًا، ما دمت ستتمكنين من التوفيق بينها وبيننا.

استجاب لها بسهولة لتومئ في ثقة، حائرة في الوقت

نفسه من استخفافه الواضح.

- بالتأكيد.

استدرك: وما دمنا سنوقف وسيلة منع الحمل التي نستخدمها.

يستثير أعصابها المرهقة فلا تستطيع التماسك:

- جلال! هل تحاول لي ذراعي؟ لم يفت على زواجنا شهر واحد! وقد اتفقنا على تأجيل الإنجاب لفترة ممتدة لا تقل عن سنة حتى نتأكد من رغبتنا في العيش معًا دون أن نكون مدفوعين بطفل؛ لماذا غيرت رأيك؟

- نحن لسنا صغارًا لننتظر كل هذه المدة. أعرف أنكِ خائفة وقلقة من المسؤولية، لكنني...

تدلى فكها بطريقة فجة من الصدمة، وصاحت في اندفاع:

- عمَ تتحدث؟ يا إلهي! ألم تكن تعرف أعمارنا عندما سايرتني ووافقت بينما تضمر الرفض؟ تظنني طفلة تضحك على عقلها ولا تأخذها على محمل الجد! لماذا لم تتناقش معي وتبد رغبتك هذه؟ هل تتصور أن التأجيل تحصيل حاصل؟ افهم. لا أريد أن أتسبب لطفل بالحرمان من حياة طبيعية سوية بين أبويه؛ لأني لن أتنازل لو لم تنجح زيجتنا، لن أضحي بنفسي، هل تفهم؟ لن أفعل؛ لا أخشى الطلاق ولن أتردد فيه.

قطب حاجبيه في ضيق، وارتفع صوته وهو يقول:

- لا أريدك أن تنطقي هذه الكلمة مجددًا، أتفهمين؟

لوحت بكفها بلا مبالاة متعمدة، وقالت في حدة:

- لا، لا أفهم، أنا لست كغيري من النساء سأنطوي تحت جناح رجل. لن أدعك تسيّر حياتي كما تشاء، بيننا اتفاق ولا يصح أن تتراجع عنه، احترم الوعد الذي قطعته على نفسك.

أطبق جفنيه لبرهة وهو يزفر في حنق:

- كفى! اصمتي تمامًا.

- ماذا يعني هذا؟ لن...

- صه، إنه خطئي. لا أصدق كيف تفكرين! هذا الموضوع لن يُفتَح ثانية.

حاولت الاعتراض فألزمها الصمت، وهو يستطرد بقرف لم يحاول أن يخفيه:

- اتفاقنا سارٍ، سألتزم بكلمتي، هل استرحتِ؟

- نعم.

لم تخفِ بدورها تنهيدة هانئة أغاظته، وإن أبدى غير ذلك بقوله الفاصل:

- عظيم.

***

-٤-

قامت آصال بتثبيت قماش سميك مبتل على إطار خشبي، وأخذت تشده ليتخذ شكل سطح الطبلة بدبابيس الضغط، ثم عزلت القماش بوسط مائي؛ دهنته بشكل أفقي ثم بشكل عمودي. ولمدة ساعة - حتى يجف تمامًا وتبدأ في الرسم - أخذت تحرك أناملها في الهواء، بثغر مضموم، وعينين مبحلقتين، وفتحتي أنف متسعتين عن آخرهما، وأنفاس متسارعة؛ تبصر في مخيلتها ما ستكون عليه لوحتها هذه المرة، ثمة صورة من ذاكرتها تتحرق شوقًا لارتداء ألوانها الزيتية، ووحدها روحية سترى في المرأتين المتعانقتين بحب؛ مُنتهى البُعد والقسوة!

- لا تتعبي نفسك معي يا ماما، قلت لا يعني لا. يا لطول بالك! ألا تيأسين يا روحية؟

ابتسمت روحية في ترغيب وغمزت بعينها:

- هذه المرة الأمر مختلف؛ إنه جِلجِل. الدكتور جلال المهدي على سن ورمح.

ضحكت آصال في استخفاف:

- وفيم يختلف إن شاء الله؟ ليس أفضل من تقدموا لي على أي حال؛ هل تذكرين ذاك الطيار الوسيم؟

- هذا كان حين كنتِ في عشريناتك يا آصال – استدركت مرتبكة –مصيرك أن تتزوجي يا حبيبتي مثل

كل البنات؛ وخيرهم جلال.

اربد وجه آصال:

- مصيري! رغمًا عني؟ - أردفت بلهجة قاطعة - أنا وحدي أقرر مصيري.

- تفهمين قصدي. لا بد أن توافقي طبعًا.

لوحت في عصبية:

- لماذا؟ ألستِ أنتِ موافقة والناس موافقون وجلال موافق بالطبع؟ هيا إذن، خير البر عاجله، توكلوا على الله. بالرفاء والبنين... افهمي، أرجوكِ افهمي، لا يهمني إن كان خيرهم أو الأخيَر على الإطلاق، رفضي لم يكن بسبب أيهم وهو ليس استثناء؛ لستُ راغبة في الزواج وحسب. أريد أن أعيش معكِ أنتِ، هل تستكثرين عليّ أن أعيش هانئة ومرتاحة؟ العيشة مؤذية مع شخص ينصب نفسه سلطة عُليا على شريك حياته.

قبلت روحية يد ابنتها بشفاه لاهجة ودموع مسترسلة، فسحبت الأخيرة يدها في جزع، وجثت تحت قدميها، ملتاعة، غارقة في الدمع، ينفطر قلبها على اثنتيهما.

- يا ماما، حرام عليكِ! لماذا تفعلين بي وبنفسك هذا؟

تعالى نحيب روحية:

- سأموت قبل أواني عالمة أن ليس لكِ غيري، وستبقين بطولك بعدي، سينهشونك ولن يوقفهم أحد يا آصال، أنا مرتعبة، وأشعر أن أجلي يقترب.

رفعت آصال عينيها إليها في لوعة:

- بعد الشر عنكِ يا ماما. أتحسبين أني أستطيع العيش يومًا واحدًا بعدك؟ ربنا يجعل يومي قبل يومك.

- اسكتي! لا تقولي هذا، لا تقولي هذا ثانية.

أخذت آصال تضرب على فخذي أمها، وتقول بينما رأسها مدفون في حجرها:

- يا ماما لماذا لا تفهمين؟ لن يعوضني أحد عنك ولن يحل أحد محلك، خصوصًا لو كان رجلاً. افهمي!

ألحت عليها:

- لكن جلال رجل طيب، والله رجل طيب؛ سيحفظك ويحميكِ من كل شيء، ويُطمئِن قلبي عليكِ في مثواي، وليكن حتى من أجل ولد أو بنت؛ ترتكني إليه ويطمئنني عليكِ. طيلة هذا الوقت لم يحيني سواكِ يا آصال، فلا تميتيني عليكِ الآن يا حبيبتي. لأجلي يا نور عيني، لخاطري.

حاوطت آصال ساقَي أمها بذراعيها، وألصقت جانب وجهها إليهما في خنوع ووجل. عيناها تفيضان بالدمع، وقسماتها لا تسكن في حنق وقهر على نفسها وأمها.

(هذا المجتمع اللعين ورّث زواج بناته قسرًا حتى لو لم يدعهن إلى ذلك سبب أو رغبة!)

لا تود تتبع العادات كالخراف في قطيع لو لم تكن وجهتهم مقصدها، وهي لم تكن بأي حال؛ ليست واقعة

في حب أحدهم ولا تحسب أن بإمكانها ذلك لو أرادت، ولا تود أن تكون أمًا، لا تشعر بأدنى رغبة في الأطفال؛ كم يخيفونها! لا تريد أن تتخذ شريك في حياتها سوى هذه المرأة التي ترقد تحت قدميها؛ لماذا قد تتزوج إذن؟!

لعقد ونيّف تشددت وتخلفت عن ركوب الموجة السائرة، بلا اهتمام أو خوف أو تمسح في رضا الناس، حتى مع السنوات الخمس اللاتي بلغتهن بعد الثلاثين. صرفت نظرها وبقية حواسها عن اللقب الذي تعرف حق المعرفة أنهم يطلقونه عليها خلسة في الجلسات المغلقة. يلمحون به في حضورها في صورة أماني ورجاءات غليظة، نمطية (كالهراء الذي يسكن في أمخاخهم ولا يفسح مكانًا في نفوسهم للفهم والرحمة).

وبدورها حاولت أمها تليين عشريناتها، مرارًا دون يأس، وبلا استجابة مقابلة، متحججة أبدًا أنه لم يسبق أن جمعها بيت برجل سوى أبيها، فأنَّى لها أن تحكم على بقيتهم ولم تجمعها بغيره تجربة؟! لكنها كانت في غنى عن هذه التجربة حتى ولو أثبتت شيئًا آخر؛ حلم بعيد كانت تظنه في يوم ما لا يعدو كونه حقيقة، كان يراودها مرات في زمن سابق، ولم يعد كذلك.

هدأت زلزلة جسديهما، فرفعت روحية ذقن ابنتها وأبعدت وجهها عن ساقيها، ثم نزلت على الأرض بحملها من الخوف واللهفة، ورقدت إلى جوارها محتضنة إياها لتبادلها آصال الضمة، حتى كادتا تكسران عظام بعضهما

البعض.

تخُط آصال عناق المرأتين بالقلم الرصاص، ثم تحدد مواضع الأضواء والظلال. (لو قالت لي أمي: «ألقي نفسك في البحر». لفعلتُ). تنتقل لأرضية اللوحة والمساحات الكبيرة، بينما يتسارع نبضها وتنفسها. تكثف الألوان بسكين الرسم؛ بضربات واضحة وبارزة عن اللوحة. (لشد ما تحملتْ هذه المرأة! بقيتْ سجينتي وهي الحرة الطليقة). تلون الخطوط البارزة والتفاصيل الدقيقة بفرشاة صغيرة، يرتفع ضغط دمها وتتورد وجنتاها ورقبتها. تمزج الألوان بزيت الكتان بقدر ضئيل لتصير أغمق وأغلظ وأقل شفافية. تنتهي؛ تبلل شفتيها بلسانها، تتنهد في راحة منتشية، تجفف جبينها وجانبي عنقها المتصببين عرقًا، تتباطأ سرعة تنفسها، ينتظم معدل ضربات قلبها، وتغمض عينيها مستلذة!

***

راحت آصال تمسح فرشها الواحدة تلو الأخرى على قطعة قماش مستعملة، ثم باشرت بغسلها بالترتيب بصابون سائل تحت ماء الصنبور مستخدمة قعر يدها، حريصة على ألا تتفرق الشعرات أو يتبعثر منها توزيعها، فيما كان جلال يناديها مرة تلو الأخرى؛ طالبًا كوبًا من الماء. ضغطت على طرف الشعر في رفق، كما لو أنها تستعمل الفرشاة للرسم على اللوحة، وقد أخذ يرفع من صوته أكثر بعد كل مرة لا تجيب نداءه، وتشتد نبرته كلما أتاه صمتها. تنهدت في عمق؛ حصلت أخيرًا على رغوة بيضاء غير ملوثة.

- يا آصاااال!

مسحت الريش جيدًا بالقماش حتى تزول الرطوبة عنها، ووضعت الفرش مقلوبة؛ اتجاه الشعر لأعلى في كأس خصصته لها، وخلعت المريولة الملطخة بالألوان، ثم اتجهت إليه بخطوات عنيفة، مصرة على ألا تمرر طلبه ككل مرة سبقتها واستجابت فيها بنية حسنة، غير مدركة الصورة التي تكونها في عينيه وجل ما هي عليه؛ غانية وشغالة! تعاملها كان أطيب من اللازم مع وكالته لها كل الأعمال دون أن يحرك ساكنًا أو يكلف خاطرًا. تتميز غيظًا كون من تؤمن أنه أفضل الخلق كان يخدم نفسه دون تفضل منه على أهل بيته، رغم تعبه وانشغاله بأسمى رسالة في نظرها. فكيف برجل سليم معافى ذي

قدرة مذهلة، لكنه يضعها في حنجرته عوضًا عن قدميه الممددتين بعبث على الأريكة في غرفة الجلوس الملاصقة للمطبخ! لتعلمنه إذن أن صنف النساء اللائي يقضين اليوم في تلميع الأواني الفضية ودعك أقدام أزواجهن بالماء المالح، قد انقرض.

قابلها بتجهم:

- ألا تعرفين أني أكره أن أناديكِ فلا تردين عليّ؟

(وماذا عما أكرهه أنا؟)

سألته في حدة ما إذا كانت أخته نادرة قد ساهمت في تحوله إلى عاجز؛ بتلبيتها كل طلباته وتصرفاتها الأقرب إلى تصرف الخادمات! لينتفض في جلسته ويهب واقفًا في منتصف جملتها، حتى إنها أنهتها بارتباك. النظرة التي سددها إليها كانت كفيلة بأن تقتلعها من مكانها، وترجعها إلى الوراء بضعة خطوات، مع اقترابه منها في غضب جلي.

- كم مرة سأتغاضى عنكِ واضعًا في اعتباري أن والدك لم يكن موجودًا ليحكُمِك ويربيكِ ويعلمك كيف تتحدثين إلى رجل؟ كم مرة؟!

أدركت متأخرة تجاوزها لكن تنكرت له استياءً من معايرته لها بأبيها الغائب وذم تربية أمها لها.

- لا أسمح لك!

جز على أسنانه، محاولاً تمالك أعصابه:

- لا تسمحي لنفسك أولاً، ولتعلمي أني لن أستطيع معكِ صبرًا طويلاً، ولن أكون رحيمًا بكِ لو أسأتِ الأدب مرة أخرى.

هزت رأسها بغير تصديق، فتناثر شعرها على كتفيها بدون ترتيب في حركة عنيفة موحية بالدهشة:

- رباه! بالله عليك هل ستقبل لو أردتُ شيئًا أن أناديك من مكاني وأنتزعك من أي ما كنت تفعله، ولا يهم سوى أن تأتي إليّ بمجرد النداء لتأخذ طلبي وتحضره لي؟ بالطبع لا، أليس كذلك؟ ولا تقل إنك متزوج لهذا الغرض خصيصًا – رفعت هامتها في إباء – أنا لستُ خادمتك. إن أردتَ شيئًا أحضره لنفسك.

- لا تحاولي تغيير الموضوع. والله سأعاقبك كطفلة صغيرة قليلة الأدب.

امتقع وجهها لعصبيته الشديدة:

- ماذا تظن نفسك؟ كيف تنتقص من قدري بهذا الشكل المهين؟ لماذا تقبل على غيرك ما لا تقبله على نفسك؟

رفع حاجبيه في غرور مقصود:

- ليست مسألة قبول. لا تجرئين أصلاً.

هتفت بصوت يشبه البكاء:

- إذن لا تفعل أنت أيضًا!

ضرب كفًا بكف وهو يقول في استخفاف:

- يا ملكة الدراما! ألا تكفين عن تأدية دور الشهيدة؟

استنشقت دموعها غير المُذرَفة، وأجابت في تحدٍ:

- ليس قبل أن تقتنع أن بإمكاني تأدية دورك أنت.

- أي دور هذا؟

ردت ببساطة:

- دور الإله.

- أستغفر الله العظيم !

- أنا أشير إلى معنى؛ هذا البرج العالي الذي تتخذه لنفسك.

زفر في قوة حانقًا:

- وماذا بعد معكِ؟ لقد بات الأمر سخيفًا وماسخًا، أنا أملّ بسرعة ولا طاقة لي على عوجك وإغفالك أبسط الأشياء في تكوينك. تفهمي الفارق بيننا وتقبليه لترتاحي وتريحيني.

- الفارق بيننا! الفارق بيننا!

جعلت ترددها بعجز عن التصديق أو المواجهة، ثم لوحت في قرف:

- هذا ليس ذنبًا ولا ذريعة لك.

أمسك صدر فانلته القطنية ومطها في عصبية، مشددًا على مخارج الحروف:

- نهايته يا آصال لأني أكره المجادلة البطالة؛ افهميها كما تشائين لكن لن نتجادل طول العمر بسبب هذا الأمر.

هزت رأسها في تصميم:

- بل سنفعل ما دمت ترى الأمور على هذا النحو، لستُ أقل منك! «إنما النساء شقائق الرجال».

- لقد تعبت وسئمت! تستشهدين بالدين، هه؟ «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ». ما قولك في ذلك؟

تحشرج صراخها من القهر:

- وأنا كذلك تعبت! لعنة الله على الرجال يا أخي.

اتسعت عيناه في جزع، واعتصر ذراعيها بين كفيه الخشنتين، وهزها في عنف، هادرًا:

- تمالكي نفسك، تمالكي نفسك وارحميني، لا أريد أن أمد يدي عليكِ، لا تجبريني على النزول إلى هذا المستوى.

- دعني، دعني يا جلال، ولا تتصور أنه يحق لك أن تفعل أصلاً.

تملصت بصعوبة وإلحاح من قبضته الباردة، بينما نفرت أوردته وبدا نافد الصبر وهو يزوم متوعدًا:

- اصمتي، اخرسي قليلاً، أنتِ أكثر أهل الأرض استفزازًا! لا أحد يخرجني عن شعوري مثلما تفعلين، والله، والله لو نطقتِ بكلمة أخرى لأبرحنكِ ضربًا.

اختفت من أمام ناظريه وأغلقت باب الغرفة عليها في عنف، لتهتز نوافذ المنزل. فتحته وأغلقته مرات؛ تئن في صمت، وتنفث عن قلة حيلتها، وتجيبه بطريقة

أخرى؛ بدق الخشب وصريره الشبيه بالأنات. وتكف عندما تهزها فورته المقاربة للنذير.

- تعقلي يا مجنونة!

تهوي على الأرض مستندة بظهرها إلى باب الغرفة المغلق، وتضم قدميها إلى صدرها. تتساءل في حرقة عن السبب الذي يجعل المرأة في مجتمع الرجال أشبه بثور؛ يتفنن المصارع في استثارته للمتعة وإثبات القوة، ثم يلعن هياجه ويحبسه في حظيرة، ولا يكف عن استدراجه إلى الحلبة كل حين، دون رحمة بكليهما!

تدفن رأسها بين كفيها، كاتمة الصرخات والسباب. الضرب كان وشيكًا، أغلب الرجال كانوا لتسبق أيديهم ألسنتهم، تومئ في انزعاج، لو فعلها جلال لكان معذورًا! وأول من يلتمس له العذر: النساء. يخبطن صدورهن ويمصمصن شفاهن:

- كيف تخاطبين زوجك بهذه الطريقة؟ كيف تساوين رأسك برأسه؟ هل جننتِ؟!

ولسان حالهن يقول:

- هل تحسبين نفسك إنسانًا مثلك مثله أيتها المعتوهة؟

فتتعجب نفسها المفعمة بالكرامة والتفكر؛ لمَ يميزنه عنها؟ لمَ؟! وألف لمَ أخرى، الرد عليها واحد لا يتغير، جاهز، في تمام الاستنفار، بلا أدنى رابط بين السؤال والجواب، وفي كل مناسبة تختلف تمامًا عن الأخرى! لم

تزل تتحير؛ تؤمن أن دينها الذي شرّع القوامة لم يقصد بها الأفضلية! واشترط أن تكون بالقسط وخالصة لوجه الله.

تجادلهن بالحق فيخرسنها:

- لقد خُلقتِ من ضلعه، هذا أدعى للحب والفخر والحمد. لم تخلق حواء من رأس آدم لترأسه لا سمح الله، ولم تخلق من قدمه لتصير جارية له لا قدر الله، بل خلقت من ضلعه لتبقى إلى جواره، ومن تحت كتفه لتكون في حمايته ومن جهة قلبه لتغدو محبوبته.

يقصدن أنها فضلته! فلتصمت، لا تفكر، تتحمل، وتموت كمدًا؛ لحمها من كتفه! هكذا لا يستويان وتأتي دائمًا أقل درجة! أي منطق؟ سؤال بحجم الحياة، أرقها طيلة عمرها، وأبكاها، وأضحكها همًا وسخرية. تتحسس روحها الكاملة في تعجب؛ الله الذي خلقكم من نفسٍ واحدة، فلمَ يفرقها البشر بين جسدين ويفضلون جسدًا على الآخر؟ تزفر مغلولة الصدر. تُجِدّ في البحث عن حقيقة الخلق وتَجد ألا دليل عقلانيًا دامغًا على هذا الموروث!

(السواد الأعظم من الناس يقدمون المعتقدات على النص القرآني، بينما الحديث الشريف المعني لن يعدو كونه تشبيه لسيكولوجية المرأة عامةً! ربي عادل)

لكن تمتثل الصغيرات قانعات بالأفكار السائدة بعد محاولات مبتورة للفهم والتحرر، وتُسلِّم المغلوبات على

أمرهن؛ يقيدن الروح الحرة في التيار السائر، ويقنعن النفس الأبية؛ «هن أدرى»! ولا يعرفن أنهن كن يشبهنهن في مثل هذا العمر البريء، لكن سلمن آذانهن وقلوبهن لحِكَم وتفاسير الأمهات والحموات وعجائز النسوة، فتحولن إلى إحداهن عندما تقدم بهن العمر؛ نسخ متشابهة من العقول والنفوس والحيوات، تتمسك وتتناقل تراثًا هائلاً من المعتقدات المُسلَم بها بغير إعمال العقل ولا التأمل في الحق والعدل، وبدون مبرر سوى مسايرة الأغلبية وخشية الخروج عن القطيع.

لطالما رأت آصال النساء يضحكن على بعضهن البعض، تخفيفًا وحماقةً؛ يشدن بدورهن العظيم! هو الكفاية والمنتهى؛ المرأة نصف المجتمع تربي النصف الآخر! تكاد تصرخ بأنها ليست مدعاة للفخر، إنها لكارثة عندما يكون الرجال على هذه الشاكلة: يستغلون ويفترون ويبالغون في الزهو بجنسهم، منتفعين ومتميزين به بكل طريقة ممكنة.

جلال رجل طيب، والله رجل طيب.

تحاوط أذنيها بكفيها لئلا تسمعا ما صم عنه المنطق محاباة لأمها، وتغمغم متحسرة:

- جلال رجل عادي، مثل غالبيتهم. رجل فحسب!

***

في آخر الليل، يشده الجسد الذي يتوعده بالضرب أول النهار؛ تتنامى رغبته كلما توسع حجم الهوة بينهما بعد

الشجار، كأنما تفتنه الشحنة السلبية المعلقة بينهما في الهواء؛ فيتحدى نفسه أن بإمكانه أن يقرب المسافات مرة ثانية!

كان يميل أحيانًا على أذنها، يوشمها بثغره؛ يؤلمها، ويُسمِعها تصاعد أنفاسه، سائلاً في همس لائم إذا ما زالت تحمل في نفسها شيئًا من الحزن أو الغضب، موحيًا أن في نفسه أشياء منهما! يسأل مرة واحدة فحسب، ولا ينتظر جوابًا، ثم يبتعد سريعًا إلى موضع آخر من جسدها؛ كأنما يشير إلى أن هذه هي طريقته في مصالحتها.

اعتادت آصال ألا تتجاوب أو تبتعد؛ تسكن فحسب وتقاوم لا شعوريًا أية لذة محتملة. كانت تشعر أنها عملية مقرفة كإخراج الفضلات، يحسن أن يعتادها الجسد! بقيت حركتها جامدة في كل مرة، لكن لم يعد إحساسها كذلك، ليس كما أول مرة؛ تخطت شلل الصدمة ولم تستطع الانزواء بحواسها ثانية (تلك كانت رحمة من ربي). تشعر بالهزيمة والتحرج وتدني القيمة؛ زوجها منسجم تمامًا ومكتفٍ بحدود جسدها المادي وكأنها لا تختلف كثيرًا عن أية عاهرة! فرطت في نفسها كما فعلت أمها من أجلها لزمن طال، وبدورها ستحذو حذوها لزمن سيطول.

ويبقى جلال يهتاج بطريقة عشوائية، لا تثير بقدر ما تنفر، تشتد لمساته وتتوحش، في محاولة لجرها معه دون استجابة؛ فقد كانت لها وسيلتها الأخرى في

الانتشاء؛ تستشعر أيما لذة، بالغة ذروة المتعة حين تفرش لوحة صماء محولة الأبيض الأجرد إلى صورة تنبض بالحياة، تقف أمامها في هيبة وإجلال، يتدفق الدم في عروقها سخيًا، ويتوهج الحماس تحت جلدها الشفيف حتى يكاد يبين كالشرايين، شاعرة بالشغف والتشوق وأنها ذات قدرة مستحيلة! قد ملكت الكون وملكت نفسها.

***

- هل جننتِ يا فيفي؟ لم تفعليها وأنتِ مراهقة صغيرة حمقاء! ستفعلينها الآن؟

عينا آصال ترميان بشَرَرٍ لمرأى جارة السنين التي اتخذتها دون غيرها صديقة مقربة وحيدة؛ الشابة العاقلة تهلوس وتنجر في الساقية المجتمعية الدائرة، تنساق خلف الحشد الغفير كالسائرات نيامًا، دون تعقل أو ربما في كامل القوى العقلية.

أخفضت صفا بصرها اتقاءً، وقالت مبررة:

- بالضبط؛ لم أعد صغيرة، لقد أتممت الثالثة والثلاثين.

- وأنا أكبرك بعامين. أوليس هذا أدعى لتكوني أوعى من ذلك؟

سألت صفا بأعين ملؤها الدمع: عمَ تعي؟ أن الرجل لآخر يوم في عمره يستطيع الباءة ممن حاضت أول مرة قبل ساعات، بينما تنتهي صلاحية الآنسات في سن الثلاثين؟ لم تعد تمتلك ترف المفاضلة؛ بعدما انعدم طلبها للزواج في السنوات الماضية الأخيرة ممن في مثل الحالة الاجتماعية للعريس الجديد: أعزب ولا يعول. وحتمًا لو بقيت ترفض وتتدلل، ستظل كذلك للأبد، على حالها.

- ما لها حالك؟ وأي دلال!

قالتها آصال في استنكار شديد، رانية إلى صديقتها

في خيبة أمل واضحة. أن تقول لا عندما يكون من الأسهل أن تقول نعم، أن تُكرِّم حلمًا في نفسها وتحفظ شأنها، ألا تنهرس في قوالب البشر الجاهزة للتعبئة؛ تلك التي يعبئون فيها مسار حياتها ومرساها قبل مولدها، أن تتجلد وتتصبر على قذفهم إياها بالحجارة وأقذع الصفات. أن ترفض المرأة بيعة بعير؛ فهي تتدلل؟ حتى البعير يشترونها وهي في بطون أمهاتها؛ يتابعون منشأها ونشأتها، ومجرد صورة فوتوغرافية لصفا كانت كفيلة بأن يتخذها رجل زوجة! وتظن الحمقاء أنها أوقعته صريعًا بمجرد النظر إلى انعكاسها على الورق بينما هي أشبه بسلعة يقوم بانتقائها من الإنترنت، قيمتها أقل من أن يحرص شاريها على معاينتها؛ فسلع التنزيلات وتقضية الغرض ليست بذات أهمية.

- بلاها يا فيفي. إياكِ أن تتخلي عن نفسك؛ أنتِ من بقي لها.

زفرث صفا في قوة، مثبتة عينيها في عيني صديقتها، هذه المرة بجرأة المُحِقّ، قائلة:

- وقد تعبت من كوني الوحيدة إلى جواري، ألا تدركين ما يُلِم بي يا آصال وما يقوله الناس عني؟ أريد عيشة خالية من النقص والذم والتبرير.

- ستندمين يا صفا والله لو تزوجتِ لمجرد أن تكف الألسنة عنك، لأنهم –صدقيني- لن يفعلوا، ولن يدعوكِ وشأنك كما تتصورين؛ غدًا يسألونك عن خِلْفَة البنين،

وأن تملأي البيت عيالاً. إرضاء الناس غاية لا تدرك!

تنهدت صفا وسكتت قليلاً، ثم عادت تتعذر في رفق وهي تفرك يديها:

- المهم إرضاء نفسي وأهلي، أليس كذلك؟ ثم إن هذا ليس السبب الوحيد –انخفض صوتها وهي تتابع في حرج- أنا بحاجة فعلية إلى رجل، هل تفهمين؟

صاحت آصال في انفعال، خفتت نبرته فورما أشارث لها صفا راجية منع حديثهما من الوصول لآذان مرتادي النادي، وقد جلستا إلى إحدى طاولاته تحت شمس المغيب.

- وهل تسمين هذا رجلاً؟ يا صفا أنتِ أحلامك كبيرة، ادخرتها قرابة عقدين من الزمان. شخص يختار شريكة حياته من مجرد صورة أرتها أمه له! أي أحلام تنتظرين من واحد مثله أن يحققها لكِ؟ زيجة بائسة كهذه ستميتك، على الأقل أنتِ الآن تعيشين على الأمل.

ارتعدت شفتا صفا كطفلة صغيرة حزينة:

- تلومينني؟ ألا يحق لي أيضًا أن أكون أمًا؟ لقد تزوجتِ لنفس السبب!

لوحت آصال بكفها في اندفاع:

- ألا يحق لأولادك بدورهم أن تحسني اختيار والدهم؟ على الأقل أنا تزوجت بابن خالي الذي أعرفه ويعرفني منذ طفولتي، لكن ماذا تعرفين أنتِ عن هذا العريس لتسلميه رقبتك ورقاب أطفالك؟

- أرجوكِ لا تضحكي على نفسك، جلال لم يكن قريبًا منكِ يومًا؛ من بداية تكليفه في الوجه البحري وكنتِ حينها بضفيرتين، وحتى منحته في الخارج للحصول على الدكتوراه، ثم زواجه الأول. ناهيكِ بأنكِ لم تعطي قط الفرصة له أو لغيره للتقرب منكِ.

(كان قريبًا في يومٍ ما يا فيفي)

انتكست أهداب آصال لوهلة، فاستغلت صفا ارتباكها، وقالت إن كل ما تطلبه منها أن تتفهم وضعها فحسب؛ ويا له من طلب فادح! ستبيع صديقتها نفسها، وتريدها أن تتفرج عليها فَرِحة بينما تفعل ذلك، أن تبارك البيعة! رفعت آصال رأسها وطالعت صفا بنظرة أمعنت بها في تجريدها من احترامها لنفسها؛ لعلها ترتجع؛ فغصت صفا بالبكاء وهي تبادلها النظرة بأخرى لائمة، ثم هبت من مقعدها، تنشج وتكفكف دموعها:

- ارحميني.

(يا للخسارة يا صفا! لم تفلتي من المنظومة التي تخول لرجل، أي رجل، التوقيع على وثيقة تنص على أنكِ تصلحين للمعاشرة، وبالتالي فإنكِ تصلحين لقبول المجتمع. كفرتِ بأحلامك وزال كل أمل في نفسك؛ استمديتِ نفاده من نفوس المحيطين بكِ، فكففتِ عن انتظار الرجل إياه الذي كنتِ تحلمين به منذ تكور نهداكِ وارتعشتِ احتياجًا وتخيلاً لضمة! هل خذلتكِ عندما خنتُ ما تعاهدنا عليه وتزوجتُ؛ بهذه الطريقة، ولأسباب

كهذه تجعلني أشبه بدجاجة بَيَّاضَة؟! فأفرغتِ مخك من الحشو الذي حشرته فيكِ صداقة وعشرة ممتدة، وأرجعتِه لي اليوم غير شاكرة!)

تمالكت صفا نفسها سريعًا، مبدية تحفزًا لم تعتده آصال منها:

- من تخدعين يا آصال؟ ولو أن إبراهيم كان رجلاً أحببته (وحبنا ولع في الذرة) كما يقولون، لما هنأتِني أو سعدتِ لأجلي، لأثنيتني عنه أيضًا، كما فعلتِ سابقًا أكثر من مرة. المشكلة ليست في الطريقة، المشكلة فيكِ أنتِ.

أطرقت آصال في إحباط:

- أو في أمثالك من النساء يا صفا. أنتِ ضعتِ دوني.

تعمدت صفا إغاظتها حين حركت كتفيها بلا مبالاة، وردت لها الصاع صاعين:

- على العكس، أنا وجدت طريقي دونك، لربما لم تكن مغادرتك المنصورة وفُرقتنا أمرًا سيئًا كما ظننا أنه سيكون.

امتقع وجه آصال، فيما أخذت صفا تتحسر على العمر الذي مضى تتبع فيه كلامها وتعيش الحياة من منظورها؛ فلربما كان نصيبها من الحظ أكبر لو لم تفعل. قالت لها إنها هكذا أكثر وعيًا، واتهمتها بأنها مغيبة عن الواقع، ولم تمانع آصال مغمغمة: (فليكن!) إنها لا تنسجم مع هذا الواقع بالفعل، وتتمنع عن التكيف معه بأى حال،

بل تريد تغييره بكل وسيلة ممكنة، أقلها عدم وضع يدها في يده مباركة؛ أضعف الإيمان. ليست جريمة! لكن صفا ضحكت مستهزئة، وأشعرتها بالمبالغة والهوس والندية، وقامت فجأة من مقعدها، مقاطعة حديثهما بطريقة متعالية:

- سأضطر للرحيل. خطيبي ينتظرني لاشتراء احتياجات الشقة؛ الوقت ضيق.

عقدت آصال حاجبيها: سترحلين بهذه السرعة؟! لكني سأعود للقاهرة صباح غد!

لانت ملامح صفا وأرفقت بجوابها غمزة عين وابتسامة واسعة:

- سنجلس معًا وقتًا أطول في زيارتك المقبلة، وهي ستكون قريبة بالمناسبة؛ فرحي بعد شهر من الآن؛ إبراهيم متعجل لإتمام الزواج، وأنا مثله.

وكانت قبلات صفا قبيل مغادرتها كنظرة عينيها وحركة شفتيها ولسان حالها وكل شيء آخر في لقائهما هذا؛ تنقصه الألفة المعتادة بينهما. غادرت على عجل دون أن تسر آصال إليها وتسمع أخبارها، ودون أن تكتفي إحداهما من الأخرى بعد الغياب. لربما كانت صفا تتقي الندم لاحقًا لو بقيت الآن وأصغت لها! أو لعلها ستندم على أنها لم تبقَ.. ليست متأكدة! هزت صفا ركنًا أساسيًا بداخلها.

***

أشارت روحية إلى ابنتها معاتبة بمجرد عودة الأخيرة إلى المنزل:

- تعالي اجلسي إلى جواري، إجازتك قصيرة! المفترض أن تقضي كل ثانية منها معي، وبدل ذلك تغيبين طيلة النهار! أين كنتِ؟

ردت في تجهم:

- في نادي جزيرة الورد – أضافت بتثاقل - مع صفا.

انفرجت أسارير أمها:

- أفتقد هذه الفتاة والله، لكنها نذلة؛ لم تمر عليّ منذ تزوجتِ. ستتزوج بدورها، ربنا كريم. أخبرتني أمها أن العريس متعثر ماديًا بعض الشيء، لهذا تأخر في الزواج، لكن يدًا على يد تساعد، أليس كذلك؟ - تغيرت لهجتها - ما الأمر؟ لا تبدين بخير! ماذا بكِ؟

أجابت آصال في اقتضاب:

- لا شيء، أنا بخير.

- آصال! منذ متى تخفين عني؟ فضفضي يا حبة عين أمك.

زفرت في يأس:

- ستتضايقين وتنزعجين، وبدلاً من أن تسري عني، سينتهي بي الأمر محاولة التسرية عنكِ أنتِ.

تساءلت روحية في قلق:

- لماذا؟ أليس كل شيء على ما يرام مع جلال؟

لوحت آصال في حدة وأفضت إلى أمها بأكثر مما تحتمل الأخيرة سماعه أو تسعى إليه أمانيها؛ كانت روحية ترغب بشدة أن ترد ابنتها على سؤالها بالإيجاب.

- لا بالطبع. هل تصرين على المعرفة؟ حسنًا، جلال يعاملني معاملة غير لائقة بالمرة؛ لغة الحوار العادية يحول كل نقاش بيينا لشجار بسببها؛ يريد أن يسيرني على «كاتالوج» رسمي في فن مخاطبة حضرته! متحفظ في حواره معي بشكل مثير للغيظ؛ أدق وأرفع الكلمات والنظرات والإشارات يراها بحاجة إلى تأديب وتهذيب وإصلاح! لا يعجبه إيحاء الجملة أو الطريقة التي أنطقها بها، يتشدد على أقوالي وأفعالي، حياتي معه تحولت إلى محاضرة طويلة عن الآداب والسلوك. هذه ليست معاملة بين امرأة وزوجها، بل خادمة وسيدها، مرؤوس ورئيسه في العمل، كأنما لا تعلو العين على الحاجب! هو يتقصد ذلك، ويتصيد ما يُبرِر له أن يثور ويُمسك بزمامي ويُلجِمني في مكاني.

مطت روحية شفتيها لبرهة، ثم قالت في هدوء:

- الرجال جميعهم كذلك يا آصال. هوني عليكِ يا حبيبتي، لكن.. أنتِ حتمًا تتحفزين له، تتحاملين عليه؟

طالعتها آصال لوهلة في صمت، ثم ابتسمت ساخرة وهزت رأسها ببطء:

- يعني تعترفين بسوءاتهم ثم تعيبين فيّ أنا يا روحية؟ من حقي الحصول على الاحترام المتبادل في الحوار والمعاملة. جلال يأخذ الأمر لأبعاد أخرى، يضخم من حجم رجولته، أو ربما يقلل منها بهذا الأسلوب الذي يجعلها في عيني هشة، تتأثر بالهواء الخامل والماء الراكد والأرض الساكنة.

- لستما متفاهمين بعد يا حبيبتي، اصدقيني القول: هل تمارسين عليه كرهك للرجال؟

ضحكت آصال ضحكة منزعجة مبتورة، نافية:

- ثمة فارق بين الكره والحقد يا ماما؛ أنا حاقدة على تميزهم دوننا لجنسهم فحسب، وربما أكره تعاليهم وأنانيتهم في علاقاتهم مع النساء، لكن لا أكره شخوصهم في المطلق، بل إن أحب تلامذتي إليّ من الرجال. الرجل يتحول إلى ألطف الكائنات بالمناسبة مع كل النساء عدا أهل بيته – ابتسمت في مرارة - فلنسمها غبطة – تنهدت – أنا لا أكره جلال لكننا لسنا أحبابًا أيضًا.

تغلبت على محاولة أمها مقاطعتها، قائلة بسرعة حماسية:

- ورغم ذلك أعرف جيدًا كيف أتعامل معه كزوج، هو الذي لا يعرف كيف يتعامل مع زوجته؛ هذه هي المشكلة.

ابتسمت روحية مواسية:

- إذن هي مسألة وقت لتتأقلما على طباعكما المختلفة.

- أتأقلم! ما خطبك يا ماما؟ هل ترضينها لي؟ لقد وضعت الجميع عند حده منذ زمن ولم أسمح لأحد بأن يُسيِّرني أو يهيننني، وجلال يتقصد الاثنين. بالكاد أضبط نفسي حتى لا يتمادى، لأني لن أحتمل أكثر! والله لن أحتمل. لقد عدت أتأذى، ورجع الخوف يدب في أوصالي، وتنطبق أنفاسي، ويضطرب قلبي، وأقيء، أقيء كثيرًا! كنت قد ارتحت من هذه الأحاسيس، كنت قد ارتحت منها، لا أريد العودة إليها.

جعلت روحية تربت بحنو على جسد آصال المنتفض، مهدئة من روعها:

- آصال! آصال! اهدأي، معدتك لا تحتمل. صارحي أمك يا روحي، لمَ تفعلين بنفسك هذا؟ أنتِ فقط لا تعطينه فرصة، أليس كذلك؟ أنتِ خائفة. يجب أن تكوني أقوى من مخاوفك يا حبيبتي، أنجحي علاقتك به يا آصال. إنه رجل صالح. اسمعي مني، أنا أعرف الأصلح لكِ.

أبعدت آصال يدها عنها وهبت من جلستها، صائحة في حنق شديد:

- أكره هذه الشعارات، ما أدراكِ؟! لماذا سمعتُ كلامك؟ حتمًا جننتُ عندما وافقتك. لماذا فعلتِ بنا هذا؟ هل ترضيك هذه الغربة بيننا؟ مرتاحة في عيشك وحدك هنا؟ بعيدًا عني كل هذه المسافة؟!

لاحت على شفتي روحية ابتسامة مهزوزة:

- ألم نتفق أنها فرصة جيدة لكِ لتتفرغي وتوسعي نشاطك في الورش الفنية وتكوني أقرب لتحقيق حلمك وإنشاء مرسمك الخاص؟

لوحت آصال بكفها في غضب:

- كلها كانت أشياء قابلة للتحقق مع الوقت، سواء بقيتُ هنا أو انتقلنا معًا للقاهرة، لكنها كانت بجملة ما تحججتِ به لتزجي بي في هذه الزيجة - اختنق صوتها - أنا فقط لم أرد سواكِ شريكة لحياتي.

اتسعت عينا أمها من التأثر مغمغمة في حسرة:

- لاكتفيتُ بكِ يا حبيبتي والله، لا تعرفين حجم رغبتي واشتياقي لذلك، لكنكِ لن تكتفي بي يا آصال؛ لن أعيش لكِ طول العمر. من سيؤنسك بعدي؟ من سيخدمك ويمرضك حين تكبرين؟

- كلها حجج! ربما أموت دون مرض، ربما حتى أموت الآن، ربما تصدمني سيارة أو يسقط هذا السقف عليّ فيقصف عمري في الحال. ففيمَ أكون قد أفنيت عمري؟

تغضن وجه روحية من الألم، فيما أشارت آصال بسبابتها في وجه أمها متابعة بثورة أشد:

- أنتِ السبب يا ماما. أنتِ السبب! تحايلتِ عليّ كالحية؛ تعرفين أنكِ لو أجبرتني ما وافقتُ، لكنكِ استغليتِ إحساسي بالذنب تجاهك.

ازدردت روحية لعابها في صدمة جلية، وهتفت:

- ماذا تقولين يا آصال؟ كيف تفكرين بهذا الشكل؟ من تقصدين بهذا الكلام؟ أمك؟ أنا! هل تريد أمك بكِ ضُرًا؟ وأي ذنب؟ قلت لكِ مئة مرة أنتِ لستِ مذنبة، بل هو ذنبي.

- هو ذنبي أنا أنكِ لم تعيشي الحياة التي أردتِها وتمنيتها.

- أنتِ الحياة التي أردتُها وتمنيتها، أحييتني بعد موت محقق. يجب أن تصدقي هذا. لم تعرفي بعد غلاوة الضنا.

اشتد على آصال الدمع، فكممت فمها براحة يدها، ليخرج صوتها مكتومًا بصحبة البكاء:

- بل أنا التي أمتك، لولاي لكنتِ حية، حية بمعنى الكلمة وليس ببضعة أنفاس تتردد بالكاد على صدرك. ولولاكِ لكنتُ أنا أيضًا حية! أنا أموت يا ماما، أموت، نحن نميت بعضنا البعض. كلتانا ضميرها مُثقَل بالذنب تجاه الأخرى.

هبت روحية تجذب ابنتها إلى صدرها العامر في سرعة وقوة آلمت الأخيرة. ضمتها في شدة حانية، وأقفلت عليها ذراعيها بإحكام، ثم جعلت تردد وهي تنشج مثلها:

- اخرسي يا قليلة الحياء، اخرسي تمامًا، اخرسي...

تشبثت آصال بغمرة أمها مستعطفة. إنها سريعة

الانفعال كطلقة رصاص غادرة! يندلع اللهب في جوفها مستشريًا في أنحاء جسدها، لا يطفئه غير البوح والبكاء، ومن ثم تهدأ وتبرد نارها.

- أنا آسفة يا ماما، آسفة، سامحيني أرجوكِ، تعرفينني حينما أغضب. لا أقصد الإساءة إليكِ، لكن.. أنا متعبة، متعبة...

***

- ماذا تحاول أن تقول؟ هل تستهدف الضحية وتترك الجاني؟!

صفق جلال باب الشقة خلفهما في ضجر، مطوحًا مفاتيحه وهو يزمجر:

- وهل رأيتني تركته؟ لقد انقضضت عليه وأوسعته ضربًا ذلك الحقير ما أن لمحته يتعرض لكِ بطريقك لمدخل البناية وكنتُ بالصدفة أصف سيارتي.

ألقت بدورها حقيبتها على أقرب كرسي، وخلعت صندلها وألقته على الأرض في غضب، هاتفة:

- ثم ماذا؟ بدلاً أن تحبسه؛ تعفو عنه، وتحبسني أنا!

التفت إليها مستنكرًا:

- أنتِ مجنونة؟ أحبسه بأي تهمة إن شاء الله؟ أفضح نفسي بنفسي! حقي أخذته بيديّ هاتين، والناس خلصته مني بأعجوبة وقد كُتب له عمر جديد. ثم كيف تتكلمين معي بهذا التبجح؟ كيف تتكلمين أصلاً؟ لا أريد أن أسمع صوتك، ويا حبذا لو تبتعدين عن ناظريّ قليلاً. ألا تدرين ما أشعر به بعدما رأى الجيران والمارة بصمات ذلك الرجل على جسد زوجتي المصون؟ ومن لم يرَ فقد سمع وشطح بخياله، وستدور الحكاية في الحي والأحياء المجاورة.

تبعته إلى الغرفة كثورٍ هائج. أشار إليها بالانصراف،

وهو يلقي بجسده على الفراش في عنف:

- هيا، هيا، اتركيني وحدي وأغلقي الباب خلفك. انصرفي.

ضغطت على زر الإضاءة في سخط لتغشي عينيه ويحتمي منها بالوسادة، بينما قطعت الغرفة جيئة وذهاب، قائلة في غل:

- لا تقلق، سأريحك من القرف الذي تشعر به بمجرد النظر إليّ الآن، لكن ليس قبل أن تعيد عليّ ثانية ما قلته بينما تجرني من بين الناس كفضيحة.

قال بصرامة:

- أظن هذا شيء بديهي. لا أفهم كيف تستغربينه بعد ما جرى! لا أسمح أن تكوني ملكية عامة؛ أنتِ ملكي وحدي.

أطلقت ضحكة قصيرة مفتعلة، وأخذت تلوح بكفها في انزعاج:

- لا، لا، أنتَ واهم. لستُ ملكية عامة ولا خاصة، لستُ ملكية على الإطلاق، ولا بسكوتة مكشوفة ولا جوهرة في علبة قطيفة. أنا إنسان يا جلال، لست مُقتنى شخصيًا. يحق لي التعامل مع محيطي، أتحمل حسناته وسيئاته، أتحقق، أعيش داخل الدنيا لا على هامشها. لا تبني الأسوار حولي. وأنا لن أقف مكتوفة الأيدي؛ لن أنيلها لك. من البداية تود لو تقعدني من عملي، هذه مجرد حجة! لو أن لك بنتًا كنت لتمنعها أيضًا عن

تعليمها؟ وماذا عن طاقم التمريض في مشفاك؟ لألزمتهن بيوتهن لو أن الأمر بيدك؟ أم هي أنا فحسب التي تريد ألا تزعج نفسك بشأنها وتمارس عليها رجولتك؟!

قام من رقاده محذرًا:

- انتبهي يا آصال! لا تعجبني الطريقة التي تتكلمين بها معي.

- دعك من طريقتي الآن. لا تتهرب أنتَ من السؤال.

حدجها في صمت لبعض الوقت، ثم حرك شفتيه بطريقة تنم عن استيائه، وقال:

- أنتِ كائن ضعيف، لا تخادعي نفسك. قد يصعب عليكِ تصديق أن ثمة رجلاً يخشى على امرأته ويحرص على راحتها وأمانها! ليس استعبادًا. لست مهووسًا بحبس النساء في المنزل يا آصال! يمكنك أن تخرجي كما تشائين، لكن بصحبتي من الآن فصاعدًا. أنا فقط لا أرى ضرورة لمزاولة النساء المهن التي ليست في حاجة فعلية إليهن، هذا رأيي من قديم الأزل. أما الفتيات يجب طبعًا أن يتعلمن لأنهن سيكن أمهات في المستقبل، والمجتمع لا يستغني عن الممرضات والطبيبات بالتأكيد.

رفعت حاجباها مغتاظة:

- آه، عقدة الطبيب والمتبجحين بمستواهم العلمي! مهنتي إذن غير ضرورية برأيك وفي غنى عن مزاولتي

لها؟

- دائمًا مصطلحاتك ثقيلة ولا تكف عن تخييب أملي. لكنكِ أصبتِ – هز كتفيه في استخفاف - هي فعلاً مجرد مهنة يمكن أن يؤديها غيرك ما دمنا لا نحتاج إلى مهاراتك أنتِ بالذات، ولن تخسر المهنة شيئًا في نفس الوقت.

- أنت متحيز جدًا وغير موضوعي بالمرة!

جلس على طرف السرير محنيًا كتفيه، وقال في جدية:

- اسمعي يا آصال، أنا لا أضطهدك كما تتصورين، لذا لنتفق على حل وسط قد يجعلني أوافق على استمرارك في مزاولة عملك؛ يجب أن تتحجبي. نحن في غنى عن تكرار ما حدث اليوم، أليس كذلك؟

قطبت حاجبيها المقوسين، ولم تملك غير أن تصرخ في هياج:

- ماذا قلت؟! تحاول دائمًا لي ذراعي، تبتزني! من صور لك أن من حقك أن تسمح لي أو لا تسمح لي بأبسط حقوقي؟

- اخفضي صوتك.

لوحت بلا مبالاة متعمدة، وتابعت بنفس الشراسة:

- لا، لماذا أيها الرجال تبيعون وتشترون فينا؟ كل المشكلة في الحجاب؟ هذه القماشة على رأسي ستقيني

وتحميني؟ أمك وأمي وجدتك وجدتي كن يرتدين الميكروجيب والمايوهات، هل سمعت عن أحد تعرض لهن؟

تحلى بهدوء غريب عليه وهو يقول:

- بصرف النظر عن كل الاحتجاجات الفارغة التي سمعتها وغضضت الطرف عنها بمزاجي حتى أجادلك بالتي هي أحسن؛ أوافقك أنها ظاهرة حديثة، الزمن تغير، لذا يجب أن نتغير معه حتى نستطيع العيش فيه.

هزت رأسها يمنة ويسرة بغير تصديق:

- نتغير! نحن لا هم؟ ألا تسمع عن التحرش بالمنتقبات والعجائز والأطفال، وحتى الذكور؟ وماذا عن المسيحيات والأجنبيات؟ هل مباح التحرش بهن لأنهن لا يغطين رؤوسهن؟ هل تعرف متى تم التحرش بي أول مرة؟ في الفترة القصيرة التي ارتديت فيها الحجاب! ما دمت أنتَ صاحب العرض تبرر للمُعتدِي سيظن أنه صاحب حق؛ سيُبقي على اعتداءه ما دام يجد من يحمل عنه اللوم ويبرئ ساحته، لا مبرر! لا مبرر! أنتم تجنون علينا.

- أنتِ جريئة للغاية!

- بل أنا محتشمة للغاية، في سلوكي وملبسي. بالله عليك قُل الحق: هل شعري هو محرك شهواتهم؟ لماذا تتحرك شهواتهم إذن تجاه المنتقبات؟! أين تكمن حقًا شهواتهم يا دكتور؟ أين؟

جعل يناديها بملل شديد النبرة:

- آصال! آصال! كفى. بدون سياقة كل هذه المبررات؛ هذه خطوة مفروغ منها، لكن أجلت الحديث فيها لما بعد الزواج.

قهقهت في مرح مصطنع:

- فعلاً! أبهرتني. لكن لا أظن أنك ستنجح في مسعاك، حتى بعد الزواج.

جز على أسنانه وأغلظ القول:

- للمرة الثالثة أنبهك إلى طريقة كلامك معي. ثم إن هذا القرار لسوء حظك لا يعود إليكِ، بل لمن يملك أمرك، أنا، زوجك.

- تملك أمري! لا حول ولا قوة إلا بالله. قل لي يا جلال: لماذا ينتظر الواحد منكم أن تكون المرأة في عصمته ليفرض شروطه عليها؟ وتظن أني سأطيعك! خمن؟ لست موافقة، لن تغير بي شيئًا على غير إرادتي لمجرد أني أحمل اسمك. قبل اسمك الذي أحمله أنا أحمل عقلاً يتفكر ولا يُسيَّر كالبهائم.

- ونعم العقل المفكر! صحيح.. ناقصات عقل ودين.

- هل هذه محاولة لإهانتي؟

- تجاوزتِ حدودك كثيرًا الليلة وتستحقين الإهانة، لكنها في الواقع ليست كذلك؛ إنها حقيقة، وأنتِ خير دليل عليها.

التوى ثغرها بنصف ابتسامة:

- يؤسفني أن أقول لك إنك لا تعرف ما تتحدث عنه.

- احفظي أدبك! أرأيت أنكِ من تتسببين لنفسك بالإهانة؟

عقدت ساعديها أمام صدرها في ثقة:

- إهانة لمُفسرها على نحو معيب. دعنا نرى.. فيمَ تستند على انتقاصك من عقل المرأة؟ أن شهادتك بشهادة اثنتين، أليس كذلك؟ هل تدرك أصلاً الحكمة في ذلك؟ لغلبة العاطفة يا دكتور؛ العاطفة التي تلزم أجسادًا تسكنها الأجنة، العاطفة التي تعوزكم! وكما تعلم هذا لم يمنع النساء في العالم المتحضر من الوصول لكل المناصب في الدولة حتى الرئاسة والقضاء. وبالنسبة لاجتنابنا الصلاة والصيام في أوقات بعينها؛ هذا برهانك على نقص الدين أم تراه اتباعًا منا للدين؟ لعلك تعيب الآمر! – خبطت كفًا بكف وهي تتابع في تهكم ملحوظ - بشكل ما ترى أنك تهينني رغم أنك تهين نفسك في الواقع عندما تسوق ضدي مجرد حديث ضعيف، وتفسره أيضًا على هواك الشخصي.

- أنتِ زوجة غير محترمة وبحاجة للتأديب!

- لا! أنا محترمة يا جلال، محترمة أكثر من كل من تعرفهم في حياتك مجتمعين، لا تسئ أنت إليّ لمجرد أنك لا تحتمل أن أصحح لك مسلماتك.

تساءل في استهزاء:

- وفرض الحجاب! أليس من المسلمات الصحيحة التي تحاولين الانتصار لها؟ أم أسقطته بمزاجك من حساباتك؟

- لا، ليس كذلك. أنا غير مقتنعة أنه فريضة من الأساس.

أطبق جفنيه لبرهة وخرج صوته متماسكًا بالكاد:

- بل هو فريضة عليكِ رغمًا عن أنفك – تابع محذرًا - لا تتعمدي إخراجي عن شعوري يا آصال.

- لا تحاول معي. لقد بحثت في الأمر مطولاً ومقتنعة بما وصلت إليه.

- لن أحاول طبعًا الخوض في هذا الهراء معكِ. اسمعي يا بنت الحلال ما سأقول ولا تضعي منطقًا بعده...

حدجته بنظرة بائسة؛ لا يسمعها أصلاً! لم يسمع سوى رأس الموضوع فتجهز فورًا؛ استعد ليملي عليها ما يحفظه ويسعى أن يلقنها إياه، لتومئ على كلامه وتتبعه كالحمار يحمل أسفارًا! يتعامل معها بمبدأ التلميذ الخائب. في كثير من الأحيان التلميذ يتفوق على أستاذه (ألا سحقًا للهزيمة على يد امرأة بالأخص! ربما أكون مشعوذة بالنسبة له، أستحق الحرق في محرقة الساحرات!) قاطعته بسرعة، مستجدية أن يضع لمرة واحدة قدميه في حذائها:

- لا، من فضلك، أجب عليّ أولاً: هل ستقبل لو طلبت منك أن تفعل ما يغاير قناعاتك الشخصية دون حتى

أدنى محاولة مني لإقناعك؟ كأنما أقول لك كن فتكون! هذا تحديدًا ما تفعله أنت معي.

تنهد في ملل:

- كفاكِ! فلتتوقفي عن جعل كل شيء يدور حولي.

أومأت مؤكدة:

- كل شيء بالفعل يدور حولك وبسببك وبأمرك.

- نحن لا نتحدث الآن عن قناعات شخصية! نتحدث عن عقيدة، فما شأني أنا؟ لا يهم جلال ولا تهم آصال، المهم هو صحيح الدين.

- إليك عني إذن، هو أمر بيني وبين ربي. لا تراني أتدخل في شأنك!

ضرب كفًا بكف:

- والله لا تجوز هذه المقارنة التي تعقدينها بيني وبينك دائمًا وأبدًا بسبب أو بدونه، دفاعك عن شيء بهذه الطريقة يجعله عديم القيمة والحُجة؛ وضعنا مختلف في كل شيء، أنتِ مسؤولة مني وليس العكس، تعاملي على هذا الأساس، هل تفهمين؟

- لستُ بالطفولية التي تصورني بها كأنما أسعى إلى شيء لأنه في يد غيري! هذا الاختلاف المزعوم الذي تتخذ مواقفك بناءً عليه؛ فارغ وعنصري. يحق لي تقرير مصيري مثلك تمامًا.

- أنتِ مهفوفة يا آصال وعقليتك معطوبة. معركتك

خاسرة، ألا تفهمين؟ لن يمكنك أن تحاربيني ولن يقف أحد في صفك.

نفت في كبرياء:

- موقف الناس شيء لا يهمني أبدًا. أنا أعقل من الأخذ بأحكام مجتمع جاهل وظالم، منشغل بهستيرية بمسألة لباس المرأة وغارق حتى أذنيه في الغش والكسل والغيبة والنميمة والرشوة والفساد – استطردت في تقزز واضح - مجتمع متدين بطبعه!

أومأ في شماتة:

- هذا هو مجتمعك. تقبلي الأمر الواقع.

برقت عيناها في تحد:

- لا! الأمر واقع لأننا من نجعله يقع، السر فينا والإرادة والقدرة في أيدينا. الكافر وحده من ينتحر، وأنا على إيمان عميق بنفسي؛ لن أكون أنا من يقرب منها بسوء أبدًا.

زأر بغتة كأسد جريح مبعوث على الانتقام:

- كفى. كفى. لم أعد قادرًا. أما لحمقك من نهاية؟! ممَ رأسك مصنوع؟ هه؟ من حديد! ولسانك هذا لا ينال منه التعب! لن تتغيري أبدًا، ولن أتعب نفسي معكِ أكثر. كلمة لن أردها: أنتِ طالق لو خرجتِ من المنزل بشعر مكشوف. انتهينا.

ارتج قلبها على نحو أثار غثيانها، فيما دفعها عمدًا في

طريقه للخارج، لتتلألأ في عينيها دموع حبيسة القلب، غير أنها أرجعتها إلى سجنها وأقفلت زنزانتها بإحكام، ولاحقته في عزم مرتبك:

- لا تحجر عليّ، ليس من حقك!

جعل يبحث عن مفاتيحه في عصبية، ثم هتف في توعد شديد اللهجة، قبل أن يلتقطها بسرعة ويخرج من الشقة كالإعصار:

- أنتِ أبعد ما تكونين عن معرفة ما يحق لي، فأحسن لكِ أن تبتلعي لسانك حتى لا أقصه لكِ. الله وحده يعلم ما يصبرني عليكِ!

سارعت بوضع راحة يدها على فمها حين هاجمتها نوبة غثيان قوية، ثم جرت صوب الحمام، وتشبثت بحافة المرحاض بكلتا يديها. كعادته نسى إنزال الإطار البلاستيك؛ تختل جلستها دونه، وتكاد مؤخرتها تنحشر في فتحة المرحاض كلما قضت حاجتها ناعسة أثناء الليل (لا يهمه ذلك طبعًا!) أفرغت ما في معدتها حتى العصارة، وجعلت تسعل وتبصق، عيناها محتقنتان وأنفها يسيل، تشعر بحرقة في حلقها وقبضة جامدة تمسك بصدرها.

***

تدرك أنه يحس ببكائها الأول في حضوره ولا يحرك فيه ساكنًا! دموعها تنحدر بغزارة على قصبة أنفها، دموعها تثقل الوسادة التي تريح عليها رأسها، دموعها تغفو على

وجهها وتبيت الليلة؛ يتأفف جلال، ويصم أذنه، ينتظم نفسه، وينام. لم تسمح أمها يومًا أن تطرق الدموع خديها ليلاً وتنام باكية؛ ترتعد روحية من البكاء في الفراش، تخشى أن تنام وحيدتها محزونة فلا تصحو ثانية! فقد كانت تؤمن أن الحزن يقتل.

انقلبت حياتها رأسًا على عقب بعد استقرارها الذي حافظت عليه لأعوام طويلة؛ عادت تقتات على الغيظ والظلم، وتبكي قهرًا ومذلةً واشتهاءً للعدل. صدرها مغلول، ورأسها يكاد يتفجر، الكافيين لم يعد مجديًا، وأية مسكنات أو مرطبات لا تُذهِب غصتها ولا تُبرِد حُرقتها. لكأنها مذنبة لإيمانها أن حقها في الحياة مُكتَسب لا يستلزم حربًا أو يستدعي تضحية! هل ثمة معصية في أنها تكفر بازدواجية ما أوتي للرجل في مجتمعها لكن مُحرَم عليها باسم العرف والعادة و«هذا ما وجدنا عليه آباءنا»؟ هل ثمة معصية في أنها تستشعر الرجال أكثر حظًا وقربًا إلى رحمة الله؟

(الذكر لا يعيبه إلا جيبه، ولا يمس رجولته غير القدر الذي يحظى به من الفحولة! بينما أنا فاقدة للأهلية والجدوى والحياة في مجتمع يأخذ أي صف ضدي، ويقاوم وجودي أكثر مما أقاومه للوجود، ويضعني على الهامش لتزيين الصورة لا أكثر وربما أقل. لتمر الأزمنة دون أن أبارح الرحم التي جئت منها إلى الدنيا، وأتكور على ذاتي في وضع جنيني. ومَن تصبح منا في عصمة رجل؛ يُسكِنها على الأغلب أربعة جدران مصمتة،

ويخفِض السقف على وجودها وأنفاسها، ويبقيها أقل منه بدرجة أو درجات، ربما تزيد أو تنقص حسب قدرة رحمها على استيعاب الذكور!)

نهضت من الفراش وجرت إلى الحمام، معاودة القيء. أخذت تتأوه بينما تقوم بصعوبة من على الأرض وتخلع ملابسها في عصبية، ثم تفتح صنبور المياه على جسدها في المغطس؛ لعل الماء يأخذ الوسخ الذي يتركونه فيها وينزله المجارير حيث ينتمي! غسلت فمها وتمضمضت مرارًا، ثم تكومت في الركن الأقصى بعيدًا عن سيل الماء المنهمر؛ تشعر بالبرد وتستلذه! وتنشج وتبكي، وتكور قبضتيها تمسح بهما وجهها لتفسح مكانًا جديدًا للدموع. ولما اشتدت رعدتها خرجت من المغطس، متدثرة بالبلل والدمع على جسدها وجوارحها.

وقفت أمام مرآة الحمام تطالع وجهها في تحفز، وتضفر شعرها إلا من بعضه؛ حفنة من الشعرات الحرائر تأبى الاندماج في جدائل متشابهة، مُحكَمة الزمام؛ تتطلع إلى الانفراد والرحاب والحرية، تتنفس، وتتحدى الخطر المحيق بكل شعرة فالتة عن جديلتها، تغامر بسهولة الكسر والموت في ضرب الهواء؛ إنها لحياة قصيرة الأمد، تعيشها بالطول والعرض، ثم تموت! لكن على الأقل مرة واحدة، بضربة واحدة، ثم ترقد في سلام، بعكس المجدولات اللائي يمتن من العطن والتطويق.. ألف مرة!

(ليضرب جلال رأسه ومكابرته وإعراضه في أغلظ

حائط؛ أنا أبجل كينونتي والفطرة السليمة. ألا يقولون: «العند يولد الكفر»؟ بل الكفر يولد العند).

***

الفصل الثاني

تكون إحدانا مستغرقة في محاولة إقرار هويتها، وهذا كافٍ لملء كل العواطف التي يتسع لها جسدك. تخيلوا ما الذي يعنيه، فوق ذلك، الصراع مع من يحيطون بكِ؟

مارثيلا سيرانو

فتاة شديدة النحول، فارعة الطول، تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، لا يكلل وجهها غير العبوس. قتامة ملابسها لا تلائم سنها ولا اتساعها يناسب جسدها؛ ترتدي جونلة طويلة وبلوزة تكاد تبلغ ركبتيها، وتضع على رأسها طرحة مثلثة، يتلاقى طرفاها حول عنقها بدبوس معدني قبيح الشكل. خرجت من منزل حضري مؤلف من طابق واحد، على مشارف مدينة المنصورة، يطل على طريق سريع للسيارات يتوسطه مجرى مائي عريض. وقفت تحاول العبور إلى الجهة الأخرى، حيث الأراضي الزراعية ممتدة. أخذت تترقب خلو الطريق ولو لبرهة من السيارات المتتابعة، فيما تتلفت خلفها كل حين، تنظر إلى منزلها في تخوف، تخشى خروج والدها إلى الشرفة، يظنها نائمة في غرفتها، وأمها تُبقي الباب عليها مقفولاً وتداري على غيابها؛ لن تكون العواقب حميدة لو رآها تخرج لتلتقي بصديقاتها في العزبة على الناحية الأخرى من الطريق.

كان في أثرها شابان على متن دراجة، سار سائقها بمحاذاتها ليمكن صاحبه من القرب منها، صفعها الأخير على مؤخرتها، فالتفتت تواجهه في ذعر؛ لتسنح له فرصة الإمساك بثديها الذي يحبسه المشد، مقهقهًا في امتعاض:

- صدرك لم ينبت بعد!

سابقت ساقاها الدراجة، أخذت تجري ويطاردها الشابان، شدها ذات المتحرش من طرحتها حتى جرح الدبوس عنقها وهي تنخلع عن رأسها، قهقه الشاب أكثر، فصرخت متملصة من يده التي جعلت تعبث على أنحاء جسدها. إلامَ تجرين؟ الأمان في الاتجاه المعاكس! دارت على عقبيها متلجلجة، ثم عبرت نهر الطريق في تهور، متسمرة أمام سيارة مسرعة، وحين تحركت في اللحظة الأخيرة اختل توازنها ووقعت على الأرض؛ ليضغط سائق السيارة مكابحها بصوت مزعج وهو يسبها؛ أخذ الشابان يضحكان في هستيرية، بينما خرج والدها إلى الشرفة يستطلع الأصوات.

تحسست حجرًا صغيرًا كانت قد وقعت عليه وجرح ذراعها، أمسكت به في قوة، وهي تقوم من وقعتها دامعة العينين، وبدون تفكير صوبته على الشاب، صارخة:

- خذ هذا يا حيوان يا سافل.

أصاب الحجر رأسه فاختل توازنه من على الدراجة، ووقع وهو يتأوه ويتحسس رأسه المخضب بالدم، بينما نزل صاحبه من على الدراجة ليلحق به، وهو يسبها بأقذع الشتائم.

رفعت عينيها في رعب إلى والدها الذي هرول ناحيتها، هادرًا:

- فتحتِ رأس الولد يا بنت الكلب!

أطاح مرآه أمامها بجرأتها وعزمها على الانتقام، فخفضت فورًا بصرها متلعثمة:

- إنه هو.. هو الذي..

أمسك ذقنها بكفه مثبتًا إياها، وأخذ يضربها بالأخرى على كل ما يطاله من وجهها ورأسها، وهو يتابع:

- فتحتِ رأسه يا مصيبة! ماذا أخرجِك من المنزل يا حيوانة؟ غوري.

ركلها بقدمه في شراسة، فطرحها أرضًا على وجهها، مستطردًا:

- عودي للمنزل يا حمارة حالاً. حسابك معي عسير. أنتِ وأمك يا روح أمك.

وأمسك بطرف جلبابه بيده، وجرى ناحية الشابين، وهو يصيح في قلق:

- ماذا أصابك يا ولد؟ هل جرى له شيء يا ابني؟

***

- تفضل بالداخل، معاذ الله أن نقف على عتبة المنزل؟ لا يصح والله الكلام على قارعة الطريق!

- لا سلام ولا كلام. ابني تعرض لإصابة كبيرة، خيطت رأسه بعشر غرز، الأطباء اشتبهوا في البداية في ارتجاج في المخ، لكن الحمد لله جاءت سليمة. لولا ذلك لحررنا محضرًا في القسم وشرفت ابنتك في الحجز الليلة.

- لا! ألف سلامة عليه، الحمد لله على سلامته، إن شاء

الله يتعافى جرحه سريعًا، وأنا سآتي بنفسي للاطمئنان عليه.

(جرحه سيتعافى يا أبي، ماذا عن جرحي أنا؟!)

كانت آصال قد تحاملت على نفسها، وخرجت قبل قليل من الشقة، ونزلت الدرج المؤدي لمدخل المنزل بخطوات وئيدة لإجابة الطارق امتثالاً لأمر والدها. كتفاها محنيان وجسدها مشبع بالألم. فتحت بوابة المنزل الحديد في تثاقل، ليرمقها رجل خمسيني في قرف ويطلب مقابلة والدها. نادت الأخير بصوت مبحوح، تعلمه بهوية الزائر، فهبط الدرج على عجالة، مُرحبًا بصوت جهوري:

- يا أهلاً وسهلاً، خطوة عزيزة. حصلت لنا البركة.

ولطمها في طريقه، آمرًا إياها بالصعود إلى الشقة، لكنها توارت خلف أحد جدران المدخل، تسترق السمع. ثم خرجت فجأة من مخبئها باترة حديثهما، هاتفة في تشفٍ:

- يستأهل. حتى يحرم أن يمد يده على بنات الناس.

حول أبوها أنظاره بينهما مُحرَجًا، ثم صرخ في وجهها:

- وتتكلمين بعد يا بنت الكلب؟!

شد الرجل قامته، وقال في ضيق:

- أدب ابنتك يا حضرة.

طالتها يد والدها فأعملت فيها الضرب العشوائي، وهو

ينظر للرجل معتذرًا:

- متأسفون والله. لك عليّ ألا ترى الشارع ثانية. على جثتي لو خرجتِ من المنزل مجددًا يا حيوانة، اِنْجَرَّي بلغي أمك أن تهيئ الصالون لاستقبال الحاج.

هز الرجل رأسه رافضًا، مُثنيًا الفتاة المذعورة التي التهمت الدرج صعودًا، وتعثرت في نهايته.

- انتظري يا بنت. المعذرة يا أستاذ، لم آتِ لتضايفني.

أومأ أبوها عدة مرات في خزي صادق:

- أعرف، أعرف طبعًا. سأؤدب البنت والله، لا تتخيل كم الضرب الذي نالته مني عقابًا، وأمها كذلك، لتربيتها الوسخة لها، إنها عار عليّ والله.

(بل أنت العار يا أبي! أنت العار!)

أفسح الطريق للداخل وهو يشد على يده مُلِحًا:

- لكن أبدًا، لن تأتي إلي بيتي وتغادر دون أن تشرب شايك. المسامح كريم يا أخي. ما محبة إلا بعد عداوة، أليس كذلك؟ تفضل، تفضل.

***

سارت آصال بتأنٍ بين المتدربين في الورشة الفنية الخاصة التي تتعاقد على تدريسها، تمعن النظر في لوحاتهم، وتتابع تطبيقاتهم في تركيز مفتعل.

- استعمل الجل لتمديد اللون يا أحمد.

أومأ الشاب وجعل ينفذ، حين استرعى انتباهها أدوات زميلته على الطاولة، فاقتربت منها محذرة:

- انتبهي يا رشا، أغلقي الأنابيب بإحكام حتى لا تتصلب الألوان داخلها.

- لكن يصعب عليّ أحيانًا فتحها.

- عرضي الأنبوب لنار عود ثقاب سيُفتح معكِ بسهولة.

أشارت إلى متدرب آخر، عندما راعها اتساخ وجفاف فرشه التي قلبتها بين يديها في استياء:

- حاول أن تكون أكثر حرصًا على تنظيف فرشك يا إياد حتى لا تضطر لتغييرها؛ الريشة المستعملة تعطيك نتيجة أفضل كثيرًا من الريشة الجديدة.

- آه، حسنًا، سأنتبه لذلك، يكفي أن الفرش التي تنصحينا بها في حد ذاتها غالية الثمن.

- أعرف، لكن الفرش رخيصة الثمن تكون سيئة الصنع، يتساقط شعرها، ولا تستطيع أن تنظف لوحتك من الشعرات المتساقطة دون أن تفسد اللوحة نفسها... عذرًا.

كان هاتفها يرن في إصرار، تومض الشاشة باسمه. تعمدت تجاهل اتصال سابق له. ثم ضغطت على زر قبول اتصاله الثاني باللحظة الأخيرة، قائلة بلهجة عملية سريعة:

- آلو. جلال. لا أستطيع الحديث إليك الآن. اطلبني بعد قليل.

طال صمته، فتفقدت الهاتف لتدرك أنها كانت تنصت إلى انقطاع المكالمة! لقد أنهى المحادثة على الفور بدون كلمة أخرى.

مر وقت طويل، رتيب، ممل، قطعته في إمعان النظر إلى أظفارها الطويلة بدون تركيز، لم يكن لديها شيء آخر تفعله، أو بالأحرى تستطيع فعله وهي على هذه الحال، بعدما اعتذرت عن تكملة العمل في الورشة. أخذت تحدق في هاتفها في توتر مصحوب برغبة في البكاء، حتى جاءها اتصاله التالي، لتتلقاه في سرعة لاإرادية!

- حذاري أن تفعليها ثانيةً، عندما أتصل بكِ تتفرغين لمكالمتي.

انقبضت أصابعها على الهاتف في ضيق، وعبثت أناملها بنهايات شعرها الحرة، الغريب أنه دائمًا ما يفعلها معها؛ (لدي عملية.. أنا مشغول.. لا يمكنني الحديث)، وربما لا يرد أصلاً أو يصد اتصالها، لكنها طبعًا ليست بالأهمية التي تخول لها أن تكون مشغولة بشيء آخر عنه!

تنحنحت في صعوبة مقاوِمة الانفعال:

- ماذا تريد؟

أجابها ببعض من الصمت الشائك، ثم أرخى صوته:

- لم أكن أعرف أنكِ ستحسمين أمرك بهذه السرعة، كنتِ ما زلتِ نائمة وأنا أغادر هذا الصباح، ظننتكِ لن تذهبي إلى العمل.

ردت في اقتضاب:

- بلى، ذهبت.

- أين ورشتك اليوم؟

- في بيت السناري.

أتاها صوته حاملاً ضحكة وارتياحًا:

- حسنًا، سأحاول العودة باكرًا، ربما أسبقك أيضًا إلى المنزل.

***

سقطت على الأرض حقيبة بلاستيك بدوي عنيف، كان جلال يمسك بها وأفلتها من يده ما أن دلفت إلى المنزل ووقع بصره على هيئتها. كادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو يشير إليها بينما تتقدم منه:

- ما هذا؟ أين حجابك؟ هل خلعته في الرواق؟ في المصعد؟ أم خرجتِ من المنزل بهذا الشكل؟

خلعت حذاءها ببطء مغمغمة:

- رفقًا بأعصابك.

التقط الحقيبة وقلبها رأسًا على عقب، فسقطت منها قماشات خفيفة وعانقت الأرض في خفة، فيما هتف في ثورة:

- وهذا! هذا الاحتفال الذي أردت استقبالك به؟ لقد حلفت عليكِ يمين طلاق! يمين طلاق يا آصال ضربتِ به عرض الحائط؟

هزت كتفيها، وهي تسير في الرواق المؤدي لغرفة النوم، قائلة بلا مبالاة:

- بسيطة، اذهب لدار الإفتاء واعرف كفارة حلفانك. اغْرَم! قلت لك من قبل لن تملي عليّ أفعالي.

قبض على ساعديها زاجرًا إياها:

- تعالي هنا! يجب أن تسمعي هذا؛ لا حاجة بي للذهاب يا هانم. أنا قادر على معرفة الوضع الذي بتنا فيه، لم أكن أهددك أو أزجرك، أنتِ طالق مني لأني نويت فعلاً تطليقك إن عصيتني. أنتِ طالق!

تسمرت في مكانها لبرهة ثم التفتت إليه في دهشة حقيقية:

- عصيتك! مخالفتي لكلامك أصبحت معصية؟ أستغفر الله العظيم، تبالغ دائمًا في تقدير نفسك.

- الزمي حدودك!

لم تخفض صوتها هذه المرة ولم تلن لهجتها، شاعرة

بتحرر وجرأة:

- ألم تسأم بعد من الأمر والنهي؟ خلاااااص، انتهينا يا جلال، الحدود صارت ملزمة لكلينا، ألم تقر لتوك أننا أصبحنا طليقين، أنا كذلك لا أسمح لك بأن تتعدى معي أي حدود، وأولها أنه لم يعد لنا أن نبقى هنا معًا. من فضلك غادر المكان لأني لن أستطيع مغادرته الليلة؛ يلزمني وقت لأوضب أغراضي. غدًا يمكنك العودة. لن تجدني.

رمقها في استغراب:

- تتصرفين كأنما تحقق لكِ ما أردتِ بالضبط!

أومأت في ثقة:

- قد تحقق لك ما أردت أنت أيضًا. لا داعي للادعاء.

مط شفتيه في استهزاء، وهو يضع كفيه في جيبي سرواله، كأنما يدفن خيبته في ترويضها.

- يبدو أن أحدنا لم يتسرع في تصحيح هذه الغلطة، بل ربما أخذنا وقتًا أكثر مما ينبغي كذلك!

ابتسمت في راحة:

- يسعدني أننا أخيرًا اتفقنا على شيء - بسطت يدها أمامه - مفاتيح السيارة.

أخرج كفيه من سرواله ببطء وهو يطالع المفاتيح في راحة يدها في دهشة، رافضًا أخذها:

- هي سيارتك! باسمك!

- كانت هدية زواج لم يدم شهرين، لا أستطيع قبولها.

- بل هي مهرك، بمثابة قائمتك. لقد قبلتِ العيش على أثاثي القديم ولم تطلبي شيئًا – تابع في سخرية - لم تطلبي حتى تغيير غرفة النوم! دع كل شيء كما هو، لا أمانع.. ألم يكن هذا كلامك؟

وضعت المفاتيح على أقرب قطعة أثاث، وعقدت ساعديها أمام صدرها، قائلة في سخرية مماثلة:

- لم أكلفك لأني لا أستطيع تحمل التكلفة بدوري، لا نملك المال اللازم لجهاز العروسة يا دكتور، مواردنا بسيطة تكفي معيشتنا بالكاد، لا أخفي عليك، كان هذا في صالحي؛ لم يُمَكِن عمتك من الضغط عليّ كثيرًا في مسألة الزواج.

صاح بغير تصديق:

- أنا ابن خالك! لم أكن لأنتظر منكِ شيئًا. كيف قبلتِ النوم على فراش كان لامرأة غيرك؟

تنهدت في قوة لعلها تخفي مرارتها:

- لا تستغرب. يمكنك القول إني اعتدت على ذلك؛ الأسرّة التي استقبلتني منذ يومي الأول في مصر لم يكن أحدها يخصني، فلمَ من شأنه أن يختلف هذا السرير؟

طالعها بنظرة لم تنجح في فهمها؛ أكانت احتقارًا أم حسرة أم شفقة؟ عليها أم على نفسه! وطال الصمت بينهما حتى قطعه بصوت أجش:

- لمَ تزوجتني يا آصال بينما من الواضح أنكِ لا تكنين لي أي حب أو احترام؟

- بل أنا من يحدوني الفضول يا جلال؛ لماذا تزوجتني؟ رحمةً بي! بنت عمتك العانس أنتَ أولى الناس بها؛ تسترها مثلاً؟

صاح مستنكرًا:

- من أنتِ؟ لا أكاد أعرفك!

- أنت لا تعرفني فعلاً.

هز رأسه في إحباط:

- ظننت أني عرفتك يومًا.

- لم يكن ظنك في محله إذن. والآن.. ربما تسدي غيري معروفًا كما أسديتني وخلصتني من العنوسة؛ تُرجِع زوجتك الأولى لعصمتك مثلاً؟ لقب مطلقة أيضًا ليس لطيفًا.

أشار إليها بسبابته في حدة:

- لقد طلقتها لأنها فعلت مثلما فعلتِ أنتِ تمامًا، أساءت الأدب، وأنا لا يمكنني العيش مع امرأة لا تحترمني.

- ألم يخطر لك أن المرأة لا يمكنها أيضًا أن تعيش مع رجل لا يحترمها؟

- تقصدين أنني غير محترم!

رفعت كفها في مواجهته في تهكم:

- رفقًا يا جلال، لم أعد زوجتك لتصيح في وجهي هكذا، نفث عن غضبك في وجه امرأة غيري؛ تزوج بأخرى، غدًا إن شئت أو حتى الليلة. أو ارتد ملهى ليليًا واستعن بخدمات إحداهن! لا تقلق، لن يحاسبك أحد، أنت مُطلَق حديث وسيتفهمون الأمر ويشجعونك. دائمًا ما يفعلون! والآن، تفضل ولا تضع وقتي، فعلى عكسك لديّ مواجهة لطيفة مع المجتمع بحالتي الاجتماعية الجديدة؛ لسنا جميعًا سواسية لو تعلم! هيا، ماذا تنتظر؟ غادر.

كان يتحين منذ مدة فرصة إخضاعها، فأسرع يقول في ثقة:

- ليس ثمة سبب يدفعني أو يدفعك للمغادرة؛ في شرع ربنا يفترض أن نبقى معًا تحت سقف واحد حتى تنتهي عدتك.

- ليلوك الناس سمعتي!

شحب وجهها فور إدراكها أنها لا تجد غضاضة في ارتكاب الخطأ لأنه عُرف سائد! بينما رماها جلال بسخرية وشيء من خيبة الأمل، ثم انفض من حولها، مبعثرًا حاجياته في كل مكان ليضع بعضها في حقيبة سفر. وقبل أن يغلق خلفه الباب على زواجهما الذي انتهى، قال في جدية دون أن ينظر إليها:

- أنتِ لستِ متزنة نفسيًا بالمناسبة. حاولي الحصول على مساعدة.

التوى ثغرها في استهزاء وارتعشت شفتيها، مُرتَشفة الدمع الساقط بينهما. وعمدت إلى أقرب كرسي، متهاوية إلى جانبه، مستندة بالكاد عليه.

(اتهمني بالجنون توًا؛ لأني أريد عيش حياة ليست بحياتي؛ أعيش كإنسان وأنا مجرد امرأة!)

عندما حنت على أمها، كان عزاؤها وسلوتها أنها ربما لتكون أقدر على تغيير رجل عن تغيير مجتمع بعادات وأفكار قبلية! وها هي قد أخفقت بمهمة الرجل الواحد! لم تكن بتلك البساطة التي وقع عليها اختيارها؛ مكمن الصعوبة ليس أبدًا في المفرد أو الجمع. لم تحسن تقدير الحسبة وحسب؛ الناتج متعدد الأصفار: أصفار دائرية، سوداء، كبيرة، تسد عين الشمس!

(رأيتِها الآن يا آصال؟ يا غبية؟ يا أغبى خلق الله!) .

***

انحنت نادرة بصعوبة، تتابع نضج طاجن الخضر باللحم في الفرن؛ لينال منها ألم فقرات ظهرها على نحو مفاجئ، وتزمجر في غضب منادية ابنتها، رافعة صوتها لينفذ إلى مسامعها في عزلتها:

- ليس معنى أنكِ غضبى من زوجك يا حيلة أمك أن تحبسي نفسك في الغرفة طوال اليوم يا دلوعة وأعلق وحدي في المطبخ أخدم جنابك! تعالي يا هانم ساعديني أم على يديكِ نقش الحنة؟ بنت يا حسناء؟ أين أنتِ؟ لماذا لا تجيبينني؟ وقعتك سوداء.

هرولت نادرة من المطبخ مقتحمة حجرة ابنتها، وعلى وجهها أمارات توعد انقلبت لانزعاج حين وجدتها خالية. تناهى إلى سمعها نداء خفيض من والدها العجوز:

- يا نادرة! يا نادرة! بح صوتي يا بنتي. حسناء صعدت لشقة روحية منذ قليل.

- وسمحت لها يا حاج؟ يا وعدي! ما أكثر ما ألقاه منكم يا عالم!

لطمت نادرة على وجهها مرات متتالية، مولولة، ولم تدخر جهدًا في النواح ومعاتبة أباها على سلامة نيته؛ غافلتها اللئيمة وقامت بالزيارة التي ظلت تحوم حولها ليالي، بعدما حرمتها عليها منذ عادت العقربة المطلقة! تركت والدها في حيرة من أمره وهرعت صوب حجرتها لتخرج منها متلفعة بعباءة ساترة. غادرت شقة أبيها

جارة ردفيها الثقيلين بصعوبة، مرتقية الدرج القديم إلى الطابق الثاني حيث تسكن عمتها روحية، التي كانت في هذه اللحظة تتابع في اهتمام حوار المرأتين بين غضب وندم.

- لم أفهم بعد دافعك للزواج في هذه السن المبكرة يا حسناء، وبرجل يكبرك باثني عشر عامًا!

صاحت روحية محذرة:

- آصال! هذا لا يصح.

أشارت حسناء بأنه لا بأس، ووافقتها الرأي:

- بلى يا تيتا روحية. أبلة آصال على حق. كنت مغرورة بسني؛ ماما أفهمتني أنه كلما كانت الفتاة صغيرة في السن تشرطت في الاختيار، وكلما زاد فارق العمر بينها وبين زوجها زاد دلالها عليه وحقق لها كل طلباتها، وكلما كبرت ترضى بقليلها أو تبور.

نهرتها آصال مستهجنة:

- عيب يا حسناء! لا ترددي كلام الجهلاء هذا. لسنا سلعًا للعرض والطلب.

- افتحن الباب، افتحن الباب.

هزت آصال رأسها في أسى لاوية ثغرها بسخرية، في حين انتفضت حسناء لصرخات أمها وخبطاتها المفزعة على باب الشقة الذي أسرعت روحية بفتحه؛ لتنقض نادرة على ابنتها كالإعصار وتشدها إلى جانبها.

- تكسرين كلامي يا تربية الندامة؟ أبِيث أعلّم في «المتبلِم» يصبح ناسيًا!

التفتت مواجهة آصال في كراهية جلية:

- لا تغسلي مخ البنت يا آصال. أعرف سمك الذي تنفثينه في عروقها. البنت صغيرة ونيتها سليمة، لماذا تحاولين أن تخربي بيتها كما خربتِ بيتك وبيت أمك؟ لماذا تحاولين إمالة بخت نساء العائلة؟ أبوكِ طَفشَ منكِ وزوجك كذلك! تريدين أن تُطفشي أيضًا زوج هذه البنت الغلبانة؟

أشاحت آصال وجهها عنها بقرف، قائلة:

- والله قلتهم أحسن!

اتسعت عينا نادرة وصاحت في عصبية:

- اخرسي، قطع لسانك! لا تأتي بسيرة الرجال المحترمين بالسوء. أخي من خيرة الرجال لا يتخير عن المرحوم زوجي – تهدج صوتها بفعل الغضب - أخي! أخي سأزوجه أحسن منكِ مئة مرة؛ بنت عشرين. كان أولى بكِ أن تحمدي ربنا عندما قبلكِ بعيبك. لكن خيرًا فعلتِ والله؛ من عانس لمطلقة – ضحكت ساخرة - يا قلبي لا تحزن.

كفى بنادرة حقيقة أنهما تطلقا لتُوقِع على آصال الملامة! رغم أن جلال لم يخض في تلك السيرة، متكتمًا على واقعة الطلاق، لتصير سرًا يتقاتل الناس على معرفته. لما اكتفت نادرة ولكفرتها بين الناس لو كانت

على علم! تُباهي بين الناس بحجاب ابنتها وهي بعد في العاشرة من عمرها.. قتلت طفولة حسناء! وها هي اليوم شعرها يبين من طرحتها؛ تُخرِج كامل غرتها المصبوغة، وتلبس كالكاسيات العاريات، والاسم مُحجَبة؛ محترمة في عُرف الناس، على عكسها.

أواه لو عرفت أمها السبب وراء الطلاق! لم تنفك تدعوها إلى الحجاب وتبتهل لله أن يغفر لها ويهديها إلى الحق كلما أتت على ذكر أنه عادة وليس عبادة. كم أمها طيبة! وللغرابة جلال شخص متحضر لم يسئ إليها وقد كان بإمكانه! للحق.. لم تتوقع منه ذلك.

- ماذا جرى يا عمتي؟ كيف تسمحين لابنتك بالتدخل في حياة ابنتي والوسوسة في أذنها؟

وجهت نادرة حديثها لروحية في عتاب شديد اللهجة، متغلبة على محاولة آصال مقاطعتها؛ لتزجرها الأخيرة في شراسة:

- مهلاً، مهلاً، كيف تسمحين أنتِ لنفسك أن تحدثي عمتك بهذه الطريقة؟

أجابت ساخرة:

- منكم نتعلم يا حبيبتي؛ منذ لجأتما إلينا للسكن معنا في منزلنا وشجاراتكما تصل لمسامعنا، نسمعك وأنتِ بعد طفلة ترفعين صوتك على أمك.

(تستأهل! أمي تستأهل صراخي في وجهها؛ كل مرة أفعلها أكون محقة.. صمتها وخنوعها وسلبيتها جرأ مثل

هذه الأشكال عليها وعليّ)

تابعت نادرة في شماتة:

- لذا لم أستغرب طلاقك بهذه السرعة؛ واحدة في مثل قلة أدبك وقلة أصلك لن تعمر مع أخي الدكتور المحترم.

هتفت آصال في غضب:

- زودتها كثيرًا، لولا أنكِ في بيتي لـ..

شهقت نادرة في حدة:

- بيتك؟ هذا بيت أبي، مشكورًا آواكِ فيه.

- هذه شقة جدي! وورثتها أمي عنه.

قالت نادرة بتصميم مستخدمة كفيها في التلويح العنيف:

- ثم باعتها لأبي وأخذت نصيبها منه نقدًا. لقد تزوجتُ يا حبيبتي في هذه الشقة لأبقى قريبة من أمي وأمرضها في أيامها الأخيرة، وحين توفي زوجي وضاقت بكما السبل في الوقت نفسه أعادني أبي إلى بيته ليسمح لكما بالانتقال إلى هنا - وجهت حديثها لروحية الممتقع وجهها - أخبريها يا عمتي.

- نادرة! هل فقدتِ عقلك؟

قاطع صوته الرجولي مشاجرتهما النسائية، وهو يدلف عبر باب الشقة المفتوح لتتحول أنظار أربعتهن إليه؛ تبادل مع آصال نظرة عابرة شابها بعض الارتباك، فيما تنهدت حسناء في ارتياح لمرآه؛ حتمًا سيحول بينها

وبين غضبة أمها عليها. بينما حدجته أخته في غيظ وبدا أنها غير مرحبة بحضوره، وهي تسأله:

- جلال! ماذا أتى بك؟

حث الخطى نحو عمته التي طالعته بامتنان لتدخله واستنكاره، مجيبًا:

- أبوكِ استدعاني لحل مشكلة ابنتك – قبل رأس روحية – أنا آسف يا عمتي – استدار إلى أخته آمرًا - يا بنت الأصول! اعتذري حالاً لعمتك ولآصال.

حركت نادرة رأسها معاندة:

- لا، لن أعتذر، هي من بدأت. لماذا تدافع عنها؟

رفعت آصال هامتها معترضة:

- لا ترغمها على شيء. هي عاقلة بما يكفي لتتحمل مسؤولية نفسها. لا تحتاج لمن يملي عليها أفعالها.

رمقها بنظرة مفادها «أنتِ حتمًا معتوهة؛ أنا أتخذ صفك!»، لكنها لم تعرها اهتماما وهي تنسحب من بينهم، تنهب الدرجات في طريقها إلى سطح البيت، لتتوجع كرامتها في الخلاء على انفراد.

- أنا آسف يا آصال. لا أجد عذرًا لتبجح نادرة.

تسمرت مدهوشة؛ لم تتوقع لحاقه بها بهذه السرعة، لم تتوقع لحاقه بها على الإطلاق، لكنها لم تستطع النظر إليه أو تقبل أسفه. تضمر نادرة لها الكراهية منذ زمن بعيد؛ كون آصال تسير على هواها مُحطِمة أعرافهم

المقدسة، تتبع نادرة معها سياسة العداء في الخفاء؛ تخز وخزًا كالإبرة دون أن تُسيِّل دمًا، غير أنها سنت سكينها اليوم؛ كالت لها بما لا يهون شأنه أو يُمَر عليه مرور الكرام. جاهدت آصال للمحافظة على ثباتها؛ لازمت مكانها متشبثة بقوة بسور السطح، تغالب دموعها. قالت بعد هنيهة بصوت مختنق رغمًا عنها:

- آسف على ماذا؟ على أننا نعيش بالإحسان طيلة هذه المدة، أرجوك!

رق قلبه لضعفها غير المعهود، وأثناها بلهجة حانية:

- آصال، توقفي عن وضع هذه العوازل بينك وبين أقرب الناس إليكِ؛ نحن أهل.

التفتت إليه في تحفز مفاجئ، قاصدة تغيير دفة الحديثِ:

- يجب أن تتخذ صف حسناء وتساعدها للحصول على الطلاق. أمها أفكارها رجعية، وأبوك رجل كبير؛ نادرة ستضغط عليه. لا تتخلَّ أنت عنها؛ البنت يتيمة وبحاجة إليك.

- لا تستعجلي؛ لعلها نزوة عابرة لا تستدعي خراب البيت. لا تقلقي، سأحرص على أن يراضيها.

هزت رأسها في إصرار، مفسرة حجتها في حماس:

- صدقني الطلاق في صالحها في الحالتين؛ خسارته لها عقاب رادع له ومكسب لها، فلو أنه باقٍ عليها ومعترف بحجم ما صدر عنه فحتمًا سيسعى إلى ردها

إليه والإخلاص لها، بعدما يكون قد اتعظ وتأكد أن مجتمعه وإن كان لا يحاسبه على الخيانة فإن الله لا يغفل ولا ينام، وزوجته كذلك لن تسكت وتمرر له أمرًا جلل كهذا، أما إن كان مكابرًا على الاعتراف بخطئه في حقها فحسبها ألا تبقى على ذمة زانٍ عاصٍ ولو يومًا واحدًا.

تنهد جلال في إحباط:

- كل المشكلات حلها في رأيك الطلاق؟ إنها حامل بطفله يا آصال! لماذا نحرمه من أبيه؟ وفي الغالب لن تستطيع معاودة الزواج، وإلا أُخذ الولد من حضانتها. لماذا نُفسِد حياتها بالكامل؟

صاحت مستنكرة:

- ألم تُفسِد خيانته حياتها بالفعل؟ لم يمر عام واحد على زواجهما، ماذا تتوقع أن يفعل بها تاليًا؟ لماذا تكون مضطرة إلى التنازل وتقبل بأحد خيارين كلاهما سيئ؟

أشار إليها بالتروي، قائلاً في هدوء:

- أليس جائزًا أن تكون حسناء قد ساهمت في ما وقع بشكل ما؟ لا بد من التأني وحل الأمر بعقلانية ألا تأخذنا الكرامة فندمر كل شيء. لا ضير من فرصة ثانية.

زمت شفتيها محتجة:

- لا مبرر للخيانة. لا تَلُم الضحية يا حضرة. ثم إن الفرص الثانية تُمنَح عن طيب خاطر، هذه ليست فرصة ثانية، هذا فرض عين!

رمقها مستاءً لبرهة ثم قال بلهجة ذات معنى:

- فرضًا أنكِ محقة؛ ليس الطلاق أمرًا هينًا لدى كل الناس كما هو لديكِ.

فطنت لما يرمي إليه فسكتت قليلاً، ثم عقدت ذراعيها على صدرها ببطء وتساءلت في ضيق متهكم:

- الخيانة هي التي أمر هين؟! خيانة الرجل فحسب؛ لأن خيانة المرأة.. أوه! أحاول فقط تخيل الوضع معكوسًا.. قطع رقاب، أليس كذلك؟

زفر في يأس:

- والله هذه طبيعة مجتمعنا الشرقي المتخلف، فأحسن لك يا آصال أن تهاجري إلى بلد أجنبي تنسلخين فيه من أبناء جلدتك تمامًا.you don't fit in here..

ارتفع حاجباها لوهلة في دهشة، متسائلة:

- العيب فيّ إذن لا في المكان! – أومأت متفهمة - لعلك على حق، أنا لا أنتمي إلى هنا، العالم العربي عمومًا هو أسوأ مكان يمكن أن يعيش فيه كائن مؤنث في كل أنحاء الأرض؛ مجتمع ازدواجي يكيل بمكيالين، سمة أهله إنكار بل ومباركة السوءات التي يتعرض لها جنس كامل باعتبارها «عادي يعني»، وكفاكن ادعاء ومبكى، لا داعي لكل هذا الصداع، أليس كذلك؟ - أطلقت تنهيدة عميقة - لهجرته فورًا لولا أني سأصبح خارجه مواطنة درجة ثانية أيضًا، لا يميزون على أساس الجنس صحيح لكن ماذا عن العرق واللون والدين؟ - عقدت حاجبيها

متذكرة - لكن والله ثمة أمل. هل تعرف جزر القمر؟ البلد العربي الوحيد الذي وقع بشكل كامل اتفاقية (سيداو). في حال لم تسمع عنها؛ هي اتفاقية دولية تابعة للأمم المتحدة للقضاء على كل أشكال التمييز ضد الإناث. تخيل؟ لم تبدِ جزر القمر على بنودها أيًا من التحفظات التي أبدتها باقي الدول العربية ومن بينها مصر بالمناسبة. طبعًا، يخشين فقدان هويتهن القمعية. أصدقك القول؟ لقد تفاجأت كون مصر وقعت أصلاً! – تابعت بحالمية - أما حكومة جزر القمر تعترف بشكل كامل بالمشكلات التي تعاني منها النساء، وتحاول حلها مع لجنة متابعة الاتفاقية القادمة للتقييم شخصيًا! الاعتراف بما يحدث وعدم إلقاء اللوم على الضحية يكفل الحد الأدنى من المعاملة الإنسانية، ألا توافقني؟

مط شفتيه في استخفاف، ثم أحنى رأسه مبتسمًا ولم يحر جواب؛ آثر الانسحاب خائب الرجاء، يبغض الجدل العقيم الذي لا يحرك المياه الراكدة، ويشعر بسوء بالغ نحوها؛ كم هي منفصلة عن الواقع بشكل مثير للقلق والشفقة! تتسبب بالأذى لنفسها ولمن حولها بالضرورة.

***

-٤-

جلست روحية بجوار ابنتها حول إحدى الطاولات الزجاجية المتراصة في قاعة الأفراح الصاخبة. تنحنحت قليلاً ثم مالت عليها قائلة في استعطاف، متغلبة على ضجيج الموسيقى حولهما بنبرة صوت عالية:

- متى ستنتهي مقاطعتك لي يا آصال؟

بقيت الأخيرة على إعراضها وشدة جسدها، لتستطرد روحية مغتنمة الموقف؛ لولا أن آصال لا تستطيع التخلف عن حضور فرح صديقة عمرها صفا، ما ملّكت أمها فرصة مجالستها والحديث إليها دون أن تستطيع أن توقفها، كما فعلت طيلة الأيام السابقة.

- كنا بحاجة إلى المال يا آصال. لماذا لا تريدين أن تفهمي؟ كيف كنا لنعيش وأبوكِ حالف عليّ يمين طلاق إن خرجت من البيت للعمل، في حين كان يرسل إلينا نفقة هزيلة؟ حايلته كثيرًا ليزيدها لكنه كان مقتنعًا أنها زائدة أصلاً عن حاجتنا وأني لا أطلب منه المزيد إلا لأسرقه! عمدت إلى تربية الطيور لسد حاجتنا وبيع الفائض، لكن ماذا بشأن تعليمك الخاص وكسوتك وكل ما تشتهين؟ من بعد وفاة جدك لم أكن لأنزع عنكِ فضله الذي غمرك به في حياته، لا سيما في تلك السن الصغيرة. تذكري جيدًا ما تحولتِ إلى ارتدائه حين عاد قاسم من سفره واستقر في العيش معنا، وكيف

اضطررتُ إلى نقلك إلى مدرسة ثانوية حكومية كي لا يكتشف أمر النقود ويصادرها منا، النقود التي أنقذتنا حين انقطعت عنا نفقته نهائيًا. كوني ممتنة.

زفرت آصال وقالت في نفاد صبر:

- نادرة حاقدة علينا، لن تترك لنا الشقة يومًا واحدًا في حال وفاة خالي. ألم تضعي هذا بدوره في حسبانك؟

أومأت روحية متحسرة، وقالت وقد تهدج صوتها:

- هل تفهمين إذن لمَ دفعتك إلى كنف رجل أمين عليكِ، يعتني بكِ ويكفيكِ شر الحاجة؟ وهل تتخيلين الآن حجم لوعتي حين فرطتِ في هذا الزوج بمنتهى الطيش؟

جزت آصال على أسنانها ولم تستطع مقاومة الهجوم على أمها؛ ملتفتة إليها بعينين متسعتين من الغضب، هاتفة:

- لسنا بحاجة إلى رجل! لماذا لا تتعلمين من أخطائك؟ كان عليكِ مصارحتي منذ زمن لأنحت الصخر؛ لنتخطى حاجتنا إلى أي بشر ونعيل أنفسنا بأنفسنا.

تنهدت روحية في أسى، وقالت مُحاوِلة استمالتها:

- يا بنتي.. أنتِ غاوية تعب وشقى! لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وكلٌ له دوره الاجتماعي، نكمل بعضنا البعض؛ الرجل يؤمن المادة والمرأة مسؤولة عن البيت والأطفال. لماذا لا تلتزمين بدورك لترتاحي وتريحي الجميع؟

لوحت آصال بكفها في استياء، مشيحة النظر:

- اسكتي يا ماما، اسكتي. حديثك يصيبني بالغثيان - تطلعت نحوها ثانية بعينين مغرورقتين وأنفاس متسارعة - لن أسامحك على تمسكك بهذه الشقة. كم رجوتك أن نستأجر شقة في القاهرة نعيش فيها معًا! توسلت إليك: العمل هناك أجدى يا ماما، رجوتك ألا تعيديني إلى هنا ثانية، أن ترحميني من نظرات الناس، أن تعفيني من جيرة نادرة ولسانها السليط. لكنكِ أبيتِ بحجة كاذبة؛ لن أخرج من شقتي، من يترك مِلكه ليستأجر؟ وأنتِ لا تملكين شيئًا ونعيش عالة على أخيكِ.

تحجرت ملامح روحية لوهلة، ثم بللت شفتيها بلسانها وهي تقول في ضيق واضح:

- نادرة نابها أزرق؛ لو تركنا الشقة لما مكنتنا من استعادتها لو لم نستطع فرضًا الالتزام بالإيجار شهريًا، فضلاً على أنكِ كنتِ تعولين على عائد تأجيرها ليتكفل بدفع الإيجار الجديد في القاهرة – تابعت في سخرية لاذعة - ها قد عرفتِ أننا لا نملك ذلك فماذا أنتِ فاعلة الآن يا صاحبة الشعارات الفارغة؟

دمدمت آصال خائبة الأمل:

- وهل تركتِ لي شيئًا لأفعله؟ لا أصدق أنكِ عاودتِ الكذب عليّ – تابعت متهكمة - جبينك أسود كُحل يا ماما.

تبادلت الاثنتان نظرة متحدية، أعقبتها روحية بإدارة ظهرها لها قائلة بلهجة حازمة:

- بالمناسبة يا آصال، أنا التي سأقاطعك من الآن فصاعدًا لحين أن تتأدبي في الحديث إلى أمك.

نكست آصال رأسها، زامة شفتيها، مؤرقة التفكير. تلفي نفسها مجددًا فاقدة المأوى والقدرة على التصرف. تعيدها حكمة الأقدار إلى ذات الفتاة الصغيرة المكسورة التي كانت عليها قبل نحو عشرين عامًا. تخيلت أن عودها قد اشتد ورمت عنها الحاجة بطول ذراع، لكنها ستبقى ضعيفة قليلة الحيلة إلى ما شاء الله، وقد حرصت أمها جيدًا على ذلك! لماذا قد تفعل بها هذا؟ لماذا يعدون الولد من الصفر لأن يكون مسؤولاً ومعاركًا للحياة ويعدون البنت لأن تكون عالة وتابعة لا تقرر مصيرها بساعد يدها؟

لاستطاعت تدبير أمرهما لو أنها أعدت العدة له، لكن أنى لها التصرف على هذا النحو المفاجئ؟ راتبها المسكين لن يعيل فردين زائد مسكن؛ لقمة العيش كالضرب الكاسح! إلا إذا تركت العمل الذي تحب وواصلت الليل بالنهار لأجرٍ مجزٍ. ليس بالهين عليها أن تفعل؛ تركها العمل البنكي البغيض وتفرغها للورشة منذ زواجها يحيل هذه الخطوة لتضحية مفجعة. فضلاً على الإيجارات الباهظة، وضعهما البائس حتمًا سيفضي بهما إلى منطقة شعبية ومساحة متواضعة!

ماذا عساها أن تفعل؟ هل تقبل معروف خالها مُبقية على الوضع الراهن كأنما لا تمسسها إهانة؟ أو الأسوأ أن تحني هامتها لجلال وتستنفع بحقوقها المالية من جراء طلاقهما، فتخرج من الورطة بإهانة مماثلة؛ «وكأنك يا أبا زيد ما غزوت»! تلح كبرياؤها كالنبض الضارب في الصدغ! لا تستسيغ الشعور بالجميل، لا تود أن تكون مدينة لأحد.

تواصل الجلبة انتزاعها من بؤرة أفكارها الطاحنة؛ استسلمت للانسحاب تدريجيًا مجيلة النظر فيما حولها: لا وجه يخلو من ملامح وسمات البشاشة ووهج الاحتفال، الصفير والتصفيق تهتز لهما الأرض، والرقص والموسيقى ينتشران في منتصف القاعة وأطرافها كأذرع أخطبوط. امتد خيط بصرها ليُلقي بطرفه حول العروس؛ اختلاجاتها وحركاتها موحية كلها بالسعادة. ابتسمت آصال لاشعوريًا وتنهدت في اطمئنان؛ تبدو صفا مرتاحة وصادقة. أبعد ما تكون عن سمة العروس التي كانتها هي قبل ثلاثة أشهر. هنيئًا لها. لا تود لها أكثر من ذلك.

انعقد حاجباها فجأة في قلق (لعلها ليست الفرحة إياها يا صفا!) البنت في كل الأحوال تفرح بالزفاف وليس بالضرورة بمن تزف إليه؛ الفستان الأبيض كالأميرات والليلة التي تتوجها ملكة على رأسها تاج؛ هذا يعني أنها صاحبة إنجاز، الإنجاز الوحيد للبنت في رأي الناس - والسبب كذلك وراء خلقها - يمكنها أن

تتفهم اصطفاف الفتيات دون انقطاع على شباك الزواج؛ من لا يسعى لأن يكون ناجحًا ومحبوبًا؟! حسناء أبلغ مثال، لا تنظر إلى حالها الآن! (رباه! لا أود لصفا مصيرًا مماثلًا). كانت بدورها في أوج سعادتها ليلة زفافها.

لم تسلم آصال ليلتها كالعادة من الهمزات واللمزات: آصال المراهقة الفتية التي حملت شمعة في سبوع مولد حسناء قبل عشرين عامًا، تحضر فرح الأخيرة ملازمة بعد مقاعد العزوبية، أو العنوسة؛ تحريًا لدقة الكلمات التي تخرج من أفواه الناس الذين لا تنزل أعينهم عن الآخرين؛ مُسلَطة على كل ما هو غير مُدرَج في جداولهم الحياتية. وأعينهم اليوم تستشعر العار منها، وتمرر لقبًا جديدًا على ألسنتهم؛ آصال المطلقة، ليس لها كاسر ولا رابط.. لا تخيب آمالهم أبدًا!

كان جلال واقفًا غير بعيد عنها في حفل زفاف حسناء؛ خال العروس يرحب بالمدعوين. يتخطف نظراته لآصال حينًا ويلح بها لتبادله النظرة حينًا آخر، ويُبدي الاجتهاد في طرق الحديث إليها. لم يجمعهما حدث أو حديث منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا؛ لم تحضر فرحه بعد عودته من سفره الطويل، ولم تحاول رؤيته خلال زياراته اللاحقة لوالده؛ بالكاد تلمحه. أبقت على السياج الذي شيدته حولها، يحول بينها وبين الجميع - عدا أمها وصفا - ويُبعِدها بالذات عن جلال الذي سهلت أمها مؤخرًا عبوره إليها، وكانت مخطئة!

انضم ليلتها إلى طاولتها بوجه حماسي، تحرى عن

حالها بأسئلة نمطية عابرة تفيد بأنه يعرف إجاباتها مسبقًا. ثم بادر بالتودد إليها بطريقة لم تبدُ متماشية كثيرًا مع ما تذكره عن طبيعته المتحفظة؛ عليك أن تنتزع منه الكلام انتزاعا! بينما كان كلامه تلك الليلة منمقًا على نحو غير عادي، كأنه مدرب عليه وأعد العدة لقوله، مسرفًا في الإطراء على ذوقها الراقي في اختيار ملابسها وزينة وجهها، ومثنيًا على التزامها الوقار الذي يعده البعض غريبًا على الفتيات في هذا النوع من المناسبات، لكنه يعجبه.

لم يكن جلال بحق على سجيته؛ كان يتعرق ويبذل مجهودًا خرافيًا في انتقاء الكلمات التي قد تستميلها إليه وتخدم هدفه، لم يكن واثقًا كيف من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها ثانية! وساءه أن لم يجد صدى مبشر في ردودها الشاكرة المقتضبة. أحنى وجهه ناحيتها بعد مهلة شحن فيها حقيقة مشاعره، ليهمس على نحو سمعته منه قديمًا، قديمًا جدًا:

- لا يزال وجهك صبوحًا ويانعًا يا آصال كسحابة بيضاء صافية. كأن لم تمر عليكِ السنون التي مرت علينا.

حدقت فيه بمزيج من الدهشة والاستنكار وانتفاضة القلب. لماذا يعيد هذا الكلام بالتحديد؟ خرج عن إطار المجاملة للتلميح بشيء مما مضى، وشرع يزيل كل الحواجز دفعة واحدة، كأنهما كانا باقيين على تواصل الأحبة أو أقله ذوي القربي! لعل الوقت أنساه آخر مكان

جمعهما وكل الكلام الذي قالته! لماذا لم تنسَ هي إذن؟ لماذا لم تتخطَ كل شيء وتُجارِ حديثه وتبادله ذات النظرة التي كان يرنو بها إليها؟ لماذا لم تلن لميله إليها الباقي على حاله وتترك نفسها تعود إلى ما سحبثها منه أول مرة؟

ولم تعد إلا بشكل صوري وبإحساس التضحية العظيمة. ولعلها كانت محقة، وحسبها الطلاق الذي وقع؛ على الأرجح جلال الذي تزوجته قبل بضعة أشهر ليس جلال نفسه الذي أحبته قبل عشرين عامًا، ليس الرجل الذي بكى!

هبت من مقعدها غير قادرة على الاحتمال، خرجت مسرعة كالطلقة من بين التجمع النسائي، استوقفتها أمها لتلقي التحية على بعضهن، مستنكرة عدم مشاركتها في مراسم الحزن؛ فلم تبالِ مواصلة طريقها، ولم تشعر أنها في حاجة لإبداء الأسباب. وقفت تزفر في غيظ خارج القاعة المخصصة للنساء بدار المناسبات بالمنصورة، غير مصدقة، تكاد تضرب كفًا بكف من فرط الذهول. اقتربت من اللافتة الكبيرة الموضوعة أمام مدخل القاعة، تدقق النظر جيدًا وتعيد القراءة:

عزاء المغفور له بإذن الله

عبد الرحمن إسماعيل المهدي

تتأكد أن الجمع بالداخل حضور لعزاء رجل دفنوه عصر اليوم، قبل ساعتين لا أكثر! تتشكك في معرفتهن بذلك؛ ضحكاتهن لا تزال تطرق أذنيها حيث تقف على مبعدة منهن، شاعرة بالحنق والغضب. حركت رأسها تجاه قاعة الرجال المجاورة، ألقت نظرة سريعة داخلها؛ لا ترى غير أقداح قهوة وشاى ودخان سجائر وصمت مطبق على الرؤوس. هزت رأسها في استحسان، وطالعت جلال المتخشب في مدخل القاعة؛ هذا محيا إنسان حزين. على الأقل غير متبلد الإحساس. عظم الله أجرك يا جلال. تنهدت في قوة ونزلت الدرج المفضي إلى الشارع حيث سارت الهويني عائدة إلى المنزل

القريب.

قبل ساعة:

تركت آصال أمها في صحبة نادرة وحسناء يتهيأن لاستقبال الوافدات، واتخذت مقعدًا في قاعة العزاء، آخذة في استحضار سمات خالها الطيبة والترحم عليه، لن تبكي، لا تحب البكاء على الملأ، تعتبر البكاء شعورًا حميميًا خاصًا، إعلانه ادعاء أو إثارة للشفقة، كما أنها لم تكن تشعر بالحزن أو الخسارة ليسهلا مهمتها في استدارا الدموع؛ تبغض النفاق؛ لم تحظَ برابطة مميزة مع خالها كالتي شهدتها مع جدها، بل كانت علاقتهما أقرب إلى التحفظ والرسمية، فضلاً عن أنه كان عجوزًا ومريضًا ومفارقته الحياة أمر محتوم لا يبعث على الدهشة أو الحسرة؛ غير أنها تحب أن تُبدي الاحترام والهيبة للموت؛ أن تعطي الحداد حقه، وقد كان رجلاً صالحًا، تشهد له بذلك، بل لعلها كانت تشعر بالحقد على أهل بيته.

لولا المثل الطيب الذي أرساه عبد الرحمن كزوج وأب - ومن قبله جدها لأمها إسماعيل - لناصبت كل الرجال العداء! كان خالها هادئ الطباع، صموتًا، لا يميل إلى الأحاديث العابرة وتلك التي تقتل الوقت، لو لم يكن لديه ما يقول لا يفتح فاه، ولو لم يهتم بما يقال لا يشارك في الحديث، يقطعه بلطف أو لا يشجع المتحدث فينقطع من تلقاء نفسه. لم يكن يتدخل في شؤون الآخرين؛ وهذا أكثر ما أحبته بشأنه، لا تذكر أنه قد راجع

تصرفاتها مرة أو أملى عليها كيفية تصريف حياتها، رغم السنين الطويلة التي عاشتها معه تحت سقف واحد اتضح لاحقًا أنه ملك له؛ ثمة أشخاص يملون إراداتهم على كل من يقع تحت طائلتهم بقانون المادة! حتى حين طُلقَت من ابنه لم يوقِع عليها الملامة شأن الآخرين، ربت عليها قاصدًا كل حرف قاله: «ربنا يعوضك بأخير منه». لا تعرف ممن ورثت نادرة طباعها!

تجل عطف ذلك الرجل، مرّض زوجته لسنوات طويلة جدًا؛ منذ شبت آصال ووعت وزوجة خالها قعيدة الفراش - بينما تقوم نادرة بشؤون المنزل منذ نعومة أظفارها - لكنه بقي على إخلاصه لها، ولم يفكر في الزواج بأخرى، في حياتها وبعد مماتها، وقد كان يدعوه إليه كل من حوله والمبررات جاهزة مفروشة كالرمل في طريقه! ويكفيها كرمه ومده يد المساعدة لأمها دون تجريح. حافظت على هذه الذكرى الأخيرة متقدة في ذهنها قبل أن تغرورق عيناها شاعره بالحاجة والقهر؛ إخلاء الشقة صار أمرًا واقعًا بوفاة خالها، وليس أمامها غير التصرف سريعًا في ما جنته من زيجة جلال، وهو فضل من نوع آخر لم تكن تحب أن يُحسَب له عليها، كانت قد حرمت مادته على نفسها، لكن الوقت كان سيفًا بحق، لم يمهل عزة نفسها مخرجًا آخر للأزمة!

ضحكة ممتدة وصليل أساور اصطكا بمسامعها ليخرجاها من حالة الرثاء. حملقت في ما كان يجري حولها على غفلة منها؛ اكتظت القاعة بابتسامات ناصعة

وقهقهة مستترة في نوع من الحرج المصطنع، يتسابقن على الترحيب ببعضهن البعض، ويباهين بملابسهن المختارة بعناية للعرض، يتبادلن النميمة كأنهن في حفل شاي، يُبدين الحماس والسعادة بحشرتهن في مكان مغلق، لا تلمح أثرًا لبكاء أو نهنهة أو لمحة تجهم، حتى نساء بيت المرحوم الثلاث وقريباته منخرطات في الضجيج! لا ترى غير حلي ذهبي مجلجل مع حركات صاحباته، وأصباغ وجوه غير مناسبة للحدث بالمرة، وطلاء أظفار لامع في أكثر من يد، لا أثر لتأبين! لم نفقد عزيزًا اليوم.

***

اليوم الثالث على التوالي الذي تتردد فيه آصال مع أمها على بيت خالها المتوفى، ترتدي السواد وتمكث النهار بطوله منفصلة عن هرج المعزين الساري حولها؛ تقرأ ما تيسر لها من القرآن، وتحدق في طليقها الشارد، مُتضارِبة المشاعر!

(أعرف معنى أن تفقد أبًا، لكن لا أعرف معنى أن تملك واحدًا، وأعرف أنك ملكت ففقدت، وهذا أبشع! وأختك نادرة؛ هذه المرأة التي تمثل السواد الأعظم من الناس حولنا؛ لن تجد لديها ما فقدت وما ملكت يومًا.

انظر إليها! ثلاثة أيام تضيف المعزين، تستميت في الترحاب بهم، تطبخ وتمد الطعام ولائم؛ لئلا يقلن عنها بخيلة! لا يفرغ الواحد منهم من مشروبه حتى تلحقه

بآخر، وتعرض عليهم العصائر والكيك. تحاول التسرية عنهم بكل ما أوتيت من نكات وذكريات؛ يصعب عليها أن ترى على وجوههم العبوس والدمع في بيتها! لا يصح أن يخرجوا من لدنها حزانى، فتضحكهم بنفسها، وتُخفِض صوت تلاوة القرآن لئلا تعلو على أصواتهم فيرتبكوا ويجنحوا إلى الصمت والحزن.

ليتشكك المقبل على العزاء أنه أخطأ بيت المرحوم! يتردد على باب الشقة التي تموج بالثرثرة والضحك ورائحة الخضر واللحم، لكنه سرعان ما يأخذ مقعده، ويأكل ويشرب ويضحك، ثم يشد على يد أهل البيت في حرارة، مودعًا في تجهم خاطف: «البقاء لله».

يفتح الله عليك! أنت قوي الذاكرة؛ لم تنس بعد أين أنت!

وتجلس أنت يا جلال في ركنٍ منزوٍ، روحك طافية، أراها محلقة في بعد آخر، لو لم تكن؛ لقمت من عزلتك تلك، وجرجرت أختك من طرحتها المطرزة بالترتر، ونزعت عنها حليها الكاملة، وطردت هؤلاء القوم جميعًا من شقة أبيك الميت للتو؛ إن أحدًا منهم لا يعرف للموت حرمة! لكنك لا تقوى على الحراك، جسدك أصبح مبرمجًا على المصافحة وهز الرأس وتلقي التعازي بحركات آلية؛ لم أنسَ بعد كيف تتلقى الموت، كيف تلقيته من قبل في أحضاني! أنت مسكين يا جلال، وحيد، يتيم، بلا أهل ولا ولد. حالك يُرثى لها، يُحزنني أنا نفسي، تصور؟)

لوحث آصال فجأة إلى حسناء من طرف خفي تطلب منها الاقتراب؛ استجابت الأخيرة مستوضحة؛ لتشير آصال عليها بحَث خالها على الخروج إلى الشرفة، ليستنشق بعض الهواء النظيف ويجلي صدره من التعب الواضح عليه. غير أن حسناء هزت رأسها مستنكرة:

- والمعزون؟

انقلب وجه آصال وردت ممتعضة:

- هؤلاء ليسوا معزين. حسناء، أرجوكِ لا تُجَوِّدي! افعلي ما قلت فحسب.

تابعت في اهتمام حسناء وهي تصرفه، لكنه خرج من الشقة عوضًا! مكثت آصال في مكانها دون حراك لفترة، ثم استأذنت للصعود إلى شقتها في الطابق الثاني، بيد أنها أكملت الدرج إلى نهايته؛ ودلفت إلى السطح تقودها الخُطى شطر الركن القصي منه، حيث توقعت أن تجده مفترشًا الأرض وعيناه صوب السماء. تهادت إليه فأدار وجهه نحوها متسائلاً، فيما أخذت مجلسها إلى جواره دون جواب، وشرعت تقرأ عليه سورة يس من المصحف الشريف الذي حملته معها. كان مغمض العينين في راحة، منصتًا بكل جوارحه، ولما فرغت ونظرت إليه مستطلعة، ظل على حاله لبرهة، ثم توجه إليها بالامتنان، مبتسمًا في خفة:

- ألا يجدر بكِ التلاوة وشعرك مغطى؟

احتقن وجهها من الغيظ ليرفع كفه مستسمحًا في

لين:

- أمزح. وربما لا! تهمني مصلحتك بالفعل يا آصال؛ كل شيخ وله طريقة.

دفعها أسلوبه للضحك في استهجان، وهي تجيبه:

- «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» يا سيدنا الشيخ.

سألها بصوته الأجش:

- ماذا لو أنه يعنيني؟ – زفر متراجعًا - على أي حال، شكرًا لكِ يا آصال. لن أنسى أن هذا معروفك الثاني، وفي هذا المكان تحديدًا؛ كأنكِ موعودة بي!

بهتت لوهلة وأطرقت مُحرَجة، بينما تنهد في أسى مستطردًا:

- لا أراكِ الله مكروهًا في عزيز لديكِ.

واجهته في صدق:

- خالي كان عزيزًا عليّ؛ بمثابة... أب لم أحظ به!

راعه تجعيدات الحزن حول عينيها وثغرها المرتعش؛ فتلقف يدها وضغط عليها في تأثر ومواساة. مجترًا وإياها ذكرى شبيهة.

***

دلفت آصال إلى منطقة صمت عميقة؛ تحدق في وجه صفا على نحو التحديق في الفراغ، وعقلها يعمل بدقة بندول الساعة دون أن يعقل غرابة أفعال صديقتها، حيث أسرفت على غير عادتها في التزين بصورة مبتذلة، مُستبدِلة بتحشمها المعروف عنها سروالاً فاتحًا غير ملحوظ لونه؛ تبدو به عن بعد كأنها لا ترتدي سوى بلوزة شفافة ضيقة وحذاء ذي كعب عالٍ يصدر نغمًا مغريًا، يستهدف كل من في نفسه هوى.

منذ وطئتا أرض النادي قبل قليل للتنزه على الأقدام؛ وآصال تضبطها تغازل الرجال في طريقهما، بل تقسم إنها تدفعهم دفعًا إلى ذلك؛ تبادلهم نظرة مغوية ويفتر ثغرها عن ابتسامة ذات معنى، وقد تلتفت بعد المرور بهم خلفها لنظرة أخيرة! جسدها يستجيب بوضوح؛ فتتدلل في مشيتها وتُهدئ من خطواتها عند الاقتراب من أحدهم، وقد ترتطم به عن غير قصد مفتعل. لم تفتأ آصال تنبهها: حاذري.. انتبهي.. أسرعي؛ حتى ساورها الشك أنها تتعمد ذلك.

لوحت صفا في وجه آصال تحثها على الكلام بعد جلوسهما لفترة دون أن تتبادلا كلمة واحدة؛ لتندفع الأخيرة في ثورة مفاجئة:

- ماذا دهاكِ يا صفا؟ لماذا تتصرفين على هذا النحو؟ لم يسبق أن تجاوبتِ مع أحد وأنتِ آنسة فما بالك وأنتِ

على ذمة رجل بالفعل!

بهتت صفا وانسحب اللون من وجهها لافتضاح أمرها. لكأنها بعد صبية ذات قلب غض لا يعرف كيف يقي نفسه من التشوق للحب! ترى أملاً موعودًا في كل التفاتة رجل إليها. هزت ساقيها في توتر وقالت وقد ترقرق الدمع في عينيها سخيًا:

- أنا في حال يُرثى لها يا آصال. دعيني أحاول الشعور بأى شيء؛ أتأكد أنني لستُ متبلدة المشاعر. أكاد أموت من الخيبة!

حدقت آصال فيها مستوضحة:

- ماذا تقصدين؟ لا أفهم شيئًا.

استنشقت صفا جرعة كبيرة من الهواء آخذة نفسًا أطول مما يلزم رئتيها اللتين كادتنا تنسحقان تحت وطأة التوتر والانفعال. لم تكن مضربة عن الزواج كآصال؛ بالعكس كانت راغبة فيه بشدة، كل ما أخرها عنه هو أنها كانت لديها تصورات مثالية وحسب عن الشخص المناسب لها، لم تنطبق بالكامل على أحد ممن طلبوا يدها، وكان وضع إبراهيم بالذات مختلفًا عنهم؛ لم يلقَ قبولها من أصله.. وللآن! غير أن مرور السنوات عليها كقطار لا يقف في محطة أرعبها مع تخطيها الحد المسموح به للبقاء عازبة. كان لديها شيء تخشى أن تفقده!

قالت بصوت متهدج من أثر الرثاء:

- هل تعرفين أن كل ما رددتُه على مسامعك تلك المرة أهلي لقنوني إياه؟ مارسوا عليّ كل أنواع الحيل والضغوط حد التهديد بالتبرؤ مني. لعلي لم أندم على الانتظار قدر ما ندمت على الإقدام. لم أكن لأتنازل بخاطري، ليس من أجل إبراهيم.

- ما علاقة هذا بذاك؟

أشارت صفا إليها بالتحلي بالصبر ريثما تبوح بأسرارها، مُحجِمة خجلاً عن سرها الأكبر في الفراش؛ حيث يرتوي زوجها فيما يتركها صحراء جرداء دون شربة ماء؛ لا يسألها حتى إن كان قد قام بعمله! لا تقلقه استجابتها.

جزت على أسنانها في غيظ، قائلة:

- ببساطة، لا أطيق إبراهيم. كم هو شخص أناني ووقح وثقيل الدم! وما أدراكِ وبخله؟ يكرهك في عيشتك. يجبرني على مواصلة العمل وأنا أكره التدريس! منيت نفسي بعد الزواج بالراحة من عناء العمل في المدرسة بمديرها ومعلميها وتلامذتها، لكنه أصر أن أشارك براتبي – تابعت في سخرية حانقة - يحاول أن يُجمِّل الصورة ويرفع شعارات المشاركة الوجدانية والحميمية الباذنجانية، لكن من يخدع؟

ابتسمت آصال في تعجب؛ لا يزال عمل المرأة لا يحظى بتأييد المجتمع الشرقي، لا يعتبره ضرورة من ضروريات الحياة، ليس في عُرفِه كالزواج! لم يزل أقرب

إلى الرفاهية والتسلية، يكتسب شرعية في حال الحاجة المادية الملحة لا غير؛ تتناسب المرأة قطعًا مع أثاث المنزل وحوض الغسيل أكثر مما تتناسب مع المخلوقات الحية، تقتضي طبيعة جنسها أن تجعل من البيت مكانًا صالحًا للعيش؛ هي في حاجة إلى البيت بقدر حاجته إليها، فهو المكان الأسلم والأشرف لهذا الكائن الضعيف الذي قد تفترسه الحياة وتغرر به!

رمقت آصال صديقتها بشيء من القرف والمرارة؛ مفكرة أن المرأة بذاتها تساهم بالنصيب الأكبر في انتزاع ذلك الحق البديهي من النساء وإقرار الأعمال المنزلية عليهن بديلاً مطلقًا لا يقبل الجدل؛ ذلك أنها تعد الزواج في حد ذاته مهنة وشغلاً شاغلاً، وليس مجرد حالة اجتماعية كما هو للرجل؛ لا ينبغي أن تؤثر على نمط الحياة نفسه.

مصير البنت للزواج! فلا يضيرها أن تتجهز له من البدء ببقائها أقل اختصاصًا وأقل اهتماما بالعمل وأقصر باعًا فيه؛ تتخلى في ثانية عن الدراسة أو المهنة إذا وجدت زوجًا مناسبًا، يغررها بالبطالة وثوب الزفاف الأسطوري وجهاز العروس الذي لها أن تختاره من الإبرة للصاروخ، ما يعني قدرًا هائلاً من التبضع؛ كل ما قد يُفقِد الفتاة صوابها في الحقيقة. لن تشعر في المقابل بالخسارة لأنها لا تعلق أية أهمية حقيقية على العمل، ليس إلا تزجية لوقت الفراغ وانفتاحًا ضروريًا على العالم للقاء المرشحين لدور الزوج وحسب!

لم تنفك صفا تتشكى من عملها منذ مزاولتها له طيلة عشر سنوات، لكن هل أقدمت لمرة على الاستقالة؟! لئلا يقلل جلوسها في المنزل من فرصها في أن يراها أحدهم، لا لأن العمل يمثل لها شيئًا لا سمح الله! ليست مهنة التدريس التي لم تشغف بها؛ هي لم تحاول أن تبحث عن شغفها الخاص في مجال آخر، لما يلزم ذلك من دراسة وبحث ومهارات جديدة لا تملكها ولا تريد، إنها تملك مهارة واحدة دربت عليها منذ نعومة أظفارها؛ أن تكون زوجة عاطلة.. ربة بيت.

راهنت آصال نفسها أن أهل صفا لم تكن لهم الكلمة العليا في إتمام هذه الزيجة كما تحاول الأخيرة أن تصور لها الآن؛ تُراها تشرك آخرين في الجريمة لتتطهر من الذنب وتأنيب الضمير؟ تعرف كم أرادت صفا أن تمارس دورها في الحياة الذي تمرست عليه طيلة حياتها، وبغيره تفقد الإحساس بجدواها وقيمتها! كذا فقدت اتزانها وحشمتها ولم تعد تعقل تصرفاتها؛ تكاد تدفعها إلى الجنون حقيقة أن الزواج الذي وهبت له كامل نفسها منذ الأزل، بحيث لم يبقَ لديها ما تمنحه لشيء آخر؛ لم يحقق لها ذاك الذي منيت به، لم تجد فيه غايتها.

زفرت آصال متحسرة. لأنه ليس غاية! ليس مملكة سحرية في بلاد العجائب، ليس فقاعة وردية طائرة في السماوات الزرق؛ لا شيء مميزًا بشأن الزواج لتقف عليه مصائر وحيوات جنس دون الآخر؛ هو أحد أساليب

الحياة وليس الأسلوب الوحيد الحتمي، وقد لا يلائم البعض اتخاذ شريك في الحياة من الأساس، فلا حاجة به على الإطلاق، ولن يدخل أحدهم النار بسبب ذلك. إنها تؤذن في مالطة! خَسئث. هذا ناموس الكون بالنسبة للناس حولها.

لم تتابع آصال جيدًا استرسال صفا في التشكي؛ سرعان ما زمت شفتيها مقاطعة إياها في فتور:

- ليس بمبرر للـ..

تركت جملتها مُعلَقة، تاركة لصفا اختيار المسمى الذي يناسب ضميرها؛ لتهز الأخيرة رأسها معترضة، وتتساءل في حدة:

- ألم تكن الدنيا كلها لتبرر له لو هو الذي في محلي؟ أنا لا أفعل شيئًا.

قالت آصال في هدوء:

- تعقلي يا فيفي ولا تختلقي الأعذار لنفسك – أشارت محذرة - هذه مجرد بداية. لا تعرفين ما قد يصدر عنك لاحقًا لو تماديتِ في هذا العبث!

طالعتها صفا في بغض؛ من تكون هي لتصدر أحكامها الأخلاقية ضدها؟ عفتها التي تباهي وتتشدق بها في محل تشكيك من سائر الناس من حولها!

تابعت آصال غافلة:

- اطلبي الطلاق ما دمت تشعرين على هذا النحو. وها

أنا أمامك خير مثال؛ لا ينقصني يد أو رجل.

لكن تنقصك السمعة الحسنة! الناس يخوضون في سيرتك وسلوكك ويستبيحون شرفك؛ يخفى عنكِ ما يقولونه عن عانس طلقها ابن خالها بعد شهرين فحسب من زواجهما! استعاذت صفا بالله من الشيطان الرجيم تطرد وسوسته الشريرة لها، وتقول في رجاء:

- كفى الله الشرا!

ردت آصال في كياسة:

- الطلاق ليس شرًا. هذه هي الأفكار التي يصدرها لنا مجتمعنا الحزين ليمنعنا من التمتع بحقوقنا. لا تنسي! الطلاق حلال، لن يحل الله شيئًا يضرنا أبدًا.

- وكلام الناس مضر، مميت يا آصال.

- يميت فقط الذين يسلمون آذانهم له.

لوحت صفا بكفيها وقالت في صراحة:

- لا أستطيع مجاراة فلسفتك. لغيرتِ رأيك لو نقلتُ إليكِ ماذا يقولون عنك! حتى أمي، جارتك كل هذه السنين التي تعرفك حق المعرفة؛ ألحت عليّ لأقطع علاقتي بكِ، لأسباب عديدة يا آصال ستجرح كلها مشاعرك.

شكل حاجبا آصال في ارتفاعهما صدمة جلية على وجهها المبتسم في حزن. بمَ عساهم يتقولون عليها ويأكلون لحمها ميتًا؟ لماذا يعرقل الناس حيوات بعضهم

البعض كالأعداء؟

- وهل توافقينهم الرأي يا فيفي؟

سارعت صفا بالتربيت عليها في أسف وهَم، قائلة:

- سامحيني. لا أقصد إيذاءك. لكِ أن تتصوري لمَ لا يمكنني أن أحذو حذوك؛ لستُ قوية ومغامرة مثلك، وأهلي ليسوا طيبين كأمك، تهمهم سيرتي بين الناس أكثر مما يهمهم أمري؛ سعيدة أو تعيسة كنتُ، المهم أني مستورة.

وخز آصال وصف الستر الذي اختصت به صفا من على شاكلتها دون غيرهن؛ الناس ينسجون سيناريوهات خلاعية عن المشي البطَّال للمطلقة، في حين أن البنت يمكن أن تفقد كل شيء وتحتفظ بعد ببكارتها؛ ليست دليلاً على شيء! ما يذكرها بقاعدة العائلات المسلطة كحد السيف على رقاب بناتها؛ تقضي بعودتهن إلى المنزل في ساعة باكرة، على أساس أن كل شيء سيئ يحدث بعد التاسعة مساءً، منطق عجيب! خاصة أن الممارسات اللاتي يخشينها من قبيل السُكر والتعاطي والجنس؛ واردة الحدوث في أية ساعة من اليوم! لكن الناس تهتم بالظاهر.. والظاهر يقول: (المطلقة سيئة السمعة، والبنت التي تعود إلى بيتها في وقت متأخر منحلة... ويبقى القوس مفتوحًا.

عبست لائمة نفسها: كفاكِ يا آصال! ما بالك تدشنين حملة الطلاق للجميع؟ ليحسبن أنكِ تريدين أن يخبن

خيبتك؛ كما جاء على لسان نادرة حين أطلعتك شامتة على نبأ عودة حسناء إلى زوجها، تلوك الكلام بين أسنانها وترنو إليكِ بنظرة متبجحة:

- دلع بنات مريء! البنت ليس لها غير بيت زوجها.

محاضِرة إياكِ عن طبيعة الزواج التي لا تقتضي تأمين السعادة الفردية، ولا ضرورة استمراره على أساس من الهوى والميل العاطفي أو الجنسي! تقول نادرة في حكمة عتيقة:

- الزواج للصالح العام، ليستقيم حال المجتمع.

المواليد ثمرة الزواج لا يكفون عن التوالي؛ لمَ لا ترى آصال أية استقامة؟ بالعكس!

لا تستبعد أن تكون نادرة نفسها من أذاعت عنها أنها مخربة بيوت! تذكر كيف كان جدها إسماعيل يمتعض من نادرة المراهقة آنذاك، يقول:

- لا تشبهنا! نبت شيطاني.

ويحذرها من الاختلاط بها:

- هذه ولية صغيرة، لا أريدها أن تُفسِد لسانك.

لو شاءتْ هي لرَدَها جلال في الحال قاطعًا ألسنة الكل. لان وجهها في زهو إثر هذا الخاطر العابر، بينما تنهدت صفا في تسليم، مستطردة:

- قضاء أخف من قضاء يا آصال. غدًا ألتهي في الخِلْفَة.

***

عاد جلال أخيرًا أدراجه إلى القاهرة عقب صدور إعلام الوراثة من محكمة الأسرة بالمنصورة، بعدما ظل الفترة الأخيرة يتنقل بين المحافظتين. وقبيل سفره عرج على عمته بزيارة لم تستغرق بضع دقائق، ليقطع على آصال أي سبيل للاعتراض؛ مبديًا إلى أي حد بات يعرفها! زجرها بعينيه في افتعال وهو يُسلِّم أمها عقد ملكية الشقة الذي حرره باسم الأخيرة وسجله في الشهر العقاري بعد تسلمه حصته من الميراث. قائلاً بلهجة قاطعة بينما آصال واقفة كالمشدوهة:

- أنتِ أمي. لن أسمح أن تكوني مهددة بشيء سواء كنتُ ميتًا أو على قيد الحياة.

اغرورقت عينا روحية وهي تقبض عليه بشدة بين ذراعيها، وتبتهل محولة أنظارها بينهما بطريقة مفضوحة:

- أطال الله في عمرك يا بني، ورزقك بالزوجة والذرية الصالحة.

قبل رأس ويدي عمته، ثم صوب إلى آصال نظرة مودعة، وسألها فيما يوحي بكونه اللقاء الأخير:

- هل تحتاجين إلى شيء يا آصال؟ اعتني بنفسك وبعمتي.

لن تراه ثانية! اشرأب عنقها وتلجم لسانها؛ غير آبهة

برد صنيعه كما افترض وتجهز، شاعرة بالراحة والتسليم بعد طول إنهاك، متمالكة نفسها بالكاد ألا تبكي كطفلة صغيرة وهي تستشعر حنانه في تلك اللحظة عزيزًا كما الأب، كما يجدر بأب أن يفعل! أومأت شاكرة لتمرر اللحظة وينصرف سريعًا؛ لتخلو إلى نفسها متهافتة الروح مرتعشة البدن، لا تدري ماذا أصابها مؤخرًا وبدَّل استجاباتها بغتة؟ وماذا حل بزنزانة الذكريات؟ فُتحَت بوابتها على مصراعيها؛ ليحوم مخزونها حولها كالأشباح! وتتجلى أمامها السنوات الضائعة، القريبة بشكل مفاجئ إلى قلبها.

بعدما تعايشت لسنوات طوال مع غيابه ولشهرين مع رجعيته وجَلَفِه؛ لم تحسب أن باستطاعته إشعال فتيل تلك الذكريات التي كثيرًا ما راجعتها، غير أنها لم تخضع لها على هذا النحو كما تفعل الآن؛ كأنما تحاجّ بها لفتح الملفات القديمة وإعادة التفكير على ضوء ما جَد منه! وإلا فلمَ من شأنها أن تستجيب للشك ومكر النفس؛ فتعيد توجيه أصابع الاتهام.. إلى نفسها هذه المرة؟ لتعترف أنها التي كفت أولاً عن مبادلته الحب؛ لم تعد تصلح بعد مصابها آنذاك للقيام بدور الحبيبة، فتسببت في أن يطلق ساقيه للريح يحمله إلى تكليفه ونيابته في الإسكندرية، ومن ثم بعثته إلى إنجلترا، متخليًا عنها في أشد أوقات احتياجها إليه.

ألم تتخل هي أولاً عن إيمانها به وبما كان يحمله لها في قلبه؟ ألم تضعه في قالب واحد للإدانة مع الجاني

الحقيقي؟ ولما لم تقع يدها على الأخير تجردت من الحقيقة وتحولت إلى جلال تحاسبه حسابًا عسيرًا على أخطاء ارتكبت في حقها دون أن يكون له يد فيها، تشبع انتقامها منه، وإذا به في الحقيقة ضحية مُختارة، وإذا بها تنتقم من نفسها!

لقد تحاشت الاحتكاك بهذه القصة مرارًا لأن ذلك ما تفلح فيه، وقد أتى هذا بثماره لسنوات طويلة. حسنًا. لا مفر من الاعتراف! لم يعد بوسعها الاستمرار في ذلك، لا تستطيع أن تتابع حياتها بالكيفية التي كانت تسبق زواجها به؛ كل شيء تغير! لم تعد تملك القوة أو التبلد، تم خرق شعورها بالاكتفاء، إنها تهوي كمنطاد مثقوب! تشعر أنها خاسرة وتلعن هذه الخسارة. ممتنعة بإرادتها عن اللعب.. تقبل ذلك، لكن تلعب وتخسر! شاءت أم أبت، حياتها أصبحت مرهونة بموقفها منه، وإنها لتختار أن تخوض في أمره؛ تتعاطى مع هذه العقبة في حياتها لتتمكن من المضي قدمًا، وإلا ستبقى عالقة أكثر من ذي قبل.

ينحدر جلال أبًا عن جد من نسل طيب من الرجال. هي أدرى بذلك. لن تنكر. ربما لم يكن يود تضيق الخناق عليها كعصفور في قفص، إنما يدفعها بطريقته إلى أن تحبه مجددًا! وتعترف أنها طريقة غير شريفة ويائسة؛ ربما استفزه تباعدها وجفاؤها لإخضاعها بما يمليه عليه نظام الزواج الساري في هذه البقعة الغبية! لعلها المسؤولة عن ذلك الوجه القبيح الذي أبداه لها.

رباه! تشد شعرها في جنون. لا تستطيع إيقاف كل هذه الصراعات المضطربة داخلها، أو لعلها لا ترغب في إيقافها؛ ليست مضطرة إلى التماس الأعذار له أو إعادة التفكير بشأنه، ليست موجهة أيضًا، لا يحركها القيل والقال عن طلاقها؛ لقد تعودت أن تكون علكة في أفواه الناس. وقد انتهى الأمر. ماذا تريد إذن؟ (ماذا تريدين يا آصال؟) لماذا تخشى أن تصارح نفسها؟

تلتفت إلى الماضي بجدية وتجري الحسابات بشأنه، ما الجدوى؟ إنها ليست أفضل حالاً، ليست سعيدة، ليست مرتاحة، ليست راضية! كم قسرت على نفسها العزلة والغضب الأبدي والهدم! وقد تهدم البيت الذي كسرها وقامت مكانه بناية حيوية لطيفة تحفها المتاجر ويلعب الأطفال في ساحتها، رأتها منذ زمن حين عرجت لآخر مرة على البقعة التي كان يحتلها بيت أبي زيد؛ كعادتها في نكء جراحها والاستزادة من الوجع كمن يؤلمه ضرسه ولا يكف عن لمسه والعبث به متأوهًا! لم يعد لذاك البيت من وجود على ظهر الأرض، آثاره الباقية في نفسها لا بُد أن تختفي بدورها؛ لتخلي مكان ذلك الصرح العظيم من الألم والنار أرضًا صالحة للبناء. لقد استمر ذلك أطول مما ينبغي. ماذا جنت من الهدم؟ يسير ومدمر.. البناء صعب لكنه حياة. إنها مضطرة إلى رفض هذه النهاية.. تصحيح: ليست مضطرة، إنها لا تريد هذه النهاية. يجب أن تكون صادقة مع نفسها.

***

الفصل الثالث

يوم تستطيع المرأة أن تحب بقوتها لا بضعفها، لا لتهرب من ذاتها بل لتكتشف نفسها؛ في ذلك اليوم يصبح الحب للمرأة كما للرجل، ينبوع حياة لا مصدر خطر قاتل.

سيمون دي بوفوار

هرع جلال يجيب الطارق اللحوح في ضيق، كان قد عاد لتوه من الخارج ولم يكد يبدأ في تغيير ملابسه حتى انهال عليه قرع الجرس. عاود تزرير قميصه على عجل وهو يفتح الباب، مصعوقًا برؤية آصال في هذا الزمان وهذا المكان. لم تواتِه الفرصة لإبداء التحفظ أو الترحيب؛ دلفت إلى الشقة دون استئذان، متذمرة لتأخره إلى هذا الحد في عمله؛ ما جعلها تقضي ساعات طويلة متسكعة بسيارتها في محيط المنزل حتى لمحت أخيرًا سيارته المصفوفة. أغلق الباب في تردد، وهو يسأل في توجس عن عمته وما إذا جرى لها شيء اضطر آصال للجوء إليه؛ لتنفض كتفيها وتطمئنه أنها في خير حال في المنصورة.

جلست على الأريكة في تحفز، مدفوعة برغبة عظيمة في الحديث إليه وليكن ما يكون! بوح دافعهُ أسف، شوق، لوم، امتنان، أمل، مجتمعين، أو لا شيء مما سبق؛ ليس لديها أي فكرة! مشاعر جمة تحتشد؛ تطلع إلى السطح وتطل برأسها من عنق الزجاجة، لقد امتلأت حتى نفثت! تعلم فقط أنها ستُجَن لو لم تتكلم معه؛ مراجعته ستكون وسيلتها في اتخاذ قرار.

قالت بلهجة حماسية:

- ثمة حديث يجب علينا أن نجريه.

لم يغادر بعد موقعه إلى جوار الباب، ولم يزل كفه

ممسكًا بالمقبض؛ لا يسعه إبداء الدهشة الكافية حول انتظارها عودته إلى البيت، بينما كان يمكنها مقابلته في المستشفى أو العيادة الخارجية، لماذا تتكبد عناء السفر وحدها إلى القاهرة وتبقى إلى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ألا تفي مكالمة هاتفية بالغرض؟ حسم أمره مُعلِقًا تساؤلاته إلى حين، مقترحًا عليها في حرج الخروج إلى أى مكان عام.

غرقت عيناها في ضحك صامت وهي تشير إليه بالانضمام إليها، قائلة:

- ما زلت في عدتي يا جلال؛ لسنا بحاجة إلى محرم. أريد أن أتحدث إليك في حرية. من فضلك تعالَ واجلس. لن تأكلني!

جلس مذعنًا في مقعد قبالتها، وثمة ابتسامة مبتهجة تتسلل ببطء إلى الجد والترقب أعلى محياه؛ يلاحظ في زهو تأنقها الواضح للقائه؛ كيف رفعت خصلات شعرها لتجلي الرؤية عن عقد لؤلؤ منثور على جيد ثوبها الأسود، وإحكامها ظلال الفضة حول رموشها المعقوصة، وثغرها الممتلئ بلمعان متورد.

- فلنتفق أنني طيلة فترة زواجنا لم أسمع لك ولم أتكلم معك بطريقة تجعلك تسمعني أيضًا، وأنت كذلك لم تفصح عما في نفسك! أعتقد أن كلينا مدين للآخر بسماعه؛ لقد انتهى ما كان من أمرنا بغتة، تمامًا كما بدأ، وللمرة الثانية!

انعقد حاجباه في دهشة حقيقية، مستدركًا في حزم:

- لماذا؟ ماذا بَعد ليُقال؟ لستُ في حاجة لسماع شيء، وليس لديّ شيء أود قوله.

صاحت في توتر مُحتَجة:

- كفانا لفًا ودورانًا، وكفاك صمتًا ولا مبالاة. لقد كان بيننا ماضٍ! ألا تأسف عليه؟ تجاوزتَه وحدك بدون خسائر كأن لم يكن؟

تخضب وجهها حرجًا ولاذت بالصمت، ليهز رأسه نافيًا بصوت مهزوم:

- بل بقيت أذكر ماضينا المزعوم لوقت طويل، وتزوجتك لذاك الأثر الجميل في نفسي؛ تفكرت في أمرك وخُيّل إليّ أنكِ رفضتِ كل من سبقوني لأجلي، أنكِ باقية عليّ وفي انتظاري أو ما شابه! أشعرتني بالنذالة وتأنيب الضمير، بقيت أفكر كم خذلتك وتسببت في تعطيل حياتك بينما عشتُ حياتي بالطول والعرض. لكنكِ أكدتِ لي لاحقًا بكل طريقة ممكنة كم كنتُ ساذجًا وأحمقَ! مشاعرك سرعان ما تغيرت يا آصال، لم تَدُم! بالطبع. كنتِ مراهقة.

كم حسبتْ أنها قد وضعت لتلك القصة خاتمة! هيهات. كانت مخطئة؛ ترجح أنها لم تتزوج به إرضاءً لأمها فحسب، وإلا فلمَ جلال بالذات وقد استمسكت برفض غيره لسنوات طويلة مهما تذللت أو تمسكنت أمها؟ لَما تمت هذه الزيجة لو لم يكن عقلها الباطن ميالاً لها؛ بيد

أن الحادث كان متصدرًا الوعي! انبرت مدافعة ضد اتهامه، متفاجئة من الكلمات الراجفة التي تجري على لسانها:

- لا! لم أشعر على هذا النحو للآن تجاه أحد سواك – استعادت رباطة جأشها - وقد أفسدتَ حياتي فعلاً؛ لم أستطع أن أحب غيرك وأمضي قدمًا في حياتي، ولم أتصالح كذلك مع حبك ليكون زواجنا سويًا؛ أنا مدركة جيدًا لذلك، وأنتَ لم تصعب مهمتي على الإطلاق؛ كنت فظًا غليظ القلب، ساخرًا ومتحيزًا، لم تُبدِ نحوي عطفًا أو تَفهُمًا، لم تحتو ألمي وخوفي وارتباكي، لم تطمئني، لم تحبني.

قال في استهانة:

- على رسلك، على رسلك. أنتِ كنتِ نعم الزوجة!

ردت في انفعال:

- إطلاقًا. كيف يمكنني أن أكون؟ ألم تفهم بعد؟ ألا تَذكُر كم ساءت أموري؟ أنت لم تستطع إصلاحها – هزت كتفيها - رحلتَ!

قاطعها في سخط:

- يا للعجب! ماذا كان بوسعي أن أفعل سوى ذلك؟ أنتِ طردتِني، هددتِني! هل نسيتِ؟ لا أحب الخوض في ما مضى، لقد مررت عليه مرور الكرام وقلت لنفسي: أفق يا محترم، هذا لعب عيال، وهذه بنت صغيرة لا يؤخَذ عليها، يجب أن تحترم صلة الدم وتحفظ شأنك– أومأ

في فهم مستنتجًا – هل بقيتِ ناقمة عليّ كل هذه السنين فيما أنهيتِ بنفسك ما بيننا؟ ثم تزوجتني خصيصًا لتعاقبيني! كدت أفقد عقلي من أفعالك؛ الآن فهمت. كل هذا العند والنكد والشجار كان متعمدًا إذن؟

نفت متذمرة:

- بالطبع لا! أنت مخطئ. لم أتعمد شيئًا؛ كان هذا نتاجًا طبيعيًا لصيغة العلاقة التي وضعتَها؛ حقوق وواجبات.. رجل وامرأة.. عيب ولا يصح.. نظام اجتماعي رجعي!

انتفخت أوداجه وهو يقول:

- أنتِ السبب. اضطررتني إلى ذلك؛ كنتِ باردة وآلية، مستفزة لكرامتي ورجولتي. لستُ مبرمجًا على العطاء دون مقابل أو حتى تقدير، لا أحسب أن أحدًا كذلك. وبالمناسبة، ليست رجعية؛ ثمة حدود يا آصال، ثمة حدود!

أحنت رأسها موافقة على مضض:

- حسنًا. أنا أتحمل بعض المسؤولية؛ لأنني في قرارة نفسي كنت متحاملة عليك، لم أتمكن من تجاوز غيظي وضيقي ووجعي منك، لكنك مُلامَ أيضًا؛ تغاضيتَ عما بدلني وحفزني ضدك، أنا لم أتكلم وأنت لم تسأل! لم تنقذ ما يمكن إنقاذه.

لمعت عيناه في انتصار بينما يشير إليها بإصبعه مهددًا:

- بلى، كنت أعرف ذلك. لا أسمح لكِ أن تقلبي الحقائق

وتستخدمي ورقة الحادث ضدي، لم تكُ غير بضعة كسور، وها أنتِ الآن سليمة معافاة، انظري إليّ، أنا من أصابني الكسر بضرر دائم حين لم يلتئم كما ينبغي بعد سقوطي صغيرًا من شجرة التوت يوم شم النسيم.

اعترضت بصوت متهدج:

- ليست بضعة كسور وحسب! ألم تسأل نفسك قط لماذا انتهى بي المقام في المستشفى في الليلة نفسها التي فاجأنا فيها أبي في غرفتي؟

- لا أحد يعرف ذلك سواي! كنتِ تهربين منه وسقطتِ من على الدرج، كدتُ أسقط أنا نفسي وهو يطاردني. حملتِني الملامة! لكن ليس ذنبي أنكِ تعثرتِ. هذه مجرد حادثة.

زفرت في أسى، يجتاحها شعور قوي بالخذلان:

- أنتَ لا تعرف شيئًا على الإطلاق. ليس لديك فكرة عما حدث؛ وهذه هي المشكلة! لقد كُسِرت يا جلال بشتى الطرق؛ كنت مكسورة العظام ومكسورة الجناح ومكسورة الخاطر، وكسرتَ أنت قلبي في الأخير حين رحلت. لا أحملك الذنب كله لكن ما حدث أنك كنت القشة التي قصمت ظهر البعير. صحيح أبعدتُك لكن ما كان عليك أن تستجيب، لقد بقيتُ أمام ناظريك لسنوات لم تحاول فيها مرة ثانية! كان يجدر بك أن تبقى وتَجبُر ما انكسر فيّ. لقد اسودت الدنيا في عينيّ وكنت بحاجة إلى أن تثبت لي أنني مخطئة. أن ثمة حياة غير

تلك التي عرفتها. شعرتُ آنذاك أنني قد بالغت في التأثر بما كان بيننا، شككت، أي نفع يمكن أن يجديني وقد فقدت الثقة؛ أنتَ الحبيب يمكن أن تكون ببساطة العدو وتنغص عليّ العيش! فكرتُ أنني سأكون أفضل حالاً بدونك، لكنني في الحقيقة لستُ أفضل حالاً، لم أكن يومًا، غير تلك الفترة التي كنت أشعر فيها بالحب تجاه جدي وتجاهك.

سألها مبهوتًا:

- لماذا لم تقولي لي وقتها شيئًا يا آصال؟

- لم أشعر أنه يجدر بي إخبارك عما يجب عليك أن تفعله؛ أردتك أن تفعل ذلك من تلقاء نفسك – لوحت بكفها - هذه هي عقلية النساء على أية حال.

تغلب على رغبته المفاجئة في الضحك، قائلاً:

- عندما يحتاج أحدنا إلى شيء يطلبه بوضوح. ليس أحدنا منجمًا! - تابع بلهجة ماكرة – ويبدو أنكِ أدركتِ ذلك بالفعل وجئتِني الليلة تريدين شيئًا، حسنًا، لا تكوني خجولة، ماذا تأملين؟

نظرت إليه شزرًا، مدمدمة في جفاء:

- لا أعرف.

أطبقت شفتيها تنتظر خطوته التالية، إلا أنه عقد ذراعيه متأملاً ارتباكها ووجلها باستمتاع، لتصارحه مضطرة:

– ربما لطفك الذي أبديته مؤخرًا بلا حاجة بالمقابل أنعش ذاكرتي، وضعفك في وفاة والدك أناخني ورقق قلبي. لم تزل إنسانًا، أكثر من مجرد رجل متسلط. لستَ شخصًا سيئًا يا جلال؛ أنا أردتك أن تكون كذلك، وكلما مر الوقت كنت أمعن في إساءة الظن بك – تابعت في تأثر - لأثبت لنفسي أنني لم أُضِع عشرين عامًا من عمري هباءً. لقد بكيت عندما طلقتني؛ لأسباب شتى، أهمها أن أيًا ما كان من أمرنا؛ فقد انتهى! حسبتُ أنه شعور طبيعي بالفشل، لكن أجزم أنني شعرت بالخسارة – تمتمت في رقة – ما زلت أهتم لأمرك.

حدق فيها حائرًا:

- علام كان كل هذا إذن؟ - تنهد متعبًا – حسنًا، هذه بداية ممتازة. أخبريني إذن ماذا جرى لكِ بالضبط. ماذا أصابك لتتحولي بهذه الكيفية؟ أنا لم أسئ لكِ! أخبريني لعلي أفهم وأرتاح. لقد أهلكتني.

استجداها في حنق وغيظ؛ ليتراجع شعورها كله إلى نقطة قديمة، محلقًا بها بمدى بعيد عن جسدها، وهي تجيبه في شرود:

- لم تكن بضعة كسور قط يا جلال..

***

ذات يوم في زمن غابر، صعدت روحية على متن الخطوط الجوية المصرية، آخذة معها ريعان شبابها وسذاجته، وثوب زفاف أبيض؛ حيث استقدمها إلى السعودية العربية زوجها المغترب المهندس قاسم أبو زيد، كان قد وَكّل والده بالنيابة عنه لعقد قرانه على عروسه، سليلة عائلة المهدي حسنة السمعة، وشحنها إليه جوًا؛ ليعاشرها لسبع سنوات ضوارٍ، حتى يسرت له وفاة أمها ترحيلها غير مأسوف عليها، إثر ستة أجنة أموات لم يكتمل حملها بأي واحد منهم. اصطحبت روحية معها في رحلة العودة هزيمة سحيقة وحقيبة هزيلة وابنة وحيدة تبلغ خمسة أعوام، ولم يُعِدها زوجها بعد أربعين أمها كما اتفقا؛ لم تبرح بيت والدها حيث أخذت عزاء أمها، فيما استدعى قاسم محلها زوجة ثانية تملأ بيته بالبنين.

عادت روحية إلى كنف والدها إسماعيل الأرمل المتقاعد، الذي انفضت الحياة من حوله فزهد فيها، حتى استعاد رغبته في العيش على يدي حفيدته آصال التي ملأت بيته بمباهج الحياة، استرد شعوره بأنه ذو جدوى، محاطًا بتلك الصبية الشقية، ذات الغرة الناعمة الكثيفة والعينين المتقدتين الجميلتين، بهجة للناظرين. لازمها كأب يرزق بمولوده الأول، يدللها بالأسماء والأفعال، ويلتقط لها الصور بانتظام، لا تجد جدارًا واحدًا في المنزل خاليًا من الأطر الذهبية لصور

الصغيرة. لم يكن إسماعيل يفضل أن يشاركه أحد الفراش، حتى أرملته كانت تنام في حجرة منفصلة، لكنه لم يتخلف يومًا عن كونه أول وجه يصبح ويمسي على حفيدته الأثيرة، يحكي لها القصص الخيالية قبل النوم، ويستهلان اليوم بصلاة الصبح.

لاحظ إسماعيل في حفيدته نباهة وتحديًا فشجعها على المزيد، حريصًا بمرور السنين على مدها بكتب الدراسة الخارجية الغالية وكراسات المراجعات، ولم ينسَ تنمية ميولها فهاداها بمجلات الأطفال ميكي وماجد، وأقلام التلوين بمختلف أنواعها: الخشب والفلوماستر والشمع وألوان المياه، وطالما زودها بحلواها المفضلة: بسكويت الشمعدان الأحمر وأصابع اللوليتا الملونة؛ كانت تطمع في جوده متعمدة الخروج بصحبته إلى الشارع، راجية أمها ألا تمانع، ليشتري لها كل ما يقع ناظراها عليه، لم يكن ليثني طلبًا لها أو يرد إحدى رغباتها.

اعتاد أن يوصلها إلى المدرسة صباحًا ويعيدها إلى البيت بعد الظهيرة، تقبض يد آصال الصغيرة على كف جدها الضخمة باستحواذ، وتسير إلى جواره في فخر وانطلاق كما الأبناء في الشوارع بصحبة آبائهم. لم يتخلف إسماعيل عن حضور مسرحياتها المدرسية أو أية مسابقات علمية وأدبية تشارك فيها، حتى اعتقد غالبية زملائها ومدرسينها أنه والدها، لم تكن تصحح لهم في كثير من الأحيان؛ كان يؤلمها سؤالهم التالي

عقب إجابتها: «أين والدك؟».

أما روحية فلم تنِ تغذي قلب آصال الضئيل بالبهيج والطيّب عن أبيها البعيد، تخبرها كم يحبها وكم يسوؤه البُعد لولا سعيه الحثيث للقمة العيش من أجلها. لم تكن ذاكرة آصال الصغيرة قادرة على اختزان شيء في الخمس سنوات الأولى من عمرها، ولم يكن قاسم يكلمها هاتفيًا أو يرسل الخطابات؛ فلجأ خيالها ووجدانها البريئان إلى رسم صورة له، استلهمتها بطبيعة الحال من شخص «جدو إسماعيل». ليتأجج احتياجها إلى الأب بعد تدهور صحة جدها بشكل متسارع لم يمهدها لتقبل وفاته المفاجئة. على أثرها، انتقلتا من بيت جدها إلى بيت حضري مؤلف من طابق واحد على مشارف مدينة المنصورة، كان ملكًا لأبي زيد الراحل.

بكت آصال جدها كطفلة العام الواحد التي تنكسر لعبتها المفضلة، ولا يستوعب عقلها الصغير أنها لن تعود إلى سابق عهدها؛ لم تنفك تسأل أمها:

- متى يعود جدي من الموت؟

- لن يعود يا حبيبتي.

ولا تكاد أمها تجيبها في كل مرة، حتى تنفجر الاثنتان في البكاء.

***

تعاقبت السنوات على آصال بين انصهار كامل في الأم واختفاء تام من جانب الأب، واستدارة متوسطة

للجسد، وبَذر عاطفي في قلب خصب، تزامن مع ولادة حسناء ولم يكد ينمو حين قطع قاسم مصدر الحياة عنه؛ كانت آصال قد لازمث أمها في التردد على نادرة، لرعايتها بعد ولادتها حسناء ريثما تسترد صحتها وقدرتها على الحركة – أم نادرة طريحة الفراش - بضعة أيام كانت كفيلة بتسليم آصال للمُحتَل، دون بادرة مقاومة، يغرز أعلامه على أرضها كيف يشاء! لتتشكى من ألم قلبها بعد أن ضربته الصاعقة، ويظل يهفو ويؤرقها للهزيع الأخير من الليل ويضللها في أطراف النهار.

تعرفه؟ أجل، تعرفه حق المعرفة؛ جلال ابن خالها، يكبرها بخمس سنوات، كان جارها ورفيق لعبها حتى بلغت العاشرة، من ثم انتقلت إلى منزلها الحالي؛ لتبدأ التعرف إليه بشكل آخر في الزيارات الخاطفة. أهداها مرة عروسًا لعبة لم تزل تحتفظ بها، ومرات أخرى حلوى القطن وسكر نبات، ثم أهداها سهر الليل ولوعة النهار دون لُقياه، خلف لها قلبًا متلظيًا لم يكن ليلحظه في جسد طفلة!

قضت أوقاتها في منزل خالها في تلك الزيارة الممتدة؛ جالسة في الصالة على مقعد مواجه لغرفة جلال، تراقب الباب كقطة متحفزة، يلزم مكتبه منكبًا على المذاكرة منذ يعود من الكلية حتى يخلد إلى النوم، وتبقى متشوقة للمحة خاطفة منه في حال قرر مغادرة الغرفة لقضاء غرضٍ ما. كانت تستشعر اللذة في أوقات

الانتظار الطويلة التي قد لا تفضي كلها إلى شيء، فلربما ينقضي النهار وتغادر عائدة لمنزلها دون أن يفارق حجرته بعد؛ ولِحظّها مَر يومها الأخير في منزل المحبوب على هذا النحو.

لم تقرب ذلك البيت بعدها لعام كامل بأمر صارم من والدها المغترب، منعها وأمها من الذهاب ثانية؛ البنت كبرت وثمة شاب لعين في البيت! (لماذا يفعل بابا ذلك؟ لماذا؟)

لم يتسنَ لها تلقي استجابة! كذا قررت استقبال الصباحات وتوديع الليالي بتذكره، ترددها في يقين كورد يومي: (طالب الطب الوسيم لن يلتفت أبدًا إلى فتاة مدرسية في الشعبة الأدبية، قروية ساذجة، مسطحة الجسد وعادية الملامح). ليس من شأنها أن تنسى فتتعشم! اجتهدت آصال للتسليم زاهدة، مضت تقتل في نفسها الأمل، لأن الأمل الحي يُميت صاحبه ببطء.

***

أقبلت آصال على أمها في نهاية يوم دراسي، تسألها النصيحة وعيناها تبرقان في حماس وتشوق؛ غدًا تقوم مدرستها الثانوية بملء استمارات رغبات الطالبات في النشاط المدرسي؛ وهي متحيرة بين اختيار النشاط الصناعي أو التربية الفنية، تود لو بوسعها أن تتدرب على الاثنين، كلاهما يستهويها. لتقطب روحية حاجبيها

منتقدة سير العملية التعليمية؛ فيمَ يفكر الأحمق مُقرِر هذه المناهج على الطالبات؟ هل يحسبهن صبيانًا؟! بمَ يفيد البنت تعليمها تقطيع الخشب والشخبطة بالألوان؟ هل ستصبح نجارًا أم مبيضًا؟ أشارت عليها باختيار الاقتصاد المنزلي ولتكن حكيمة؛ هذا هو ما ستؤديه لما بقي من عمرها، يحسن عدم تضييع الوقت في تعلم أشياء غير مفيدة.

زعقت آصال التي كانت تبغض الأعمال المنزلية، قالت بلهجة نافذة:

- أنا لن أؤدي ذلك لبقية حياتي. أريد أن أؤدي عملاً فعالاً؛ على الأقل سيكون لدي شيء أنجزته، لن أجد نفسي مثلك أمام أعمال ما تلبث أن تنتهي حتى تبدأ من جديد. هذا محبط! أنتِ لا بُد مُحبَطة.

عالم أمها ضيق وخانق على نحو لا تطيقه، كيف تتوقع منها أن تحذو حذوها بينما تجنح فطريًا نحو الحياة والمغامرة والأعمال الخلاقة؟! أفاقت روحية مذهولة على ثورة آصال المباغته، لائمة نفسها أن لم تكن تلقي أية مسؤولية على عاتقها من قبل؛ حتى فراشها لا ترتبه والطبق الذي تستخدمه تتركه لها بما تبقى فيه في المغسلة. لقد دللتها فتمردت! إنها لم تعد صغيرة لتشق عليها الأعمال. من الأنسب تربية ابنتها بشكل تصبح فيه امرأة حقيقية تقوم بما هو مطلوب منها، لا تلفظ المجتمع ولا يلفظها بالمقابل، تحرص على أن يتلقاها بكل سهولة وترحيب دون متاعب. ما بال ابنتها ليست

كغيرها من البنات؟! لا بُد لها أن تتدرب على أصول الطبخ وتنظيف المنزل، وتتعلم كيف تُزين لسانها ومحياها، وتنتبه إلى ما يقوله عنها جسدها، وتظهر بمظهر الحياء أمام الناس؛ مصيرها تصبح زوجة وأمًا وجدة وتشرف على العناية ببيتها وأطفالها، هذا واجبها الأساسي!

كذا مضت روحية تحاول إثابتها إلى الرُشد، توكل إليها المهام بينما آصال مُعرضة؛ تصد محاولات أمها في إعدادها لمستقبل جاهز دون أن تساهم في بنائه، مستقبل بغيض تجد في نفسها غضاضة منه، لا تتعشم فيه شأن صديقاتها اللاتي يحلمن به باستمرار دون أن يدركن عواقبه! لن تكون مثل أمها الحاصلة على دبلوم تجارة ومنذئذ تعمل في المنزل كالشغالات في خلية النحل، عكس خالها عبد الرحمن المستشار ذائع الصيت في المنصورة، وهو نفسه لقن ابنته تعليمًا متوسطًا وعجل بزواجها بينما دفع بشقيقها إلى دراسة الطب المتربع على عرش كليات القمة! تعرف أن غاية الأهالي من تعليم البنت أن تقرأ وتكتب فحسب – كصديقاتها من العزبة اللاتي أقعدهن أهاليهن من المدرسة بمجرد حصولهن على الإعدادية – تعليم البنت ليس وسيلة لشيء؛ من أجل التعاطي مع أطفالها الذين سيزجون بها للزواج لإنجابهم في نهاية المطاف؛ هذا شأنهن كنساء، ولا يتهاونون في ذلك. وإنها لترفض أن تنصاع؛ في اليوم التالي من ذاك النقاش المحتدم كانت آصال قد

سجلت التربية الفنية في استمارة الرغبات. وضعت اللبنة الأولى. وكم من رغبات آتية!

***

-٣-

دفعت روحية باب الشقة المنفرج على رائحة الموت، ودلفت للداخل بلهفة الطير المنبسط على الحَب، تكاد تهوي على وجهها من جراء الصدمة، تجر في يدها آصال الهلعة بدورها؛ عيناها الفتيتان تفتشان الأرجاء بحثًا عنه في نهم وقلق.

- سهير ماتت! ماتت يا روحية!

تلقى عبد الرحمن أخته بانهيار وشيك؛ أدركته مرتميًا بلا حول بين ذراعيها، يبكي ويتمخط بحرقة. لتحط نادرة على الشقيقين كالعقاب الجارح، وتدير والدها إليها، مقوضة كتفيه بقوة تأوه لها، معيِّبة في وجهه:

- اصلب طولك يا حاج! احفظ مقامك ولا تفرج علينا الناس.

فغرت روحية فاها غير مصدقة عنت وجبروت ابنة أخيها، فيما ارتعشت عينا عبد الرحمن الذاهلتان في محجريهما متمتمًا بصوت خفيض متحشرج:

- أمك ماتت يا نادرة.

نطقها كمن يبلغ أحدهم نبأ صادمًا وهي التي أذاعت الخبر وأعلنت الوفاة بدم بارد! شدت نادرة جسدها كطاووس منتفش، وقالت في صلادة واستياء من مشاعر أبيها الهزيلة الفياضة:

- اقرأ الفاتحة على روحها إذن، واتبع مسعى الرجال

لترتيبات الدفن والعزاء. اترك البكاء والولولة للنساء يقمن بهما خير قيام.

ازدرد عبد الرحمن لعابه في مشقة، وقد تأرجح شعوره بين الحرج وانقباض الصدر، هز رأسه في إيجاب وهو يتحسس كتفه التي سرى فيها الخدر، وشرعت قدماه في التحرك تجاه الباب؛ لتعجزا عن حمل كل ذلك الألم المكتوم وتهويا به على الأرض مصعوقًا على شريكة العمر، متلويًا من الفجيعة. صرخت روحية في جزع وأسرعت تسنده إليها وتربت على رأسه مبسملة ومحوقلة، بينما تأففت نادرة في غيظ واستهانة:

- يا لفضيحتك يا نادرة! ماذا تفعلين وزوجك مسافر وأبوكِ وأخوكِ أضحوكة أمام الخلق؟ أنتَ لا تقوى على حمل قدميك والآخر هارب على السطح كالعيال! ماذا جرى لكما؟ تمالكا نفسيكما كالرجال. أنا لا أحتمل هذا الدلع. من سيأخذ عزاءها؟ من سـ...

قاطعتها روحية صارخة:

- أنتِ لا تُعقَلين! اعقدي لسانك الزفر هذا وساعديني في حمله، لا نريد أن نفقده هو الآخر.

نقلتا عبد الرحمن إلى حجرة ابنه، وجعلت روحية تهدئ من روعه:

- لا بأس عليك يا عبده، لا بأس عليك يا أخي.

ألفت روحية شقيقها راقدًا على الفراش في تسليم، ثم وقفت لنادرة المشتعلة بالمرصاد؛ فأخمدت نارها،

متحولة إلى وحش كاسر ليُقطّعنها بين أسنانه لو أراد، لا يحول بينها وبين انهيالها عليها بالضرب غير تراجع وانصياع الأخيرة لها، مذهولة من تحول عمتها المنافي لطبيعتها الطيبة حد السذاجة! اكتفت بالعتاب في رفق؛ حين انخرطت حسناء الرضيعة في بكاء مزعج لا يُحتمل، ولا يكاد يُصدق أن هذه الحنجرة الصغيرة قادرة على إصداره:

- انظري كيف أفزعتِ البنت!

زجرتها عمتها:

- لا يا حبيبتي. إنها تبكي لأن أمها منزوعة الرحمة. احمليها وبثي في قلبها الطمأنينة، أم أنكِ لا تجيدين ذلك كما تجيدين مراعاة الشكليات والتزلف للناس؟

صاحت نادرة معترضة:

- إكرام الميت دفنه يا ناس!

- تراكِ تكرمين أنتِ أبوكِ وأمك الآن؟ كفاكِ! أنا سأغسّل أمك وأتولى أمر كل شيء.

تسللت آصال مستغلة انشغالهما بتراشق الاتهامات وكيل الواحدة للأخرى. التهمت الدرج صعودًا إلى السطح، حيث وقفت بمحاذاة بابه تلتقط أنفاسها المحمومة وتُحجِم مشاعرها، مسترقة النظر إلى الجسد المكوم على الأرض، كان جلال مستندًا بظهره إلى الجدار ووجهه شطر السماء يكاد يكون فارغًا من الحياة. شعرت بقبضة تعتصر قلبها وغشت دموع

الشفقة عينيها، فطوقت فمها بباطن يدها لتكمم نشيجها وتحتوي أثر البكاء. تنهدت في حزن لم يسبق أن طرق قلبها الفتي البالغ خمسة عشر ربيعًا، وتقدمت منه بخطى وئيدة، مشرئبة العنق، ملتاعة، نطقت اسمه في همهمة مسموعة:

- جلال.

لم يحرك ساكنًا. استمرت في الاقتراب منه، ونزلت إلى موضعه على الأرض ببطء وحرص ألا تفزعه، وامتدت يدها تكاد تلمسه في رعشة نبهته إليها، أدار إليها وجهه في استكانة؛ لتستعيد يدها فورًا وتكتفي باللهفة التي تطل من عينيها وتتمتم ثانية في إشفاق:

- جلال؟

اختلاجاته كانت تائهة، لم تكن واثقة أنه يشعر بها فعلاً إلى جواره، بكونها بهذا القرب منه الذي لم يراودها في أقصى أحلامها به جموحًا! فزعت من هذا الغياب؛ فمدت يدها ثانية، دون رعشة، ربتت على وجهه عدة مرات بثبات بما يشبه اللطمة. كانت ترتعد ولحيته النابتة تجرح باطن يدها، قرصتها معدتها بشدة وشعور لذيذ يسري في ساقيها حولهما لهلام! بينما أفاقته لمستها جزئيًا، فتحول إليها مستعيدًا إدراكه. انفرجت شفتاه حين لفحته أشعة الشمس الساقطة على وجهها الأبيض تضيئه كالنور الساطع. لوهلة نسي وغمغم في حيرة، مأخوذًا بهذا السحر الساري كالنار بين جسديهما

المتلاصقين:

- آصال! آصال؟

ردد اسمها في تشكك؛ إنه يعرفها.. آصال ابنة عمته الفتاة الصغيرة التي لم تعد تبدو كذلك؛ يذكر أنها كانت طفلة متى رآها آخر مرة! لقد اعتاد على التردد على بيت عمته برفقة أبيه وأخته، لكنه منذ التحق بكلية الطب قبل أربعة أعوام ووقته متعذر فانقطع عن الزيارة، ظل يراها خلال زياراتها ووالدتها لهم في الأعياد والمناسبات، لكن منذ مدة انقطعتا عنهم ولا يعرف السبب ولم يشغله ذلك حتى الآن.

هذه الفترة الوجيزة في عمر الفتيات لكفيلة بنضج العود وبروز النهدين كثمرة الكمثرى اليانعة! تحرج من الخيالات التي تدفقت سريعة في عروقه وجرت منها مجرى الدم، لكن آصال لم تدعه يتمالك نفسه حين صبّت مشاعر الحزن والحب في عينيها صبًا، وتدفقت على لسانها أدعية بالرحمة الواسعة والصبر والفرج، غادرت شفتيها بتمنٍ من الله أن تشعره بتحسن، وجعلت تهمس مُواسية:

- فصبرٌ جَمِيلٌ. فصبرٌ جَمِيلٌ.

مسته مجددًا لتنبهه إليها بعد التسمر التام من جانبه، ولم تعرف أن يدها وخلو كلامها كانا كرفرفة جناح فراشة على قلبه؛ هدهداه وطيبا بعض جرحه، لتنفرط الدموع من عينيه بلا هوادة وبشعور مطلق بالحرج؛

أحنى وجهه بين ركبتيه في سرعة وارتباك واضحين؛ يخفي جريمة بكاء الرجال ويمسح البلل الساقط بقماش سرواله، فأمسكت بكتفيه في لوعة وهي تقول:

- لا، لا تمنع العبرات! بل ابكِ. لا تخجل، إنها أمك! من لا يبكي أمه؟ انظر لي، أنا أيضًا أبكيها، لا أحد يمكنه ألا يبكي أمك الطيبة.

رفع رأسه إليها ببطء؛ لتريعه الدموع التي غسلت وجهها الوضاء مُضاعِفة نصاعته وكاشفة عن لمعة كالبرق في عينيها. في الحقيقة، كانت تبكيه هو لا تبكي أمه! ارتعشت شفتاه كطفل تنهره فيوشك على البكاء، لتعض آصال على شفتها السفلى المكتنزة في ألم، وتجد نفسها تجذبه إليها في تهور، ضاربة عرض الحائط بكل ما يحظر عليها نجدة ملهوفها بهذه الحميمية المفرطة؛ غمرته بين ذراعيها في احتواء أم، وهي تربت على ظهره في حنو بالغ وتنتحب، ليتشبث بها في راحة وامتنان، تاركًا العنان لدموعه في اطمئنان، أكدت عليه نادرة منذ الصغر أن الجدعان لا يبكون؛ فحبس دموعه مرارًا حتى لا تلقبه شامتة بالعيل الصغير.

تنحنحت آصال متحلية بالجرأة:

- لستَ وحيدًا. أنا إلى جوارك، أنا إلى جوارك إذا أردتَ أنتَ ذلك! هل تفهم يا جلال؟

استكان جلال كالطفل بين ذراعيها؛ فأطلقت الأمل في سمائه في اطمئنان، ولم يرتد إليها خائبًا؛ قد أحسنت

باختيار الوقت المناسب للولوج إلى حياته؛ هونت عليه مصابه وشغلت ذهنه بشكل ما، ليتقلص فقده الجسيم بعاطفة مُكتَسبة. التعزية انقلبت إلى اعتراف بالحب! واجب العزاء الذي سمح قاسم بأدائه؛ قضى أمرًا كان مفعولاً وحصل تمامًا ما كان يخشاه.. انبلجت نبتة حب خضراء طيبة.

وكم كان جلال ممتنًا ومتخوفًا في آن! يخشى تقلب مشاعرهما في هذه المرحلة العمرية الحرجة، ويحمل على عاتقه حقيقة أنهما من دم واحد، وحري به أن يكون أخًا لها وحسب؛ فلم يُقدِم على قول يُلزِمه ولم يتراجع كالنذل عما بدر منه، حاول بقدر الإمكان إلزام مشاعره الحياد، مستغلاً كون الارتباط الجدي أمرًا مستبعدًا لصغر سنهما، تاركًا الوقت يحسم أمر ما بينهما.. فلينمُ كشجرة طارحة أو ينضب كبئر لها قرار.

لم تنحز آصال بدورها إلى فعل أو تطلب منه مبادرة به؛ كانت تحمل قدرًا لا بأس به من الخشية والإعراض عن الارتباط الذي ترى وتسمع حولها عن مصير المرأة داخله؛ ظلت مكتفية بالعاطفة النقية، قانعة بالصمت المغوي والوعد الذي لم يقطعه أحدهما، مُستلِذة نبض الفرح والوجع في روحها، ضربات القلب المتزايدة وضخ الدم في عروقها، والحمرة التي تخضب كل شبر فيها حين تراودها التمنيات والأحلام بشأن قبلة بريئة، لم يذهب خيالها قط لأبعد من ذلك.

غالبًا ما تَرصَد جلال خروجها من مدرستها الثانوية أو

الأماكن التي تتلقى فيها دروسها في المنصورة؛ يخفق قلبها في كل مرة متلقية تحيته الصامتة، تومئ له باسمة وترجف كلها لحدة نظراته؛ الطريقة التي كان ينظر بها إليها من خلف عويناته، بعينيه السابحتين في نهر من العسل المصفى؛ كانت تسحق معدتها حتى لتظن أنها ستلفظها عبر فمها. تلهث ملتقطة أنفاسها بالكاد، ثم تسير بغنج وبطء مقصود، وهو في أعقابها لا يحاول استباقها، متفقين دونما اتفاق على خطواتهما الصغيرة والمسافة المحسوبة بينهما، تتلفت خلفها كل حين، تحافظ على تتبعه لها، ويحتفظ بمشيتها أمامه، يرعاها بظله حتى تستقل الوسيلة التي تعيدها إلى بيتها خارج المدينة. وعندما يتخلف عن الحضور تعكس طريقها وتحرص على المشي في خط سيره العائد من الجامعة لعلها تلقاه، وتتحمل صاغرة توبيخ أمها على التأخير.

لم تطمح في أكثر من نظراتهما المتوهجة التي تبادلاها دون كلمة مُصاحِبة؛ حكي الأعين السري الذي ينطوي على الشغف والحذر والترجي، النظرة كانت بألف قُبلة وأجدى من الكلام، النظرة كانت كالسحر تعيد إليها الحياة كلما فارقتها في بُعده، ولمَا انطفأتْ لاحقًا في عيني كليهما وخمدَ لهبُها؛ انكسرت عصا الساحر، وما عاد شيء قادرًا على بعثها من الموت البطيء الذي سارت بقدميها إليه.

***

-٤-

لما أرسل قاسم خبر عودته في إجازة الصيف؛ نقلته روحية إلى ابنتها في توجس؛ كادت تجن الأخيرة من التشوق والفرح، غير مدركة العاقبة التي كدرت على أمها العيش في انتظارها. وقفت آصال في الشرفة في الميعاد المنظور تترقب وصول والدها، وبمجرد توقف سيارة الأجرة التي أقلته إلى المنزل، طارت كفرخ عصفور من فرط العجلة، تكاد تتعثر وتهوي، تلتهم الصالة ومن ثم الدرج فالشارع، راحت تستبق الهواء أن يصل إليه قبلها! أشرعت جناحيها وجرت نحوه تود أن تغلقهما عليه، تحتضنه وتقبله كاستقبالها لجدها الحبيب؛ دلته على نفسها حين هتفت ضاحكة:

- بابا!

بيد أنه كان يتوقع ابنته في هيئة مغايرة عن فتاة حاسرة الرأس ممن يرتدين السراويل! زجرتها عيناه الحادتان في وجهه كفهد أسود جاهز للافتراس، متسمرة في مكانها بلا حراك بفعل كلماته لها:

- تحشمي يا بنت، سلامك لأبيكِ أن تقبلي يده.

مد كفه إليها لتحني رأسها فورًا، مرتعشة الشفتين؛ تمسان ظهر يده دون قدرة على تشكيل قبلة. لطالما قلبت في صوره متحسرة على ضيق عينيها السوداوين، تتمنى لو كان أورثها خضار عينيه ووسعهما؛ ولما رأته رأي العين لا الذاكرة ولا المخيلة؛ عرفت أنها لم تكن

لتحتمل زوجًا آخر من هذه الأعين.

أغلظ قاسم القول مشمئزًا:

- كيف سمحت لكِ أمك بالخروج من المنزل بهذا الشكل السافر؟ حسابها معي عسير. إن غاب القط العب يا فأر!

***

دلف قاسم إلى المنزل والشرر يتجلى في عينيه، مشيرًا بالدخول إلى امرأة خمسينية ضخمة الجثة، ترتج مشيتها في عباءة سوداء فضفاضة، آثار وشم أخضر باهت مدقوق على ذقنها، تتبعها كظلها فتاة مراهقة قوية البنيان، تحمل حقيبة صغيرة قماشها مهترئ. صاح قاسم في زوجته آمرًا أن تتقدمهما إلى حجرة آصال؛ لتجزع روحية وقد فهمت، خبطت على صدرها مرات مستحلفة إياه ألا يفعل، لكنه زجرها في شدة، فيما مطت المرأة الريفية شفتيها ممتعضة، وقالت على مضض:

- محسوبتك نعيمة. يدي خفيفة يا أختي. لا تخشي...

كانت آصال قد خرجت إلى الردهة تستطلع الضجة الدائرة في صالة المنزل، ليقع ناظرا نعيمة عليها، وتقطع حديثها إلى روحية، شاهقة:

- ويحي! البنت عروسة يا سيدنا. لماذا لم تستدعنا قبلاً؟

سارعت روحية بضم ابنتها وهي تقول مستعطفة

زوجها بعينيها:

- البنت لم تبلغ بعد؛ إنها طويلة فحسب. وراثة!

زفرت نعيمة في ضيق، مهمومة:

- يتعبننا يا سِتي – تنهدت - لكننا لن نعدم الحيلة. لا نسلم من تختين العرائس بين حين وآخر؛ يُفاجأ العريس حين يجدها مثل النبي حارسها ابنتك، يستقدمنا على وجه السرعة؛ يشمئز منها ولا يدخل بها. طبعًا! الطهارة مطلوبة يا ست. كيف سيأمن أن تحمل اسمه وتصون عرضه بلا عفاف؟

مُلئت آصال رُعبًا إثر كلام المرأة الفظ، واستمسكت بأمها وهي ترجف، فما ملكت روحية دموعها. لم يكذب أبوها خبرًا! يوم عودته انهال على أمها تقريعًا ولومًا لأنها تاركة إياها على حل شعرها، ولم يلتمس العذر في أنها غير مكلفة بعد؛ قال إن البنت ترتدي الحجاب عقب حصولها على الشهادة الابتدائية ولو بلغ طولها مترًا واحدًا لا غير! ثم لكز روحية في جانبها ودفعها عن طريقه، خارجًا كالعاصفة من المنزل الذي لم يكد يمكث دقائق داخله بعد سنوات من الغياب.

- سودتِ وجهي الله يسود وجهك.

ولم يكد يُلبِس آصال الحجاب عنوة، ويهب سراويلها وبلوزاتها وحليها الملون الذي يحرم أن ترتديه، ثم يعزلها في المنزل بعد واقعة ضرب الصبي؛ حتى عاد يومًا كالذئب الجريح بعد جولة استقصائية في البلد، يسائل

روحية عن ختان البنت حين عرف أنها لم تجمع النساء وتحتفل به كما جرت العادة. بوغتت روحية وقالت متلجلجة:

- هذه عادات بالية. ثمة حرمة للبنت! لقد ختنتها لدى طبيب.

- سأخلع عنها ملابسها لأتأكد بنفسي.

هجم قاسم على غرفة آصال النائمة في فراشها، انتزعها من مرقدها محاولاً تعريتها، صرخت البنت مستغيثة، فيما لحقت به روحية وراحت تجذبه في استماتة وبلا جدوى، لا يتزحزح كذب جبلي، صارخة بدورها:

- أرجوك، أرجوك، حرام عليك!

برقت عيناه وصاح، هاويًا على وجه روحية بصفعة مدوية أفقدتها توازنها:

- كان ظني في محله! وما خفي كان أعظم.

أفلت آصال دافعًا إياها بقسوة تجاه الحائط الذي التصقت به متشبثة، وأخذت تشهق وتسعل وتعب الهواء في جزع، ثم أفرغت معدتها باكية. بينما بصق قاسم على روحية الساقطة أسفل قدميه، قائلاً:

– لا عجب أن البنت دائرة على حل شعرها، متبجحة تتسلل تحت أنفي هاربة من المنزل وتفتح رؤوس الصبيان! سأعيد تربيتها من الصفر، لأنكِ لم تكوني أمينة عليها يا سيدة الصون والعفاف.

أمسكت نعيمة بآصال بحيث لم تحسن الأخيرة أن تفلت من بين يدي القابلة القابضتين على خصرها النحيل، اقتادتها بالقوة عبر الردهة المؤدية إلى الغرف، جحظت عينا آصال وارتعدت فرائصها فيما تقتربان من باب غرفتها المغلق، تتجمد خطواتها وتحاول قدماها التشبث بالأرض، تدير رأسها إلى أمها خلفها وتنظر إليها بلهفة، أغيثيني! فتجرها المرأة جرًا، وفي أثرهما الفتاة التي جاءت بصحبتها؛ ابنتها التي تماثل آصال في العمر، والتي شرعت تثبتها على الفراش وتفتح ساقيها بخشونة، لتتيح لأمها المجال للجز، وهي تزجر آصال في حدة كلما قاومتها الأخيرة:

- انشفي يا بنت بلا مرقعة وقلة أدب.

عقبت نعيمة مشمئزة:

- بغلة ونجسة! اثبتي يا بِت.

ما فتئت روحية تتضرع إلى قاسم وتحلفه برحمة شقيقتها الصغرى رسمية التي نزفت حتى الموت وهي بعد في سن الزهور، اجتز مشرط القابلة عمرها الصغير. غير أن قاسم لكزها وألجمها غصبًا في مكانها في الصالة، مانعًا إياها من إغاثة ابنتها التي جلجلت صرخاتها في ألم وعدم تصديق، لا يجري على لسانها غير كلمة «ماما».

قال قاسم من بين أسنانه:

- تربية نسوان صحيح.

كبرت آصال لتجد أعتى المثقفين ومدعي المدنية والتحضر ومنادي الحرية وحقوق الإنسان؛ لا يختلفون عن العوام في الترويج لختان البنات! منددين بالعُهر حين جُرِّم قانونًا، حاملين على عاتقهم إعلاء الشرف وتكريم المرأة.

***

لطالما كانت روحية الممسكة بمقاليد الأمور، الآمر الناهي في شأن ابنتها، باللين والتراضي ومحاولات الإقناع المستميتة، تتمتع في نظر آصال بسلطة قصوى، حتى جثم قاسم بسيادته المطلقة على البيت – لا تذكر أن جدها كان على هذا النحو - من ثم فقدت روحية نفوذها وتلاشت من حولها هالة السيطرة، وتبدت لآصال كبقية النساء النائحات في أوضاعهن السلبية؛ تنتظر لا شيء محددًا وتسميه «الفرج»، وتتحمل كل ضروب الأذى اللفظي والجسدي الذي يقع على كلتيهما عن طيب خاطر دون بادرة مقاومة، تبكي على استحياء حين تحسب أن لا أحد يراها، وتشكو مذلتها إلى الله وحده، تحتسب ولا تفعل شيئًا في المقابل أبدًا؛ أبت آصال أن تشبه أمها أكثر من ذي قبل، شاعرة بالتقزز والأسى.

لقد أحبت والدها عن بعد، هو الغريب عنها اشتاقت عاطفته، وحين لُبي نداؤها إلى الله بلم شمل أسرتها الصغيرة تحت سقف واحد؛ كرهته! مصعوقة من حقيقته التي كذبت روحية بشأنها؛ حين يؤلم الحق فلا بأس من الكذب! كذبت أمها أيضًا بشأن أسطورة «الجبين الأسود والأبيض» التي اتخذتها أيقونة للصدق وربتها عليها.

تسألها محاسِبة كمتهَم:

- لماذا تزوجتِ بهذه الطريقة؟

ترد روحية في يقين: نصيبي.

تطرح آصال سؤالاً آخر عل إجابته تشفع لأمها:

- على أي أساس قبلتِ بهذا الرجل بالذات؟

تجيب روحية في تسليم:

- لمَ لا أقبل؟ وصلت إلى السن الملائمة للزواج وتقدم رجل مناسب، بأي دعوى أرفض؟ زماننا مختلف.

يستفز آصال ألا أثر لندم في كلام أمها، لا تستشعر ذنبها في حقها بذلك الأب الذي جلبته وبالاً عليها! كأنما أمره مقبول وطبيعي لا يستدعي السخط والرفض، كأن تتوقع ممن يُذبح ألا يملأ الدنيا صراخًا! تمامًا كما تُركَت تُذبح ويُجَز لحمها وتصرخ دون إجابة. وقفت أمها مكتوفة اليدين، لم تستطع حمايتها ورفع الأذى عنها، كيف عساها تشعر بالأمان بين هذين الأبوين؟ تُلقي أمها بالتهمة جزافًا على عاتق القضاء والقدر. إنها غاضبة من جدها للمرة الأولى؛ كيف سمح بهذه الزيجة؟

تجهل آصال بعد طبيعة أمها؛ روحية رقيقة الحس والشعور بالفطرة، لم تكن تراعي حُسن التصرف عن خوف من قاسم أو ضعف في المقدرة؛ لا تعرف سبيل التعادي والمناطحة بالكَلِم والفعل، تقول وتفعل ما يناسب المقام والأصول، غير متأذية أو شاعرة ببذل التضحية، تتفانى في ما يبعث على الرضا ويملأ نفوس من حولها بالسرور، ولو أتى ذلك عليها بالضرر؛ تبش

للناس وتحزن في نفسها.

تنزوي آصال في غرفتها، أيامها فارغة، لا نشاط ولا حركة بأمر الوالد؛ حرّم عليها الخروج لأي سبب كان، ومزق رسوماتها وأعمالها الفنية التي كانت تعلقها في زهو على حائط غرفتها، زعق: «حرام» وضربها على رأسها في غيظ لأنه حين أزال الصور انتزعت معها جزءًا من طلاء الحائط الرديء. يملؤها الضجر والتبرم، وتحتد أعصابها وتضطرم فتستسلم لأحلام اليقظة وتنشد التعزية في عاطفتها؛ تتخيل للمرة الأولى نفسها على حصان حبيبها الطائر يحملهما إلى عشهما الهادئ، يخلصها جلال من هذا السجن المسوَّر، لن يمنعها من الالتحاق بكلية الفنون الجميلة؛ الحلم الذي قضى عليه قاسم دون أن تفاتحه بشأنه، وهل تجرؤ؟!

تستمتع بشعورها ضحية مُعذَبة، وثمة من يهتم لأمرها ويعرض نفسه للمخاطر من أجلها. تبدأ في تصور شكل الحياة مع جلال بعد أن كانت لا تقرب هذه المنطقة المحرمة، لا شك أنها ستحب ذلك؛ لا أسوأ من وضعها الحالي. إنها لا تختلف كثيرًا عن موءودة الجاهلية؛ أي فارق بين عيشتها والقبر؟ كلاهما يدفنها حية.

***

-٦-

عقدت آصال العزم مشيعة الخوف والحكمة؛ تمضي في طريقها ثانية إلى العزبة في الجهة المقابلة من الطريق السريع للسيارات الذي يطل عليه مسكنها، تنطلق متشوقة إلى دار صديقتها هناء، حيث تتجمع فتيات العزبة في عصاري الصيف كل جمعة، يخرجن للعب، وحين يهدهن التعب؛ يجلسن في حلقات للسمر والحكاوي الخيالية التي تسحبها عن الواقع وتحلق بها في فضاءات أخرى.

يقع منزل أبو زيد في مكان مقفر - أقرب منزل إليه يبعد خمسمئة متر وذرية سكانه ذكور - ومنذ انتقلا إليه حملت آصال على عاتقها أن تعقد الصداقات، مفتقدة لعبها مع جارتها القديمة صفا التي تصغرها بعامين؛ حين ذهبت مع أمها إلى العزبة قبل خمس سنوات، لتبدأ تجارتها في الدواجن؛ عادت وقد حققت هدفها المنشود، ظفرت بثلاث صديقات؛ سامية وسِعدة، وهناء، أختين وابنة عمهما.

تحسبها لن تعاود الذهاب بعدما جرى لها آخر مرة حاولت فيها ذلك! فيمَ أخطأت وقد دافعت عن نفسها ضد مُهاجِمها لتُدان وتُهان وتُضرَب بوحشية ويُنفَذ فيها حكم بالسجن؟ لن يضيرها شيء إذن، إنها لا تفعل شيئًا خاطئًا وتتلقى الضرب على أية حال؛ لن تُدفَن حية في هذا المنزل، على الأقل سيكون للضرب سبب وجيه

وترضية مناسبة، وربما تفلت منه، لو أسرعت في العودة وكان والدها لا يزال خارج المنزل بأعجوبة ما.

عندما قررت الخروج كانت تعلم أن جزاء فعلتها لن يصيبها وحدها؛ تعرف ماذا سيلحق بأمها إذا اكتشف ملعوبها، ستكون العاقبة وخيمة عليها كذلك، ستتلقى نصيبها الوافر من العقاب، فهي إما مُقصرة وإما متورطة، وفي الحالتين مشارِكة في الجُرم، وكانت روحية تعرف هذا بدورها، وترتضيه؛ قرأت آصال ذلك في عيني أمها، ولم يُرجِعها قيد أنملة، لا تهتم، ربما تستحق ما قد يُفعل بها! لم تطلب روحية منها التراجع حين رأت يدها تدير مقبض الباب للخروج، نظرت الواحدة مليًا في عيني الأخرى، طالعتها آصال في تحدٍ مقصود وبادلتها روحية نظرتها الثاقبة المتجردة من العاطفة بأخرى متفهمة وراضية، لم تكن لتجرؤ على التفكير في قول لا.

كم ساءت العلاقة بينهما بعدما كانتا كشقيقتين متماثلتين في العمر! توقفت آصال عن مخاطبة أمها، ملازمة حجرتها. تنتفض حين تسمع دوي ارتطام الحديد في الطابق الأرضي؛ تنغلق بوابة المنزل معلنة عودة أبيها من الخارج، لتتصاعد حموضة معدتها مع ارتقائه درجات السلم ووقع خطواته يقترب، تتثلج أطرافها حين تسمع خشخشة المفاتيح ثم صوت المفتاح يُدار في رتاج الباب، تسمع والدها يسأل عما فعلته «المحروسة» طيلة يومها، يزدحم الهواء فجأة ولا

تحسن أن تتنفس. كانت أمها تقيها غضبته وتضفي على يومها الجامد أفعالاً كاذبة عدة من قبيل غسل الصحون وتنظيف الأرضيات؛ فيستحسن ذلك ويؤكد عليها ضرورة تكليفها بمزيد من الأعمال حتى تنكسر شوكتها وينصلح حالها.

لم يكن ذلك يشفع لروحية لدى ابنتها، كانت آصال تشعر نحوها بشفقة مختلطة بالقرف، كشعورها تجاه الشحاذين أصحاء البدن؛ يجلبون حالهم السيئ على أنفسهم؛ يمكنهم أن يحظوا بحياة كريمة لكنهم لا يفعلون. وقد كانت ابنة شحاذة مجرورة في ذيلها لا سبيل لها للاختيار وتقرير مصيرها.

عبرت الطريق السريع في حذر وسرعة. تسير وسط الحقول في ذلك النهار الصحو، فيما تشرق ملامح وجهها شيئًا فشيئًا، اشتاقت إلى نسيم العزبة الطيب المُحمَل برائحة الأرض الطينية والمزروعات الخضراء، لا يصل إليها هذا الهواء النقي في شرفتها؛ يزكم أنفها عادم سيارات النقل الثقيل والمقطورات، ويقض مضجعها النفير المدوي وأنات الإطارات على الأسفلت بالحمولة الزائدة. تريد أن تدلي قدميها في جدول الماء العذب الذي يجري بين الأراضي، وتجري بصحبة صديقاتها بين عيدان الذرة الطويلة، يجبن الجُرن شرقًا وغربًا لاعبات «كهرب» و«الغميضة»؛ لولا أنها لا تستطيع تمامًا الانصياع لرغباتها في الوقت الحالي، لا يزال الجرح يؤلمها حين تسير، فلن يسعها الركض بطبيعة

الحال.

وصلت إلى الأرض الخلاء المحيطة بدار هناء المبني من الطين، وجدت سامية وسِعدة قد سبقتاها وافترشت ثلاثتهن المصطبة الحجرية. وما أن هلت عليهن حتى استقبلنها بالأحضان والترحاب، مبديات الدهشة من مظهرها الجديد، لكن سرعان ما استحسنه – يلبسن زيًا قريبًا منه - باركن لها وقلن لها إن وجهها يشع نورًا، وعاتبنها على الغيبة الطويلة رغم الإجازة الصيفية.

انطلقت كالقذيفة الحية تستعرض ما جد على حياتها خلال شهر واحد من عودة أبيها، ثم أخبرتهن على استحياء وبنبرة مشروخة ما جرى لها على يدي القابلة وابنتها، لم يواسينها كما توقعت بل سخرت سِعدة، أصغرهن، من دلعها مغمغمة:

- عودك طري!

وشهقت هناء كون ذلك لم يحدث لها قبل الآن؛ أجمعن ثلاثتهن على تهويلها الأمر وأنه إجراء حتمي كلهن مررن به في سن التاسعة. كانت المرة الأولى التي تجري على لسانها سيرة من فئة العيب؛ لتكتشف أنهن كن في انتظار إشعال ذلك الفتيل لتفجر كل واحدة بحكاياتها السرية نقلاً عن البنات الأكبر في العائلة.

نصحتها سامية - أكبرهن - أن تتجلد وتستعد لما هو آتٍ، استخدمت ذات التعبير:

- انشفي!

ذلك الفرج حمّال أسية؛ لا يخصها بقدر ما يخص زوجها وأطفالها الذين يخرجوا منه. فزعت آصال التي كانت تعرف ذلك للمرة الأولى - ولوقت طويل بعدها لم تنفك تراود مخيلتها مشاهد كابوسية لامرأة يتمزق فرجها ويخرج منه رأس طفل عملاق - استفاضت سامية في الشرح، وأفهمتها أنه لكي تتحول الفتاة إلى امرأة يجب أن ينفذ فيها عضو الرجل، ويجب أن يصاحب ذلك دم يقدمه العريس للناس على منديل دليلاً على بكارة عروسه؛ ليقع ناظرا آصال في هلع على عضو الحمار المربوط إلى دار هناء؛ تتفرسه غير مصدقة، مقشعرة البدن. كانت آصال تفتقر بعد إلى الرغبة الجسدية، وتبدى لها ما سمعته أفعالاً متوحشة، ومبهمة، أكبر من قدرتها على الاستيعاب، لا تثير سوى اشمئزازها، مقرفة، مقرفة للغاية. والدم يعني جرحًا آخر! لا تعرف لمَ كانت سامية تتكلم باستمتاع!

بعدما فارقت جلستهن ومشت الهويني عائدة إلى المنزل، مستغرقة في التفكير، استعادت رغبتها في التملص مما قد يربطها بجلال، وتبخرت أحلامها الطائشة في أن يخطفها على حصانه. الطهارة والشرف والزوج والأطفال؛ جميعهم يتسببون في إيلامها، يسيلون دماءها، ويصيبونها بالجراح اللاهبة التي لم تشفَ من أولها كليًا بعد. ما فتئت تردد، حاسمة أمرها، مهدئة من روعها:

(أنا لن أفتقد شيئًا في الزواج)

حين شارفت على بلوغ المنزل، جمدَ دمها بغتة في عروقها، وجف حلقها متحولاً إلى رمال صحراوية؛ كان قاسم مرابضًا أمام بوابة المنزل الحديد، يجلس بهدوء، يحدق فيها بثبات، يرفع أصابع كفه ويدنيها منه ببطء، يشير إليها بالتقدم منه، دون أن يحرك ساكنًا. لقد أثار رعبها أكثر مما لو قفز من مكانه وجرى وراءها بهراوة! إنه يتوعد. معدتها! العصارة الهضمية كحيوان قارض يلتهم أحشاءها. ست... ستقيء! لا تحسن التقاط أنفاسها. رباه! تشعر بالغثيان، استندت إلى عمود الإنارة على الطريق وأفرغت معدتها محدقة في فتات الفطير المشلتت الشهي لأم هناء. ثم عبرت بلا حول ولا قوة إلى النمر المترصد.

سامها وأمها سوء العذاب! حين صعدت إلى المنزل خلفه بالكيفية العمياء، أمرها بجلب حزامه الجلدي من خزانة ملابسه؛ أحضرته طائعة ليجلدها وأمها حتى شبت النار في جسديهما. كان يجلدهما في تأنٍ وبلادة، لا تحركه فورة الغضب التي كانت تطيح بيديه في كل اتجاه ضربًا عشوائيًا؛ عرفت فيما بعد أنه جلس في انتظارها ثلاث ساعات. لقد سرقها الوقت ليتمعن في مضاعفة العقاب؛ البنت عيارها فلت، لا بُد لها من رادع.

قال أخيرًا بصوت نافذ:

- حين يبدأ العام الدراسي؛ لن تعاودي الذهاب إلى المدرسة. سأسحب ملفك. إنه عامك الأخير، أعلم ذلك، هذا يعني أنكِ لن تحصلي على الشهادة، هذا ما أعتمد

عليه.

***

أية مهزلة أن يشعر المرء بسلبيته وتبعيته في سن التوق والإرادة؛ في هذه المرحلة الحافلة من العمر، التي تفتح خلالها الحياة ذراعيها على وسعهما، ليخلق كل واحد لنفسه مكانًا على سطح الأرض؛ كيف تقدِّر البنت منزلتها؟ ماذا يشكل وعيها؟ حين تتعلم أنها مسيرة أبدًا، أنها لخاسرة كل معركة؟ تندفع آصال إلى كره شيئان؛ أنها ولدت بنت، ووضعتها أمها في هذه الناحية من الأرض الظالم أهلها.

كم صعب عليها امتهان نفسها الأبية وركوعها على قدمي والدها تقبلهما، بإيعاز من أمها، حتى يتراجع عن قرار إنهائه حياتها! أقسمت متذللة إنها ستكون فتاة مطيعة؛ ليتنازل أخيرًا أن تستكمل دراستها شرط تحويلها منزليًا ودون اللجوء إلى الدروس الخاصة؛ إقامة جبرية كاملة في المنزل، أقصى ما تصل إليه شُرفته! قال إنها ستشكره على ذلك لاحقًا.

ما تلقته من جدها إسماعيل من حنان وعطف يغزلها بين الشوق والنقمة طوال الوقت، ويدفع بمشاعرها إلى التضارب تجاه قاسم، أحيانًا تعدم الاهتمام به؛ وجوده من عدمه لا يشكل فارقًا. ثم تشعر نحوه بالعداء ولا تستطيع تخليص نفسها من الحقد الذي يأكلها حية. وكثيرًا ما ترتعد فرائصها في تحويمه حولها؛ نبرة صوته

الجهورية وتبريق عينيه حولاها من غزال شارد حُر في الصحاري لقطة مذعورة منزوية في ركن بيت معتم. لتشعر فجأة بالهوان والاحتياج إلى الحب والرحمة، وكم أن كلمة «بابا» مُعذِّبة وأن لا كلمة أخرى أكثر فتكًا بها! ومتى سمعتها لاحقًا من بين شفتي فتاة مخاطبة والدها أو متحدثة عنه – صفا الغبية لا تنفك تردد في معرض حديثها: بابا كيت وكيت... - تحتشد الدموع في عيني آصال لاإراديًا، وتسارع كالخرقاء بالطبطبة على جفنيها لمنعها من النزول ثم تأخذ نفسًا عميقًا وتقول لنفسها إنها بخير، وتفشل في تطويع شفتيها لرسم ابتسامة تبرهن على ذلك.

لشد ما حاربت للتوفيق بين عواطفها المتناقضة نحو الرجال، عمدت إلى التفريق بين شخصية الرجل الذي سبب لها دمارًا

شاملاً، والرجل الذي كان بإمكانه أن يكمل من حيث انتهى الأخير – لكنها كانت أجبن من أن تدع له فرصة الإثبات أو النفي - وبين الرجل الذي طالما أجلَّت دوره المحوري في حياتها وقدست الشخص الأصيل الذي كان عليه؛ جدها إسماعيل، السبب في حفاظها على تماسكها النفسي والتئام كسورها الحية.

***

أحسن جلال الإصغاء إلى آصال طيلة ساعات متواصلة من البكاء والحكي. لم تعهد رجلاً ينصت! وما أدراكِ يا آصال؟ أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الرجال.

- لا تتخيل ماذا فعل بي بعدما ضبطنا معًا؟ لا تتـ.. تتخيـ.. أمسكني و...

لم يُمكِنها الانفعال من البوح بأفجع أسرارها؛ راح صدرها يعلو ويهبط بسرعة مجنونة، وثوبها الفضفاض لا يخفي اهتزاز فخذيها. لم يطمئن لنظراتها التي لم تستقر على مكان؛ فاقترب منها وأرسى كفيه على كتفيها، يضغط بثبات حتى هدأت. هامسًا:

- هذا يكفي يا آصال. أنا أتفهم. لنتكلم لاحقًا.

- يجب أن تعرف.. ف

- هششش، فيما بعد. هوني عليكِ.

- أنا لا أعرف ماذا يعني أن يكون للإنسان أب. لم أحظَ بواحد لأعرف، لكن.. لا يمكن أن يكون قاسم أبًا، أليس كذلك؟

زم ثغره في أسى ومضى يمسح على شعرها حتى تبعثرث خصلاته المصففة منسابة في حرية على كتفيها؛ تجمدت كلها في مكانها في وجل، تحدق في جوف عينيه الغائمتين، وتُدحرِج أناملها بتردد على صفحة وجهه، كأنما تتلمس حقيقته الراقدة تحت جلده.

يتكشف أمامها ما يمثله بالنسبة لها، كيف سيحبها؟

تلك النار المتصاعدة في جوفها! لا تصدق كم اشتاقته في كل لحظة مضت بدونه وكل لحظة لن تدعها تمر بغيره، في كل المسافات والأزمنة التي فرقتهما حينًا وجمعتهما في حين آخر! ثابت هو في حضرة النساء، لا تهتز لفتنتهن شعرة فيه وهو الأشعر؛ في وقت آخر ستحمد الله على ثباته، لكن عندما تكون الآن واحدة من تلكم النساء ستدعو الله بغير ذلك. تحبس بالكاد الآهات الشقية في ثغرها، مستبعدة قدرته على إحصاء عدد القبلات الساكنة على شفتيها في انتظاره ليحركها من مكمنها!

دنا منها حتى انعدمت المسافة بينهما. هل حقّ ما تراه منعكسًا في عينيه اللتين يسيل منهما العسل؟ هل يقصد ما مضى يثيره في انحناءات جسدها وخطوط وجهها؟ أحاطت عنقه بكفها تستكشف جوابه، ليمسح برقة على وجنتها، وينحني نحو ثغرها يقطع الطريق على نظراتها التي ينبثق منها ألف سؤال وسؤال. اقترب أكثر فأكثر حتى توقف بنفاد صبر على بعد بوصة من شفتيها المغلقتين؛ لتنفرجا فورًا تلبيةً لنداء القبلة التي لامستها بخفة قطرة ندى الصباح.

تتسلق أناملها الطريق إلى وجهها في جنون، وتتلمس شفتيها وتقرصهما وهي تحدق فيه بغير تصديق؛ هذه هي قبلة الحبيب؟ كأن شفتيها لم تمسا من قبل، كأنه يقبلها للمرة الأولى! أحاط جسدها الرشيق بين ذراعيه

بنزعة تملك واضحة، وتشبثت بدورها بصدره العريض في قوة، لا تريد أن تفلته، وكأنه غايتها التي لم تكن تبحث عنها. بقربها منه لم يسبق لها أن كانت بتلك الحاجة واللهفة!

لقد تساءلت مرارًا ماذا كان ليحدث لو أنها لم تزجره وتطرده ذاك اليوم في المستشفى؟ لو أنها لم تدِر له ظهرها وتشمخ بأنفها حين رأته مغادرًا البلاد بحقيبة سفر ونقطة أخيرة على السطر في قصتهما! لو أنها لم تتخذ ذلك الموقف البغيض منه وترفع حائط صد يقوض زواجهما. حسنًا، لم تكن تلك القبلة اللذيذة لتأخذ كل ذلك الوقت لتقع، وتُوقِعها، تطرحها أرضًا راضية. إنها مغفلة!

غمغمت في غنج:

- جلال. لم تخبرني قط أنك تحبني!

ابتسم في استمتاع:

- أنا لا أحب الكلام.

سألته بإلحاح:

- هلا سمعت إذن؟

فتشت مسرعة عن هاتفها الذي التقطته بلهفة من حقيبتها، مُشغِلة الأغنية الوحيدة التي تحفظها عليه، لينساب أنين الإيطالية لورا باوزيني، طارقًا المسامع والأفئدة بالحسرة والدهشة. ليست مستمعة جيدة للموسيقى؛ لا تملك أذنًا طربية ولا هوى للغناء، لكنها منذ

وقعت مصادفة على هذه الكلمات العذاب والصوت الذي ينسل خلسة إلى قلبها وتطرده بعد عناء؛ انكبت على سماعها لاشعوريًا لقرابة السبع سنوات.

.It’s just a matter of time I’m sure
!Well، time takes time and I can’t hold on
So won’t you try as hard as you can put my
?broken heart together again

هزت رأسها في تثاقل مفاجئ، وتمتمت في راحة تتسرب إليها بلا وعي:

- أريد أن أنام.

هم بحملها بين ذراعيه ليخلدها إلى الفراش، فسارعت بالتمنع:

- لا، سأنام هنا.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة كبيرة متفهمة، وساعدها على التمدد على الأريكة، مدثرًا إياها بغطاء خفيف، فيما تشبثت بكفه هامسة في إرهاق:

- هل ستردني؟

غمغم في خفوت مبتسم، وهو يتمدد إلى جوارها ويضمها إليه في حنان:

- فعلت قبل أن أمِسّك.

همهمت في دلال:

- أريد غرفة نوم جديدة.

تنهد في راحة:

- بالطبع. أخيرًا يا آصال!

Till the day I let you go

Until we say our next hello... its not

.goodbye

***

كان يظلها طيف جدها منذ سقطت فاقدة الرشد حتى استفاقت في المستشفى جسدها زاخر بالرضوض والكسور. تراءى لها بشعره الأشيب الذي يفيض حكمة، ووجهه الطيب حسن القسمات، وعينيه السوداوين الضيقتين - اللتين ورثتهما عنه - المفعمتين بالحب والرحمة. هدهدها جدها وأمدها بالقوة والعطف، أكد لها أن حظها كان سيئًا لا أكثر، أنها لم تستحق أيًا مما حدث لها، أنها كانت محبوبة في وقت ما، وكانت تستحق ذلك الحب، ويجب أن تحب نفسها كما أحبها جدها، ولا تقبل أقل من أن يحبها أحدهم بذات الطريقة؛ كذا أطلقت سراح جلال في الليلة نفسها التي قال لها فيها إن وجهها صبوح ويانع كسحابة بيضاء صافية.. أول وآخر ما نطق به!

طيرّته حرًا، ورقدت في القن على نفسها. لن يحبها أحدهم كما أحبها جدها. كانت قد اكتفت من الأيدي العليا، أحسنت باغتنام الفرصة التي سنحت لها بالتخلص من قاسم، ولم ترد أن تمرر السلطة، من سيحل محل الأب الذي يتمتع بالسيادة المطلقة؟ جلال سيكون كذلك! وهي أبعد ما تكون عن الحاجة إلى أي شخص يحتل هذا الموقع في حياتها. ستفر.

لم يكن يُبقي روحية على قاسم إلا آصال؛ تحافظ على سمعة ابنتها فلا يسوؤها بين الناس ويضر فرصها في

الزواج وضع أمها كمطلقة. ولما لم تعد تأمنه عليها؛ انتفت مبرراتها في الخضوع لما كانت تظنه لا يعدو عن تحمل الزَغق العابر وبعض الصفعات واتقائها إن كانتا حسنتي الحظ؛ غير أن الأسوأ قد حدث! لن تفقد ما كانت تفقد كل شيء آخر من أجله. لتلجأ أخيرًا إلى شقيقها المستشار عبد الرحمن الذي استعان بمركزه القضائي في إقصاء قاسم.

أمنته على السر وكان كتومًا بطبعه فلم يفضِ به حتى لابنه، لكنه حملها نصيبها الوافر من المسؤولية؛ هي الملامة في المقام الأول؛ سمحت بالتمادي، حيث وقفت لم تفعل شيئًا، ظانة أنها تحسن العشرة أو تسدي معروفًا من نوع ما!

- الأمر لم يكن بهذا السوء في السعودية. على الأقل لم يتأذ أحد بسببي، كنت أحسب نفسي زوجة صالحة! لكن ابنتي الآن تدفع الثمن. لستُ أمًا صالحة إن لم أنهِ هذا الآن وللأبد.

جربت آصال ماذا كان قاسم بقادر على فعله حين يصد أحدهم في وجهه؛ أصابها ما أصابها حين جرؤت على ذلك، وفهمت أن روحية حتمًا كانت تعي ذلك فتتقيه، أو كانت غريرة سليمة النية إلى حد لا يصدق! على أي حال، التمست أخيرًا العذر لها، ومن ثم الشفقة فالذنب. وحزرت آصال أن أمامها الكثير لتعوض أمها. فيما مضت روحية تعفها عن ذكر والدها بسوء، حثتها على ألا تجيء بسيرته على لسانها أو خيالها، سُمعتها من

سمعته، ما يَمُسه بين الناس يَمُسها.

- ليس من أجله بل من أجل ابنتي. هل تفهمين يا آصال؟ لن تُشرِّدي به. فأي ابنة أصول تفعل ذلك؟ أنتِ فتاة مؤدبة وستبقين كذلك. وهذا أبوكِ، شئنا أم أبينا، أمامك وأمام الناس وأمام ربنا.

وقد عملت آصال بنصيحة روحية واكتشفت على مر السنوات التالية كم كانت أمها فطنة! منعت قصتها من التداول فلا تفلح أن تنساها يومًا! الناس يحبون الفضائح ويتفننون في إضفاء الإثارة عليها، يضيفون تفاصيل من وحي خيالهم ويقحمون وجهات نظرهم كجزء أصيل من الحكاية. جنبتها أمها أحكامهم وادعاءاتهم؛ كانوا ليقولوا إنها منحلة وأبوها يقوم سلوكها؛ فمن ليصدق أن أبًا يفعل فعلته تلك بابنته من لحمه ودمه إلا لو جاءت شيئًا نكرًا طير عقله؟ كانوا ليلفقوا لها تهمًا غير شريفة تسمح بعبور ضمائرهم مرتاحة ومتلذذة بالعاقبة. ستقع عليها الملامة بشكل أو بآخر؛ لم تحسن سماع الكلام، ابنة عاقة على أقل تقدير. وكانت لتثير شفقتهم في أحسن الأحوال. لا! إنها مجرد خرقاء تعثرت متدحرجة على السلم فكسرت حوضها وذراعها وأدمت وجهها. هذا كل ما في الأمر.

سُرحت آصال بعد أسبوع قضته في المستشفى إلى بيت جدها في حي توريل، دخلته على عكازين، وقد استعادت هيئتها القديمة فيما تلبس من ثياب وكشفت شعرها، خالعة كل القيود التي تلزمها أن تكون على

شاكلة معينة، غير عابئة بقواعد السلوك المفروض عليها اتباعه؛ كذا كانت تهجر المجالس دون استئذان وبطريقة تخلو من أدبيات الزيارة - حين توالت عليها - متى أصبحت ثرثرة النساء لا تُحتَمل. يسألن روحية عن زوجها وعن سبب عودتها لبيت أبيها، كانت آصال ترد نيابة عن أمها ودون حرج:

- صدعتن رأسي! هي زيارة أم تحقيق؟

كم استلزم صفا من محاولات حثيثة لاستعادة صديقة طفولتها تدريجيًا بعدما عادت إلى جيرتها مرة ثانية! لم تعد آصال تطيق صحبة الناس تقريبًا. كل شيء في تلك الفترة كان يبدو لها هراء كبيرًا، تريد أن تخلص إلى نفسها وتجلس في ركن ما صامتة، الكلام يسبب لها الإجهاد والتوتر، التعاطي مع الناس يفوق مقدرتها الهشة. حضن أمها كان يبقيها بمأمن، ولم تكن داخله في حاجة إلى الكلام. لا تكتفي منه.

ما فتئت روحية تحاول التخفيف عنها، تملأ الثقب المتسع في قلبها من الخذلان بكل ما أوتيت من الأكاذيب؛ تقول: قاسم كان أبًا مثاليًا من حيث أتى، هكذا يفلح أبناؤهم، هكذا يعلمونهم الصواب والخطأ، هكذا يحبونهم، لا أب يريد الأذى بأبنائه!

تلك الفجوة الهائلة في روح آصال لم يكن مردها قاسم بذاته؛ تحزر أن أحدهما لم يكن يعني للآخر شيئًا، إنما (ماذا من المفترض أن يكون قاسم بالنسبة لآصال)؟ لو

فعل غريب فعلته بها لما استغرقت في نسيانها عُشر ثانية، أو لعلها ستحتاج إلى مزيد من الوقت! لكن لن تكون لها أثر الفراشة على حياتها، ستكون أقرب إلى حادث سطو أو سرقة بالإكراه أو حتى محاولة قتل. الحوادث تقع، لكن حادث كهذا؟ أقرب المقربين المُتَهم فيه بالأذية! الشخص الذي من شأنه ألا يسمح بشيء سيئ يحدث لها! هذا النوع من المشاعر لا يمكن التهاون فيه، تصلب الطول أو تهد الحيل، وقد ضرب قاسم الأبوة في مقتل؛ فأي أذى كان يقدر عليه بعد؟! منطق روحية يلتف حول نفسه.

***

لم تحاول صفا أن تخفي ولهها المفرط بالجنس الآخر؛ تراقب زملاء دراستها في كلية التربية والمعيدين صغار السن، لا تنفك تشير على قلبها بهذا وذاك، وتعلقه قسرًا بأحدهم كل حين، تنخرط في قصة خيالية تدور في مدارها، وتعود ليلاً تفضي بكل ذلك إلى آصال لتساعدها على الاختيار، غير أن الأخيرة لم تنِ تتهكم على الرجال الذين يعجبون صفا، لربما تنصرف عنهم! تضحك وتهزأ من الحب برمته، تبدد أي إغواء محتمل بالحصول على فارس الأحلام، مستنكرة الجوارح أن تصبح يومًا في ذاك الموضع، حد أن صفا استبد بها الفضول والشك، لتصارحها متوجسة أنها لم ترها منجذبة يومًا إلى رجل أو متلهفة على الزواج ككل البنات في أعمارهن، وهذا مخالف للفطرة!

- لا تستشعري الحرج يا آصال. هل لديك ميول مثلية؟

لتضحك آصال حتى تطفر الدموع من عينيها مدهوشة من خيال صديقتها الجامح، مضطرة إلى مشاركتها ما يعجبها في الرجال: البشرة الحنطية والبنية الرياضية، أصحاب العوينات اللاتي تخفي عينين جميلتين وتوفر مصدرًا متجددًا للدهشة عند خلعها، الشفاه الرقيقة التي لا تكاد تبين، وذاك العطف الغريب المقترن بالافتتان تجاه من يعرج قليلاً في مشيته! تبدى جلال في ذهنها بصورة عابرة، عساه الآن في إنجلترا؟ لم تتصور أن تستعيده يومًا بالشفقة. حسنًا. لقد تابع حياته ولم يعبأ بها؛ لم تكن تمامًا على خطأ. تداركت سريعًا حديثها:

- حسنًا. لا يروق لي شيء آخر بشأنهم، مجرد انجذاب غريزي لا أملك رده، وشخصي أسمى منه، لن يتخذ القرار بالنيابة عني، المهم إلام ينجذب فكري وروحي؟ لماذا أود أن أكون في علاقة طرفاها غير متكافئين، أحدهما يأخذ أضعاف ما يمنح ويتسيد على الطرف الآخر. شكرًا! أنا مكتفية تمامًا بأمي.

***

أفاقت آصال بغتة على صرير الباب يُفتَح؛ اعتدلت في جزع ليضرب رأسها دوار خفيف، فأطرقت حتى يمر سريعًا بينما تسأله:

- أفزعتني. أين كنت؟

أقبل جلال بحقائب بلاستيك عدة اتجه ليضعها في المطبخ، مجيبًا:

- كنت أتبضع للثلاجة الخاوية على عروشها؛ البيت كان ينقصه امرأة!

أحكمت الملاءة حول جسدها المتورد إثر ليلة حب؛ ما فتئت تتلوى كسمكة في بحر هائج حتى سكنا معًا من فرط اللذة والرضا، تجاوبت معه وأرشدته كيف يلبي نداءها، مفتاح المتعة يكمن في حُسن استقبالها؛ حين تفتح لها الباب وتدعوها للدخول. لتغط آصال بعد مرتها الأولى من المتعة في نوم سحيق، فاغرة الفم كفرس نهر صغير شبعان.

غمغمت مدهوشة فيما تتضرج وجنتاها بالحمرة:

- أول مرة أنام بهذا العمق؛ لم أنتبه لك. وأول مرة أنام عارية!

- أتعشم ألا تكون المرة الأخيرة.

قالها بابتسامة صبيانية عابثة فضحكت بصخب، بينما استند إلى الجدار ممسكًا بجبينه، وتابع بعينين غائمتين

وإعياء مزيف:

- جمالك يصيبني بالدوار.

أسرعت إليه كطفلة تطرق صدره بقبضتها الصغيرة، وقالت بثغر ملؤه ضحكة:

- لستُ جميلة لكني أجيد رسم وجهي، وهو الآن خالٍ من الزينة، فكف عن المجاملة.

اعتدل في جدية:

- وهل أجاملك لو قلت أيضًا إنكِ فتاة أحلامي يا آصال؟ وإنكِ أول فتاة أحببتها، والأخيرة. أجل، لم أحب سواكِ؛ يطل من عينيك سؤال (ومن أحببت بعدي؟)

أبرز زهرة حمراء طويلة الساق كان يخفيها في طيات ملابسه؛ لتنتزعتها منه بعينين متلألأتين فرحًا؛ الورد البلدي الكائن الحي الأسرع في تحسين مزاجها. استنشقت رائحتها الزكية متنهدة في لوعة، فيما تابع:

- وإنكِ جميلة، الآن، وقبل عشرين عامًا؛ قبل أن تجيدي الرسم. وجهك لا تعوزه الألوان، نضر ومتورد، شفتاكِ كرز، وعيناكِ سوادهما جذاب. لستُ مجاملاً يا حبيبتي أبدًا.

- إذن أنت شاعر يا دكتور. حسبت أنك لا تجيد الكلام!

- إنها المرة الأولى التي أتفوه فيها بقول مماثل، وكنت أظن هذا النوع من الكلام سخيف. لم أتخيل أنه يمكنني أن أرى الأمور على هذا النحو الشاعري - تابع في

استمتاع - لكنني لستُ وحدي المُغازِل بيننا؛ لم يفتني أن ألحظ أنني لم أتخلص كليًا من العرج في قدمي اليسرى، لهذا أردت أن أصبح طبيبًا، حتى يزيد من يتقنون عملهم واحدًا. وبنيتي لا تزال رياضية، أليس كذلك؟ - شرع في خلع عويناته ببطء - أردت التخلص منهما لكنني شديد التحسس من أي شيء يأتي صوب عيني، لا ليزك ولا عدسات لاصقة. أشعر بالإطراء يا آصال. كنتِ منجذبة لي وحدي، لقد أرسيت لكِ نموذجًا.

قطع الصمت المغوي الممتد بينهما مردفًا في حزم مفاجئ:

- آصال، أتوقع أن تختلف المعاملة بيننا من الآن فصاعدًا، وأقصدك بذلك، لأنني كنت أتقي الله في معاملتك طيلة الوقت.

تأتأت مغتاظة:

- يا إلهي! ما خطبك؟ أفسدت عليّ سحر اللحظة!

قرص وجنتها في لطف:

- حبيبتي، لقد سوينا الخلاف، وأنا واثق أنكِ ستعاملينني بما يرضي الله. لا داعي أن أذكرك بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لو كنت آمرًا لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

(إلهًا مع وقف التنفيذ؟ من شأني أن أسجد لك صباحًا ومساءً لولا الحرمة! لأي علة هذه القسمة الضيزى؟ النفقة! ولو أنفقتُ لاستحققتُ أنا؟ أم لبنيانك الذكوري؟

الثور أقوى قطعًا؛ فلا أراك في شيء آخر تختلف عني! لا أظنها معاملة ترضي الله ما تستشهد به يا جلال؛ «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»! يا رسول الله لا أصدق أن يُبعَث الطاغوت في الرجل باسم الدين والشرع! وإن يكن؛ فليس كل الرجال مثلك يا مُحمَد! ليس منهم إن كسرث زوجته صحن ضرتها الذي هادته به أمام أصحابه، أن يضحك ويكتفي بكلمتين: «غارت أمكم». لأذل ناصيتها من تفعل زوجته كعائشتك، ولا ترضى لها مذلة يا حبيبي!)

ضبطت أعصابها فيما افتر ثغرها عن ضحكة مفتعلة:

-اطلب ما شئت مني يا جلال بشكل شخصي، وسألبيه لك إرضاءً لك، بمحض إرادتي، ولو لم أرد، فسيكون إرضاءً منك لي؛ سكن ومودة ورحمة يا حبيبي، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، تفكر يا حبيبي، هل حقك عليّ حد العبادة؟

انعقد حاجباه في استغراب:

- آصال! هل سنخوض بعد شجارًا كهذا؟ ستبقين معترضة دائمًا وأبدًا – تابع مغتاظًا – آصالobjection. ألا يمكنك أن تقولي حاضر ونعم؟ أحب سماعهما من فضلك، أرتاح لهما.

عساها لم تخطئ! ترقرقت في عينيها دموع إحباط شديد، مدمدمة:

- في المطلق؟

هتف منزعجًا:

- لا أظلمك يا آصال، لا أجور على حقك! هذه مودة ورحمة أيضًا يا حبيبتي. وللدلالة سأمهلك الوقت الذي تحتاجينه لارتداء الحجاب، قد أتفهم أنكِ غير مستعدة أو راغبة لكن لا ينازعك هوى نفسك ويصور لكِ الشيطان أنه ليس فرضًا واجب تأديته. ألست كذلك منصفًا، هه؟ – أردف في لهفة - هيا، هيا يا حبيبتي ارتدي ملابسك ولننزل حالاً. بحلول الليل ستكون لنا غرفة نوم جديدة خاصة بنا؛ أريد أن نعجل بقدوم ولي العهد. لا تتصورين كم أعشق الأطفال يا آصال وأتشوق لمجيء الواحد تلو الآخر.

غمرها فزع مفاجئ وكادت تهتف به أن رويدك! رويدك! ترو قليلاً. تنهدت لمرات متلاحقة تهدئ من روعها، ثم قالت:

- أريد أن أطمئِن ماما أولاً؛ تعتقد أنني في مهمة عمل في القاهرة وقضيت الليلة الفائتة في فندق.

اتسعت عيناه في جزع وصاح بلهجة خشنة:

- استغفلتِها يا آصال؟ كيف تتصرفين من تلقاء نفسك وتقدمين على شيء دون الرجوع إليها؟

رمقته مستغربة ردة فعله بينما تجيب في سلاسة:

- لم أكن متأكدة إلام سيفضي الأمر ولم أرد أن أرفع آمالها دون فائدة – عقدت ساعديها أمام صدرها متنحنحة – والشيء بالشيء يذكر يا جلال؛ ثمة

معلومة في غاية الأهمية غائبة عنك ويحسن أن تعرفها عني؛ لقد تعديت الخامسة والثلاثين، انقضى من عمري نصفه على أقل تقدير. هل تفهم معنى ذلك؟ تعودت أن أكون حرة في اتخاذ قراراتي وتنفيذها في ذات اللحظة دون انتظار موافقة من أحد.

انتفخت أوداجه وهو يقول:

- يبدو أننا ما زلنا نواجه نفس المشكلة يا آصال! فدعيني أكون واضحًا منذ اللحظة الأولى؛ من الآن فصاعدًا لا تتوقعي أن تمضي في حياتك دون إذني.

(بل توقع أن أقوم بالكثير من الأشياء دون مباركتك، على الأقل في البداية)

ماذا لو أرادت أن تعرج بعد عملها للسير على النيل أو تذهب للتسوق أو السينما، وربما تخرج مع صديقة؟ لا تتخيل أنها كلما فاجأتها رغبة عادية تكون مضطرة إلى الاستئذان، مع احتفاظه بحق الرفض! إنها تعتبر نفسها إنسانًا راشدًا كامل الأهلية؛ ليست طفلة ولا معاقة ذهنية ولا مصابة بالألزهايمر ليتم التشكيك في قدرتها على التصرف. ماذا لو كانت رغبة كبيرة ومهمة بالنسبة لها؟ هل بمقدوره حقًا أن يرفض؟ هو ليس في حاجة إلى إذن لممارسة الحياة فلمَ تكون هي بحاجة إلى ذلك؟ هذه خطوة كبيرة جدًا ومخيفة جدًا ومسيئة جدًا بالنسبة لها! غير أنها ألجمت بالكاد لسانها الجامح، لئلا ينشب شجار مبكر على علاقتهما الوليدة، ولأنها تعلم أن

الكلام لا يرسي القواعد؛ المواقف تفعل. اكتفت بمبادلته نظرة طويلة متحدية، لا تحني رأسها ولا تعلن العصيان، ليهز جلال رأسه متنهدًا:

- لا أستبشر خيرًا!

***

الفصل الرابع

التقيت مرة بامرأة عجوز، تبلغ مئة عام تقريبًا، قالت لي: «ثمة مسألتان تحاربَ البشر بسببهما عبر التاريخ: كم تحبني؟ ومن يملك زمام القيادة؟» .

إليزابيث جيلبرت.

تطالع آصال انتفاخ بطنها في وجوم وخشية، مغرورقة العينين، واضعة يدها على ما تحسبه رأس الجنين، تكاد ترجوه الرحمة! كم ستبذل في سبيل هذه التضحية التي تؤديها على مضض؟ حين تأخرت دورتها الشهرية المنتظمة يومًا واحدًا هوى قلبها أسفل قدميها، لم تكن مفاجأة؛ كانا يحاولان الحمل منذ رجوعهما معًا، لكن دون رغبة حقيقية منها، تعرف جيدًا ما هي الرغبة؛ لأنها ظلت توجس في نفسها رغبة قوية، تتكرر كل شهر، أن تُفلِت هذه المرة وحسب!

لم تحاول البحث عن نصير لرغبتها الشاذة؛ لا تقوى على الرفض علانية وإبداء الأسباب، أكثر حياءً وجبنًا من أن تفعل. لا تُفصِح عن خوفها من الأبوين المحتملين للطفل، لماذا قد تندفع إلى أذية هذا المخلوق الضعيف بهذه الطريقة؟

(ما ذنب الأطفال؟ ما ذنبنا جميعًا عدا أن آباءنا كانوا غير مسؤولين ومستهترين بالأرواح، ليسوا خليقين بالتربية على نحو صحيح وعادل، يضلون طريق السلامة النفسية للأطفال؛ جلال وأنا سنصير من هؤلاء - تربية نادرة ونسل قاسم - الشجرة المقطوعة لا تطرح!)

لا تنفي آصال أنها معجونة بالتحقق وحب السيطرة. لو وجدت في نفسها رغبة في شيء أحدهم أشار عليها به قبلاً؛ في الغالب تصرف نظرها عنه؛ إنها معضلة أن

ينبع التصرف من صميمها وحدها دون مؤثرات خارجية. وحين تفقد السيطرة بين يوم وليلة، وينحسر تقدمها بخطواته الثابتة المُخطَط لها مسبقًا بعناية وتصميم؛ لا عجب أن تتعرض قسريًا للخوف والبؤس وإفراط في التفكير.

لا تتماهى في الأساس مع التفاني المطلق وإنكار الذات وتكريس النفس للآخرين، الأمومة بمعنى أدق؛ لم يسبق لها العهد بالتوق إلى نبتة حية تنمو في داخلها، بالأحرى تستنكر ما يمثله ذلك الكائن الصغير من استحواذ تام على حاملته؛ رحمها على مقاسه، صدرها زاده، طاقاتها البدنية والعصبية والنفسية فارغات الشحن من جراء متطلباته، مأكلها ومشربها ونومها وقضاء أي من حاجاتها وقف عليه، أحلام المنام وأحلام اليقظة رهن به؛ قد يحالفها الحظ في تحققهم وغالبًا لا. ذلك التخلي المطلق عن النفس والجسد لم تحسبه مقبولاً أو ممكنًا؛ هذا قتل عن عمد!

وقد جاء مولد إسماعيل على هيئة نذير موت، بدا هذا احتمال مُرجح لمّا تهتكت أنسجة رحم أمه في أثناء خروجه إلى الحياة؛ لتوشِك هي على مغادرتها. حمل جلال الولد سليمًا معافى، فيما نُقلَت آصال فاقدة الوعي إلى غرفة عمليات مجهزة للطوارئ، تمددت نازفة على الطاولة الباردة تحت الأضواء الساطعة، لا تفي وحدات الدم حاجتها إليه، كانت تفقده بمعدل أسرع من مدها به.

جرى العمل على الخياطة وتخثر الدم على قدم وساق، يتفصد الطبيب الزميل عرقًا، موظِفًا خبرته وقدراته متقبلاً كل المساعدات الممكنة لإنعاشها؛ كيف يتحمل العمل في مكان واحد مع رجل أفقده أم ابنه، لأنه اقترف من الخطأ أعظمه لما فاجأها المخاض؛ فلم يجرِ لها أشعة سونار حديثة كانت لتنبئه بوضع الجنين الحرج والتفاف الحبل السري حول ساقه، كان ليُخضِعها لجراحة قيصرية دون تردد، غير أنه مضى يجذب الجنين بكل ما أوتى من قوة، غير عالم ماذا يجذب معه! ليفاجأ بعد وضعها الصبي بتدفق الدم غزيرًا بلا توقف.

ناشد طبيبها جلال لاستئصال رحمها دون فائدة ترجى؛ لينفرد بها الأول بعد إفاقتها بأعجوبة في الرعاية المركزة، ويصارحها مغتاظًا أن قرار زوجها كان غير حكيم وغير محمود العواقب، كاد يكلفهم حياتها لولا تدبير الله؛ لم يزل في عمرها بقية!

زال أثر التخدير لتعاني آصال الأمرين، متلوية كدجاجة مذبوحة تلفظ أنفاسًا عزيزة، لم تُجدِ أقوى المسكنات في إراحتها أو التخفيف من حجم آلامها، أبسط قدر من الحركة كان سكينًا ثلمة تشق الجرح وتدميه؛ تخيلت أنها لن تقوى على الوقوف على قدميها مجددًا، لن تفرد ظهرها، ولن تعود خطواتها إلى سرعتها الطبيعية. أصرت على الخروج من المستشفى رأسًا إلى بيت أمها رغم ترتيباتهم المسبقة لمكوث الأخيرة معهم

مؤقتًا في القاهرة، لم تطق آصال أن يجمعها وجلال مكان واحد، مشيحة النظر عنه متى مكث إلى جوار فراشها في المستشفى. ولم يمنعها، كان جلال بطبعه ميالاً إلى منح الأمور المشتعلة وقتها الكافي حتى تبرد.

مضت آصال تتعافى ببطء من جرح الجسد بمساعدة أمها، وتقطع في جرح النفس أشواطًا طويلة؛ ترى خطأ جلال أجل شأنًا من خطأ الطبيب، قامر الأول بحياتها أو إصابتها بضرر دائم في أحسن الظروف، وتعرف دافعه؛ كانت إلى الموت أقرب من الحياة، لكن كان يهمه كيف تكون حياته معها أكثر من اهتمامه بكيف تكون حياته بدونها، لم يكن ليمده رحمها الميت حينها بمزيد من الأطفال! أوجست في نفسها نحوه ضيقًا ووعيدًا شديدين؛ خاطرَ بكل شيء أو لا شيء. فماذا لو كان بحوزته كل شيء لكن لا يحصل منه على شيء؟

ابتُليت آصال بنادرة عوضًا في المنصورة. تبرع نادرة في أداء أدوار الحماوات الفاتنات، وبّختهم أولاً أن لم يسموا المولود على اسم جده المرحوم عبد الرحمن، أقسمت بأغلظ الأيمان إنها لن تناديه إلا بعبده، مُبدِية رغمًا عنها غيظًا ملحوظًا وحقدًا دفينًا على جدها إسماعيل لأنها لم تكن مدللته كحفيدته الأثيرة التي ترقد أمامها. ولم تترك آصال وشأنها داسة أنفها الطويل في كل ما يخص رعاية المولود حتى ضاقت آصال وداخلها الشك والندم، لم تحسن اختيار حصنها. عادت أخيرًا إلى بيتها مهزومة وتعبة ومشتتة.

تشتاق النوم كحبيب مغرق في الدلال والكيد، «لا أنام» لخليق أن يكون اسمًا لرواية عن امرأة لديها رضيع لا امرأة لديها ذنب. لم تفتأ تتحسر وتتوجع، مستثارة الأعصاب، منهكة القوى، خاوية، فاقدة القدرة على التحمل والأمل. لكن لا تطرف عيناها عن وجه وليدها الدائري كعجين مختمر، تطالعه مدققة، مستشفة عاطفتها المتضاربة، تنظر إليه بعين لائمة مغتاظة، لكن لا تني تقرب أنفها من زفيره الخارج لتشتم رائحة أنفاسه الممتزجة بطعم اللبن، تتأمل فمه الصغير المكتنز المنفرج على شكل قبلة مذهلة، وتمرر أناملها على وجنتيه الممتلئتين بالشهد؛ شهي! تَنزِّل عليها مع لبنها روح متهافتة خلاقة، تَودُ لو تعيده داخلها رحمةً به، لتحميه من نوبات جنون أمه وضعفها، وشرور العالم.

***

-٢-

مضى بعض الوقت وآصال آخذة في غنج النساء وبراءة الأطفال؛ الطريقة المثلى لتصويب السهام إلى الأهداف التي في حوزة الرجال، تشن هجمتها في حُلم وحكمة كأنما تترصد غزالاً، تتجنب مسببات عكارة المزاج، لا تسأل ولا تحكي ولا تطلب، تجيب وتلبي وحسب، تواظب على الصباحات الرائقة، وتُبقي نفسها على أهبة الاستعداد لليالي الخمر مهما كانت مُنهَكة أو كان مزاجها معتلاً، متحينة التوقيت المثالي لإطلاق سهمها الوحيد، لتصيد به قبول جلال عودتها إلى العمل بعد توقف عنه للوضع، ولما لم تؤتِ استراتيجيتها على مدار الأيام أُكلها، فلم تُزحزِح موقفه قيد أنملة؛ شَب الحريق في قلبها، وقامت من الرماد كعنقاء.

- قلت الظروف غير مواتية، لم يحن الوقت بعد! تحبين الرسم؟ ارسمي؛ لا يمنعك أحد، خصصي وقتًا خالصًا لكِ في المرسم هنا في البيت.

حامل لوحاتها الخشبي المُفرَغ له مكان بالكاد في غرفة السفرة يسميه مرسمًا! «النيش» الغبي عديم الجدوى يحتل مكانًا أبرح، حاولت التخلص من قطعة الخشب تلك المقدسة لدى قومها لإفساح المساحة لكن جلال أبى؛ قد دفع ثمنه مرتين؛ عند اشتراءه ثم قيمته نقدًا في قائمة طليقته، ولن يتحمل خسارة أخرى. لا تعرف ما حاجة البيوت إلى متحف مُصغَر للمعروضات

الزجاجية؛ كؤوس وخزف ممنوعين من الاستعمال يكبدان ثروة بلا داع! كذا ردت بانزعاج مضاعَف:

- هذا ليس كافيًا، ليس مرضيًا لي.

قال بصرامة:

- وليس بمبرر للزج بالطفل إلى الحضانة في هذه السن الصغيرة، بينما يمكن.. بل ينبغي بأمه أن تتفرغ له.

هزت رأسها محتجة:

- وعام كامل لم يكن كافيًا؟ موظفات القطاع الخاص يعدن إلى أعمالهن بعد ثلاثة أشهر لا غير.

لوح بكفه في ضيق:

- هل تعملين في القطاع الخاص أم تمارسين عملاً حرًا؟ لا أحب الجدل الفارغ. هل أنتِ عالمة صواريخ يا آصال؟ ليس وكأن الدنيا ستقوم وتقعد من دونك! ما أهمية هذا العمل على أي حال؟ أنتِ حتى لا تتقاضين عنه الكثير.

بهتت لوهلة ثم سألته في حزن:

- لماذا تتعمد الاستهانة بشأن ما أفعله يا جلال؟

مط شفتيه غير قادر على الادعاء:

- لا توهمي نفسك يا آصال. ليس وكأنكِ تنقذين الحيوات.

زمجرت فبدت أشبه بلبؤة مفترسة:

- الفن فعلاً ترف في مجتمع جاهل! أنا أنقذ الأرواح يا جلال؛ أرشدها إلى الجمال في هذا الواقع القبيح المحيط بنا من كل اتجاه. لا ينبغي بكل واحد في الدنيا الحصول على درجة علمية ليحظى باحترام حضرتك وتقديرك لعمله.

لوح بكفه معيدًا الأمور إلى نصابها:

- لا، لا، لن نعود إلى هذا مجددًا! لا تصدعيني وتجادلي كعادتك؛ ستموتين لو لم تفعلي، أليس كذلك؟ لكن النقاش في هذا الموضوع غير مطروح – تابع بلهجة نافذة – قلت ليس الآن، ولو زِدتِ يا آصال لن تنزلي الآن ولا فيما بعد.

انتفضت مطلقة حشرجة كالذبيحة:

- تعلم جيدًا كم أكره صيغة التهديد. لماذا تنصب نفسك عليّ حاكمًا؟ لا تتخذ القرارات التي تخصني بالنيابة عني.

- استمعي إلى نفسك يا آصال. استمعي إلى كم أنتِ لحوح ومجادلة ولا تطاقين!

طفرت الدموع من عينيها في غزارة، شاعرة بالذلة والمسكنة وهي تتمتم:

- أنا لا أطاق؟

زفر في حدة وباء بغضب على غضب:

- لو أنها المرة الأولى التي تبكين فيها لتأثرتُ حقًا!

وصالحتك كما فعلت مرارًا وتكرارًا؛ الشيء الذي يزيد عن حده ينقلب إلى ضده كما تعرفين. وحيث إنني صرت عاجزًا عن إحصاء عدد المرات التي بكيتِ فيها سابقًا؛ فسأكتفي الآن بإفساح المنزل كله لكِ، سأقصد المستشفى لربما تكونين قد انتهيتِ عند عودتي.

صفع الباب خلفه في قوة، بينما هي مقعية في جزع على الأرض. يساورها الشك والخيبة حول ما سبق له الوقوع بينهما؛ كونها عاشرته كدمية خشبية متصدية له في كل كبيرة وصغيرة، العين بالعين والسن بالسن! فها هي قد حاولت جاهدة أن تتبع الطريقة الأخرى، فلمَ من شأنها أن تكون النتيجة مماثلة؟ مع فارق بسيط؛ كانا يتخانقان ويسعى إلى فراشها في الليلة نفسها!

(كنتُ حلوة ومدهشة في عينيك، مثيرة لرغباتك في القُرب والإخضاع والانتصار، لم تعد في حاجة إلى ذلك بعد الآن. تكف عن الكلام معي لأيام، لا تنظر حتى في عينيّ، ولا تبادر بمصالحتي بطبيعة الحال؛ أعتذر حتى ترضى عني! ألأني بت ملك يمينك؛ لا أقوى ولا أجرؤ، أكتفي بالطاعة لتَمُر المركب؛ كونها تغرق «ذات الرئيسين» كما لقنتني، لا أملك غير الرد بالبكاء عجزًا وتنفيثًا عن المرجل المشتعل في داخلي)

(المرأة الضعيفة مملة ومنفرة، أليس كذلك؟)

ينزع عنها صراخ وليدها حاجتها إلى التقوقع على نفسها. لم يكد ينام لساعة! تسرع إلى فراشه الصغير،

تحمله في لوعة وسأم، تقربه إلى صدرها وتهدهده، وهي أحوج منه إلى ذلك. إشارة جلال عليها بتخصيص وقت للرسم في البيت مُدعاة للسخرية! أنى لها حتى بهذا الوقت؟

***

-٣-

تعرف آصال أنها لو غفلث بعض الوقت عن البيت لتحول إلى غابة من الأشجار غير المقلمة، تتشابك أغصانها مع وجهك وذراعيك وقدميك أينما ذهبتَ! دورة حياة النحلة أصبح جدول أعمالها اليومي في هذا المنزل. تعب دائم في معركة لا تؤدي إلى انتصار. تحاول أن تجد سببًا واحدًا وجيهًا لتقوم من مكانها وتفعل شيئًا ما دامت ستعاود العمل نفسه في الغد!

سمع جلال صرخاتها المجلجلة من الرواق، فارتج قلبه وأسرع إلى الشقة مهرولاً ومصدومًا مما لاقاه؛ آصال تبدو في حالة هستيرية، مشعثة الهيئة، رثة الثياب، محمرة العينين اللتين أدارتهما صوبه بطريقة بدت مرعبة، مشيرة إلى الأطباق الصغيرة الكثيرة التي تتحلق حولها، وإسماعيل على الأرض، فاتحة فاها لتُخرِج صوتًا متحشرجًا وباكيًا:

- انظر إلى كل هذا! أرز ومكرونة، لحم مسلوق وأصابع دجاج مقلية وسمك، بيض وبطاطس، هذه بسلة وتلك ملوخية، الأطفال يحبونها! انظر إلى كل هذا وقل لي لماذا لا يرضى أن أطعمه أو يأكل بنفسه؟ انظر إلى كل هذا وقل لي كيف أبقى عاقلة وهذا يتكرر ثلاث مرات يوميًا؟ بالمحايلة والاستعطاف والمراوغة والغصب والتهديد والضرب - أشارت إلى صدرها المغلول - انظر هنا، هذا الغضب والإحباط واللوعة..

قاطعها غير مصدق:

- أيتها المجنونة! هل تضربينه؟

حركت رأسها نفيًا مغتاظة:

- ليس بالقدر الكافي ليشفي غليلي.

أمسكها من عضدها وأوقفها على قدميها، قائلاً بغلظة:

- توقفي هنا. هل تدركين ماذا أنتِ فاعلة؟

دفعت يده غاضبة، وترنحت قليلاً بينما تبتعد لتُبقي بينه وبينها مسافة كافية لا تدفعه للإمساك بها ومقاطعتها، لديها كلام كثير تود قوله، كلام جاد رغم مظهرها الهزلي.

- ماذا تفعل أنت؟ لا تقاطعني. هل ستسدي لي النصائح؟ احتفظ بها لنفسك. أنت متغيب لثلاثة أيام، أصبح وجودك أمرًا غير معتاد. تعود متعبًا لا تود أن تشارك في شيء ولا أن تتكلم في شيء ولا أن تستمع لشيء. أنا لا أريد أموالك التي تذلني بها كلما طلبت مساعدتك، لا أريدك ممولاً، كن أبًا وزوجًا على قدر المسؤولية؛ أنصت حين أتكلم، وانظر معي إلى هذا المكان الذي لا يود أن يراني جالسة للحظة؛ دائمًا ثمة غسيل بحاجة إلى التنظيف والكي، أدوات الطعام تتكاثر ذاتيًا حتى لو طلبنا الطعام من الخارج! السجاد والستائر وسور الشرفة والمقاعد والأسرة.. كل شيء، كل شيء بحاجة إلى تسوية وتلميع وكنس ومسح؛ لا ألبث أن أنتهي من شيء حتى أبدأ في آخر وإن أنهيتها جميعًا

أجد أن عليّ أن أبدأها ثانية! وأنتَ لا تساعد أبدًا؛ ترمي ملابسك وأحذيتك دون اكتراث في كل مكان، لا تستعمل الحمام إلا وقد بقرت بطنه. لماذا لا تعفي الخادمة لمرة وتعيد شيئًا إلى مكانه؟ فرشاة أسنانك وماكينة الحلاقة والمعجون والمعطر ومزيل العرق والمنشفة، ناهيك بأدوات الطعام، كل شيء، كل شيء حولي يتداعى، بغير جدوى مهما بذلت. أنا عديمة الجدوى! لا أحقق شيئًا. هل تتحمل أن يمر عليك يوم واحد دون أن تنجز شيئًا رغم أنك تقتل نفسك جهدًا؟ أنا...

- أمرك غريب! هذا واجبك. ماذا تريدين أن تفعلي إذن بحياتك؟ أنتِ لا تعملين.

- من المسؤول عن كوني لا أعمل!

كانت قد استنفدت ما تبقى من طاقتها الهزيلة، وكادت تقع أرضًا من فرط الإرهاق والحزن واللوم. تلجلجت وحاولت جاهدة أن تستمسك بسبيل إلى الراحة، تريد التقاط أنفاسها، تريد تذكرة بأسباب بقائها بعد على قيد الحياة. قالت عازمة:

- لا بُد أن أخرج. أريد أن أسير وحدي في الشارع وأبكي كثيرًا، هلا جالسته؟ إنه في عهدتك.

أسرعت إلى دولابها لتغيير ملابسها فتبعها ممسكًا برسغها بقوة، وصاح في حدة:

- ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ لن تخرجي إلى أي مكان

يا آصال. توضئي وصلي ركعتي شكر لله على نعمة الزوج والطفل اللذين تتنكرين لهما وتضيقين بهما.

حدقت في وجهه مصدومة. بعد كل ما قيل! قُدَ قلبه من حجر. قلق من سكوتها ونظرتها الذاهلة وحركتها الهامدة فألان القول:

- أنتِ زوجة وأم يا آصال. وهذه حال كل النساء، إنها فترة مؤقتة ولن تلبث..

صاحت فجأة بصوت غليظ متفجر حتى إنه جفل:

- إياك! لا تقل لي هذه حال كل النساء؛ هذا لا يجعله أسهل. كلنا بلا استثناء نموت. هل هذا يجعل الموت أسهل؟ هل يجعلك أكثر رغبة فيه؟ سأنزل يا جلال وإلا سأموت بحسرتي الليلة. إنه قرارك.

- هذا ليس حلاً يا آصال – تنهد متعبًا وقال مضطرًا – حسنًا. يمكنك العودة إلى العمل.

انفرجت شفتاها وبرقت في عينيها نظرة ممتنة غير مصدقة، مسرعة إلى ضمه ودفن رأسها في صدره كقطة طال مواؤها، غير أنه لم يبدُ سعيدًا وهو يحيطها بذراعيه على مضض؛ كان يشعر بشيء من القرف والاستياء وأنه قد لويت ذراعه، لم يحب ذلك الشعور، ولم يتوقع أنه يستطيع الاستمرار طويلاً في التعايش معه.

***

-٤-

تمكنت آصال بعد محايلات عدة من إيداع إسماعيل في فراشه، مُفسِحة مكانًا لها على ساقي زوجها، جالسة في وضع احتضان غير متبادل، جسد جلال متخشب ونظره مُحجِم عنها؛ رفعت عينيها إليه منزعجة، تخاطبه بحاجتها إلى إعارتها بعض الاهتمام الذي يولي مثله لعمله، بالكاد يستعملان لغة الكلام! يفتقران إلى الأحاديث التي تجرهما إلى مشاركة أحدهما الآخر عن يومه؛ جلال لا يجد ما يثير اهتمامه لدى آصال، فلا يسلم لها أذنه، ويضن عليها بما لديه (يطول شرحه يا آصال! لن يفيدك في شيء أن تعرفي). تشعر بالإهمال يزحف كأسراب النمل على علاقتهما ويجرها إلى سبيل لن يحبه أحدهما؛ جحر خنيق معتم.

انفجر جلال في ثورة مفاجئة مُعبأة بالاحتقان الطويل؛ لتفزع آصال وتهب من جلستها مبتعدة عنه أمتارًا.

- ماذا عني؟ أنا آخر همك يا آصال. جف ريقي! طلبت منكِ صباحًا كي قميصي فنسيتِ، فقلت لا بأس، سألبس ما لبسته أمس، ورجعت آخر النهار فطلبت ثانية، لم تفعلي أيضًا، ففعلتُ أنا! والماء الذي أطلبه منكِ الآن منذ نحو نصف ساعة لو كنتُ تائهًا في الصحراء لعثرتُ على بئر!

- ها أنت تفعلها ثانية وتحول كل حوار حقيقي بيننا

إلى مطالبة بحقوق نفعية، وتتجاهل ما أطلبه بدوري، بل وتقارن هذا بذاك كأنهما يحوزان الدرجة نفسها من الأهمية! تنحصر مشكلاتك في العطش؟!

اتجهت بخطوات غاضبة سريعة إلى المطبخ، صبت كوبًا من الماء وعادت به إليه، يستبد بها الضيق:

- ها هو كوب الماء. تفضل. هنيئًا مريئًا. أمكنك أن تحضره لنفسك أيضًا لعلمك، ولن أكون حينها مقصرة، إنها أبسط قواعد الاعتماد على النفس.

ترك يدها الممدوة إليه مُعلَقة، وقام فزًا من مقعده، يصيح ملء حنجرته مُغلِظًا صوته:

- هل تعلمين ما هي مشكلتي؟ أنني رجل بسيط، غاية في البساطة، لا أطلب الكثير، وأنتِ في غاية التعقيد، تطلبين أكثر مما ينبغي.

هتفت دامعة العينين، تمسد فم معدتها، توشك على القيء:

- لا ترفع صوتك هكذا؛ توسلت إليك مرارًا لا تفعل مثله، تعلم جيدًا ماذا يصيبني!

زفر جلال حانقًا، ابن سبعة؛ غضوبًا كفتيل متفجرات سريع الاشتعال، ضيق الخلق، نفسه أقصر من احتمال حماقة المراهقات، لقد كبرا كفاية ليتجاوزا هذه المرحلة! فورة الشباب خلفاها وراءهما. لكنها لا تني تنبش عن المشكلات كإبرة هزيلة في كومة قش. يشك أنها تعرف كيف تستقبله دون أن تصب على رأسه وابلاً من

الاتهامات: لا يهتم لسلامتها حين حاول الحفاظ على رحمها، لا يساعدها في شؤون المنزل وإسماعيل، كأنما هو مطالَب بذلك علاوة على تأمينه حياتهم! كأنما لا يكفي كل الجهد الذي يبذله خارج البيت! يميتها ببطء في المنزل دون ممارسة الشيء الذي تحب، يفعل كل شيء سيئ! وقد تكفل بأمر العمل وسمح لها بالعودة إليه بعد تلك الحالة الغريبة التي كانت عليها، ألا يشغلها كفاية؟ ما جدواه إذن؟! لا شيء يبدو أنه يعجبها. هل باستطاعتها ألا تكون متشكية ومتطلبة وتتركه وشأنه؟ (أنتَ لا تتكلم معي.. أنت لا تخرج بصحبتي.. تقضي جل وقتك في العمل) هذا ليس بجديد! هذا ما هو عليه منذ البداية، لم يضحك عليها. ثم تجر عليه الآن تلك التهمة النكراء!

- منذ أكثر من عشرين عامًا، تعرضتِ لإساءة المعاملة لمدة... لنقل بضعة أشهر. لماذا تمضين في حياتك كأنما ما زلتِ تفعلين؟!

اتسعت عيناها مأخوذة بالصدمة، متسائلة في مرارة:

- بضعة أشهر! هل تقيس الألم بالفترة الزمنية التي استغرقها ليقع؟

- بل أقيسه بالفترة التي استمر عليها.

- حسنًا. إنه مستمر، إنه ما زال واقعًا. تخيل طفلاً فقدَ والده وأمه حامل بعد فيه ثم ماتت وهي تضعه؛ هذا الطفل الذي لا يحمل أي ذاكرة عن والديه تراه لن يشعر

باليتم طيلة حياته؟ المشاعر ليست مرهونة بزمن ولا بوجود الشخص الذي سببها من عدمه! وهذه المشاعر تجعل مني الشخص الذي أنا عليه اليوم. اقبل ذلك أو ارفضه لكن لا تنكره.

- لا أقبله إذن يا آصال؛ الشخص الذي أنتِ عليه اليوم يشعر بالاضطهاد طيلة الوقت، لا يعقل كلما زعقت تقولين لي أنت تذكرني بأبي! الناس كلها تفقد أعصابها وتستعمل صوتها للتعبير عن غضبها حتى لا تنفجر من الغيظ. حين أغضب منكِ لن أكتب لك جواب عتاب! أفيقي. أنا لست مثل أبيكِ وأنتِ لستِ فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، أنتِ امرأة ناضجة، يحسن أن تتعلمي كيف تواجهين المشكلات التي نتعرض لها دون أن تحوليها في كل مرة إلى عقدة طفولة لست مسؤولاً عنها ولن أقضي عمري كله أكفر عنها! انضجي. ستحيلين حياتنا إلى جحيم لا يطاق لو واصلتِ ذلك. في مرحلة ما عليكِ التوقف.

انتحبت عاجزة عن ابتلاع غصة حلقها. يقف أمامها كمارد جبار لا يعرف الرحمة، يصب عليها سياط عذاب. ضغطت على الحروف بقوة، تُفخمها وتعطيها معاني عملاقة:

- عقدة طفولة! أبي حاول قتلي. هل تفهم؟ أسقطني متعمدًا من الشرفة. هذا حدث جلل لا أرى كيف من الممكن تجاوزه!

- هذا ما يصوره لكِ خيالك. لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك. كم مرة سأقول لكِ ذلك بعد؟ لو أنه أمسكك من قدميك كما تزعمين وألقاكِ من الشرقة لسقطتِ على رأسك ومتِ في الحال. لقد سقطتِ على قدميكِ يا آصال. أنتِ قفزتِ.

- أنت لم تكن موجودًا لتجزم! لماذا لا تريد أن تصدقني؟ هذا مؤلم أكثر.

أوشكت أن تزيح شعرها لتبدو جبهتها أمام ناظريه جلية، ناصعة، بيضاء من غير سوء؛ تتكفل عنها بإخباره الحقيقة، مؤكِدة أنها لا تعرف للكذب طريقًا. تراجعت مُحبَطة في اللحظة الأخيرة عن انسياقها خلف حكايات الأطفال الشعبية؛ الآن وقد كبرتْ، ليست ثمة طريقة تبرهن له على صدقها! لتمنعها أمها من لوك القسم بالله في فيها وهي بعد صغيرة؛ أخبرتها أن الله يفضح الكاذب بين الناس فيسود جبينه؛ لتتحمس آصال لفكرة أن الحق بيِّن، فتسارع في أي مناسبة تتعرض فيها للتكذيب أو على الأقل للتقرير؛ وترفع غرتها عن جبينها في ثقة، عالمة أن الله سيُظهِر براءتها وقولها الصدق. تقول:

- انظري إلى جبيني يا ماما، أبيض أم أسود؟

تبتسم روحية وتعرف يقينًا أن الناطِق بالحق صوته قوي لا يرجف، عينه ثابتة ومُلحة. تنظر إلى جبين ابنتها وتجيب:

- أبيض ناصع يا آصال. صدقتِ.

استطردت آصال بصوت غليظ مُشبَع بالحقد:

- كنا نلقى الأمَرّين، ولو توافرت الظروف المناسبة لاستمر في البطش بنا، لجرى لنا الأسوأ، لكنتُ ميتة الآن بالفعل!

هز رأسه يائسًا ولاذ بالفرار إلى غرفة النوم:

- أنتِ مُتعِبة، لا تريحيني أبدًا، التعاطي معكِ يستنزف أعصابي.

يقطع جلال الأحاديث في منتصفها، يتركها معلقة دون أن يصلا إلى وجهة يرضيان عنها، يسأم سريعًا من الجدل، ويفر من الحلبة محافظًا على الرمق الأخير من ثباته الانفعالي؛ تُصدِّر آصال له طاقة سلبية غير عادية، عدائية وقلقة وحرون، تعشق تضخيم المواقف! تركها تكاد تنفجر من الغيظ والبكاء.

بأكثر من طريقة، لا يفضل جلال أن تخوض فيما مضى. ليست سابقة! باتت تعرف أنه يُسكِتها ويُغالِطها ليس خوفًا على مشاعرها أو تخفيفًا من هول التجربة عليها، بل تطيرًا ككل مما تقول؛ لا يود أن يرى رمزًا راسخًا يسقط ويهدم، تمامًا كما روع العرب سقوط تمثال مجرم الحرب صدام حسين، واستنكارهم إعدامه في عيد الأضحى كالخراف، رغم كل ما جنته يداه؛ رمز رب البيت في مجتمع أبوي ليس بهين! ذات موقف جلال من ٢٥ يناير؛ عزيز القوم لا يُذَل! على عِوج

السُلطة يجد القيام عليها عقوقًا! كان حانقًا ومعاديًا ولم تهدأ نفسه ويرتح بالاً إلا بتسلم الجيش المقاليد؛ عادت الأمور إلى نصابها واعتلى الكبار.

حظر عليها أن تشارك للحظة في الإسقاط، ولو بإبداء الرأي، أبعدها كليًا عن ذلك الحدث الجلل في تاريخ جيلها، وقد أحرقتها رغبة النزول للهتاف ورسم الجرافيتي واقتلاع الراعي غير الأمين على رعيته. وحين صدت قمعه لصوتها، أخبرها أن دافعه ليس عدم موافقته على توجهها، بل لأن ذلك المجال لا يليق بالنساء، ومن نزلن منهن سمحن بأن يُنال من سمعتهن وتثار حولهن شبهات الانحلال، مدللاً بكشوف العذرية! قد نسيث أن صوت المرأة في هذا البلد ليس عورة حين تزغرد في محل مصوغات وصالون تجميل وقاعة فرح؛ ليس عورة حين تنوح وتولول في المقابر والمآتم، ليس عورة حين تتشاجر مع جاراتها وبائعي السوق، لكنه عورة حين يرتفع بالحب أو الغناء وحين تستعمله في السياسة والحقوق؛ مجتمع متدين بطبعه! ما ظهرَ من الدين ولا يهم ما بَطَن.

تستجمع شتات نفسها وتُهدِّئ من روعها رويدًا رويدًا، تعرف ماذا سيحدث تاليًا، ستعرض الصلح وإن كانت في صميمها مُخاصِمتُه؛ لن تدعه يصيب مشاعرها ناحيته بضرر بالغ وربما دائم. لن تحتمل أن تكرهه، عدد أحبائها لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة بل هم أدنى، تحتاج إلى التشبث بالحب والتسامح، لا تريد أن تستمر في العيش

في غضب ونقمة؛ يكفيها ما تغالب من مشاعر متقلبة إزاء جلال في الأوقات العادية، دون أن يكون له بالضرورة دخل مباشر فيها؛ تشعر بعاطفة جارفة حياله كأنما تحبه أكثر من أمها - حبها الأعظم - ثم في لحظات صفو عادية لا تطيقه أمام ناظريها، بدرَ منه ما يسوؤها أم لا! ترنو إليه هائئة بوجوده في حياتها، لا تصدق عطايا الدنيا الكريمة، لكن لا تمر لحظة وجيزة إلا وتود لو ترجع حياتها بدونه! تشعر بالتمزق وانعدام السكينة، كأن قوة نسائية قائمة بذاتها تتصارع بضراوة في الداخل، تنظِم نفسها اتحادًا على كل الأشخاص من حولها، تحاول أن تبعدهم عن طريقها.. تسمع صوتًا داخليًا ممتلئًـا عزيمة ومقاومة:

(لستِ بحاجة إلى أحد، أنتِ بحاجة إلى نفسك)

***

- غريب يا أستاذة أنكِ لم تتخرجي في كلية الفنون الجميلة ورغم ذلك أنتِ بارعة في الرسم، حتى اتخذتِه عملاً.

كانت قد فرغت من الورشة وشرع المتدربون في لملمة حاجياتهم استعدادًا للرحيل، ليفاجئها أحدهم بسؤاله ذاك الذي لم تغفل عن احتوائه على قدر كبير من التفخيم والتودد. استطاعت آصال من الحصص السابقة التي جمعتها بذلك الشخص أن تعرف أن طريقته في معاملة النساء فيها من المجاملة والمبالغة ما لا يُحتمل، تلحظ كيف يتحدث إلى زميلاته، وقد أدار الدفة في اتجاهها هذه المرة، غير أنه اختار تحديدًا مدخل حديث محببًا إلى نفسها، فلم تستطع الإجابة باقتضاب.

- في الحقيقة، لظروف ما أخفقت في الحصول على المجموع الذي يؤهلني للالتحاق بالفنون الجميلة، فضلاً على أن ظروفنا المادية لم تكن لتسمح لي على أي حال؛ الدراسة مكلفة. اضطررت لتقديم أوراقي بكلية التجارة.. كلية الشعب! كنت بحاجة ماسة إلى العمل، اشتغلت بالمحاسبة في عدة أماكن ولم أزل بعد طالبة. قصر ثقافة المنصورة ساعد ألا تنطفئ شعلة الفن في داخلي. أدين له بفضل عظيم، بعد ذلك تمكنت من التدرب على الرسم في ورش فنية كهذه، حتى أصبحت بدوري مدربة، كهواية ونشاط فرعي إلى جانب عملي

في المحاسبة الذي تركته بعد الزواج، متفرغة للتدريب، أصبح عملاً بدوام كامل.

تنهدت والتوى ثغرها بابتسامة متواضعة نسبيًا، مستطردة:

- هذه قصة كفاحي لو صح تسميتها بذلك.

- قصة رائعة وملهمة كصاحبتها.

حرك الشاب رأسه متصنعًا التأثر، مغازلاً بطريقة بدت مخنثة:

- اسمحي لي أن أقول لك يا أستاذة إنكِ جميلة ورقيقة، وكذلك رسوماتك تنم عن الجمال والرقة حتى لمن لا يعرف صاحبتها، سيشعر بذلك.

- آصال!

كان جلال واقفًا على بعد متر منهما، حاد النظرات، متجهم الوجه. ازدردت لعابها بصعوبة، ومدت يدها إلى حقيبتها دون أن ينبس أي من ثلاثتهم بكلمة واحدة. صاحبته في الطريق إلى الخارج حيث استقلا سيارته في صمت تام من الجانبين.

استهلت آصال الحديث بعد الصمت المطبق الذي رافق رحلة عودتهما إلى المنزل، سارعت بالتبرير حتى تقطع الطريق على الملامة ونذير الغضب الذي تراه ملتمعًا في عينيه.

- إنه متدرب لديّ أصغر مني سنًا، لا يزال طالبًا في

الجامعة، وهذه طبيعته، مجامل للغاية ومعسول اللسان مع الكل ليس معي وحدي.

أردفت ملوحة بيديها، مشيرة إلى حملها، في محاولة أن تربح النزال من الجولة الأولى:

- وبطني المنفوخ هذا كملامح وجهي، هل تظنه لم ينتبه لذلك؟

انتفض من الغيظ وصاح بنبرة عالية أخرستها وأدمعت عينيها:

- أنتِ غبية! وهل أشكك في إخلاصك لي؟ أنا أثق بكِ ثقة عمياء، لكنكِ لم تحترميني يا آصال، عمدتِ إلى الإساءة إليّ ومضايقتي. لم أكن أعرف أن عملك هو الدردشة مع الرجال – تابع مستهزءًا - ولم أكن لأعرف لولا أن سيارة سيادتك معطلة اليوم وفكرت أن أمر عليكِ لاصطحابك بدلاً من اضطرارك للمواصلات وأنتِ حامل. شهامتي أسدت لي معروفًا كما يبدو.

أطرقت مقرة بذنبها تستجدي رحمته وتُقصِر الشر، تمتمت مستعطفة عساها تُمنح عفوه:

- لم أقصد أن أسيء إليك البتة يا جلال. لن يحدث هذا مرة ثانية. أعدك بذلك.

هز كتفيه بلا اكتراث، وقال بلهجة جامدة:

- هذا لا يهم الآن، لأنه لن تكون هناك فرصة ثانية لحدوث ذلك. لن تستمري في هذا العمل.

هتفت مفزوعة، تكاد تصرخ من اللوعة واليأس، موقنة أنه قادر تمامًا على تنفيذ وعيده في التو.

- لا! لا! أنا في أمس الحاجة إلى العمل الآن، أرجوك يا جلال لا تقصر دوري على المنزل، سأكره نفسي! هل ترضى أن تعمل حمالاً أو عامل نظافة. هذه أعمال لا يزاولها غير المضطر، فما اضطراري إلى حصر نفسي وتكريس حياتي للنظافة؟

التوى ثغره مستهزءًا:

- النظافة من الإيمان.

انتفخت أوداجها وزعقت:

- لا تفقدني عقلي! حبًا بالله، البقرة تحرث الأرض وتنجب وترضع. أريد أن أقوم بشيء جدير بالذكر ليس بوسع أي كان القيام به.

مط شفتيه قائلاً بلهجة حاسمة وباردة:

- الأمر منتهٍ يا آصال، لا تراجعيني. أنا هادئ تمامًا وأقدر وضعك وإلا كان لي تصرف آخر، فكفاكِ كلامًا حتى لا أفقد أعصابي. لن تحبي ذلك.

فغرت فاها مغرورقة العينين، تحدق في ظهره الذي أولاها إياه بينما يبتعد عن ناظريها. تشعر أن مبنى يناطح السحاب رفعته عاليًا بيديها ينهار الآن أمامها ويعمي عينيها التراب المنبعث من أنقاضه. بإمكانها أن تفرض رأيها وتسيِّر رغبتها لكنها تعلم وكلها حسرة أنها لن تفعل وإلا ستهدم المعبد فوق رأسيهما مرة ثانية

وأخيرة. يجيئها بالأمر المطاع فتمتثل، ولا تستطيع أن تزيد حرفًا عما قال، يطغى على رغباتها ويشكل مشاعرها كما المادة الخام. لمَ يسبقها دائمًا بخطوة؟ ويحفر لقدميها بين خطوة وأخرى فخًا لعلها تهوي ويتهشم عنقها من الجذور؟ لا تنسجم البتة مع انسياقها هذا خلفه، تكره ذلك الشعور الذي يتسرب إليها في حضوره، تبغض تسارع أنفاسها وازدياد معدل ضربات قلبها، تزدري الضعف الذي ينضح من عروقها أمامه.

(أحتقر مقدرتي الهزيلة.. وأحتقرنى. أريد أن تلفح الشمس وجهي، وتتجمد أطرافي من الصقيع، أريد أن أقتفي الأثر في صحارى إفريقيا، وأتزلج على ثلوج موسكو. لكن لا! لا أتخطى موطئ قدميّ، لا أسعى إلى معرفة جديدة، لا أمارس الشيء الذي أحب، لا أخرج إلى العالم والثقافات والحضارات والمجتمعات المتباينة؛ «إنا خلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا». نحن قوم نأكل ونشرب وننام ونقضي حاجتنا ونتكاثر؛ ألا إن الحيوانات في أقفاصها لا تفعل أكثر من ذلك!)

***

- أرجوك يا جلال، لا تضغط عليّ. الوقت ليس مناسبًا، وبصراحة..

استطردت مترددة، متخوفة من ردة فعله التي تحفظها عن ظهر قلب حين تخالفه الرأي:

- يحق لي الرغبة في فعل ذلك من عدمه.

حدجها بحدة ورفع صوته محتجًا، رافضًا رفض قاطع:

- هذا ليس شأنك وحدك لتنفردي بالقرار.

عقدت ذراعيها على صدرها وأومأت مؤكدة، في عينيها يلتمع مزيج من تحدٍ واستياء:

- صحيح. فسر لي إذن لماذا تتخذ الكثير من القرارت المشتركة وحدك مثل السفر الذي تمنعني عنه وجلوسي في البيت غصبًا واقتدارًا، وهلم جرًا. المطلوب منك أن تكون عقلانيًا ومتفهمًا، تعرف أن الحِمل كله يقع على عاتقي. يجب أن أكون على قدر المسؤولية، وأنا لستُ كذلك. على الأقل انتظر حتى أتعافي من الجراحة.

- أنا طبيب وأؤكد لكِ أنكِ معافاة تمامًا ولن يشكل الحمل أي خطر عليكِ.

- لستُ ماكينة للإنجاب، لستُ آلة لفرز المواليد دون هوادة! بعض الرحمة لن تضر.

مط شفتاه في امتعاض ونفور:

- أنتِ أصلاً لم تريدي لذاك الحمل أن يتم، ولم تكلفي

نفسك عناء ادعاء الحزن. لقد كان حيًا وقلبه ينبض! ومات. ابنك مات ولم تتأثري، لم تذرفي دمعة بينما تبكين لو احتر الجو وتعرقتِ!

تنحنحت مبرئة ساحتها من الذنب:

- لم أرده في ذلك الوقت. الأمر مختلف.

قد شعرت صدقًا ببعض الارتياح والامتنان لحكمة الأقدار؛ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ كان الحمل خطوة مستعجلة بينما إسماعيل لم يتم عامه الثاني بعد؛ لقصرت في حق كليهما لا محالة. هذا لا ينفي أنها كانت تجربة صعبة ومحبطة، استنزفت مشاعرها ودماءها وآمالها، عانت الأمرين ونالت حصتها كاملة من الألم، شقوا بطنها في محاولة لإنقاذه. جلال محق، ربما لم تشعر بالفقد؛ هي لم تملك! غير أنها تصحو مرتعبة لكابوس هاجم منامها عن أذى ألحق بإسماعيل أو خاطر مفزع ينذر بالخطر والشرور التي قد يتعرض لها؛ تبسمل وتحوقل وتدعو الله أن يحفظه؛ هذا ابنها رأته ولمسته وأحبته. لا تعرف كيف تحب غير ذلك. تستهجن قدرة جلال على حب الأجنة! كان يمضي في الحديث إلى إسماعيل وهو بعد في بطنها، يحكي الحواديت ويغني ويتلو قصار السور، وكذلك فعل مع الجنين الذي أُجهِض، احتفى بمقدمه وبكى كما لم تره قبلاً حين لم يأتِ.

تطلعت آصال إليه مليًا وواجهته بذنبه كما يواجهها:

- قد عرفتُ من نادرة أنك طلقت زوجتك الأولى لأنها

كانت عاقرًا. يبدو جليًا لأي غاية تزوجتني.

طالعها بنظرة طويلة يائسة، ثم زفر قائلاً:

- أولاً، أعفتني ريهام أن أكون نذلاً لأطلقها لهذا السبب، تعرفين أنني لا أحتمل أن تسيء امرأة إليّ؛ وقد جُنت ريهام حين اكتشفت عقمها - تابع متهكمًا بكلمات هي كالحجارة أو أشد قسوة - ولو كان كلامك صحيحًا يا آصال ما تزوجتُ بامرأة في سنك؛ تقتربين من الأربعين بسرعة الصاروخ! نحن نسابق الزمن.

استشاطت غضبًا واحتشدت في عينيها الدموع على الرغم منها، ثم قالت ساخرة وكلامها يقطر حقدًا ولومًا:

- وما دام مضى عمري هكذا حتى كدت أهرم، لماذا لا أسابق الزمن في الأشياء الأخرى التي أريد أن أفعلها قبل أن يداهمني الموت؟ أريد أن أسافر خارج مصر، ألقي نظرة على العالم ثم أعود إلى مكب القمامة هذا. لماذا لا تتعارض ظروفك المادية مع الإنجاب وتتعارض مع كل شيء آخر؟

قبض على كفيه بشدة وهو يزوم:

- صه، اسكتي. اربطي لسانك الغبي هذا.

لم يكد يخطو مبتعدًا حتى عاد إليها نافر الأوردة، يزفر متوعدًا:

- كثيرًا ما تحضينني على العدول عن تفكيري في مسألة ضرب المرأة.

***

زوجي العزيز جلال:

أكتب إليك لأنك لا تسمع سوى نبرة صوتي حين أخاطبك، تصغى إلى كيف أتكلم لا ماذا أقول؟ تنهرني وتقاطعني لأُحسِن القول، وتعد كلامي في أحسن الأحوال فارغًا، ما دمت لا تستمع فاقرأ، لعل ما أود قوله ولا أستطيع، يصل إليك!

لماذا هو أمر عادي أن تخرج عن شعورك معي في حين أنه ليس كذلك بالنسبة لي؟ تقول: «لقد خرجتُ عن شعوري». هكذا؟ ببساطة!

لمَ لا تقيم الوزن وتحسب وتفكر ألف مرة كما عودتني أن أفعل، اتقاءً لأثر فعل أو قول يبدر مني، لمَ المراعاة حكرٌ على نفسك وإحساسك؟ كأنما ليس لشأني ومشاعري اعتبار! كأنما لك الحق وحدك أن تغضب وتثور وأن تعبر عن غضبك وثورتك بشتى الطرق، لقد هددتني مؤخرًا بالضرب! والله أعلم هل ستفعلها؟!

لماذا في رأيك نزلت آية صريحة نافذة في كتاب الله «وعاشروهن بالمعروف»؟ وقال رسول الله: «رفقًا بالقواريرِ»، وأوصى بالنساء خيرًا. لأنكم قادرون على غير ذلك؛ الاستضعاف سمة أصيلة لدى الأقوياء. هل تفهم قصدي؟ لن ترفع السلاح على شخص أعزل، أليس كذلك؟

تتنهد آصال، وتنظر بعين غير راضية إلى رسالتها ثم

تقوم بتمزيقها.

(ربما في الآخرة العليا الناس كأسنان المشط، لكن في الدنيا الناس يكونون بنفس الدنو، لا يرفع بعضهم عن بعض العمل الصالح بل الأرزاق. انظري من حولك يا آصال! الناس ليسوا أيضًا سواسية. الأرزاق تفرق بين الناس؛ الأغنياء في الكفة الأثقل، يشترون بأموالهم العلم والكراسي والجاه والعيشة الرغدة والعزة، ويشترون نقائصهم وما لا يستحقون، لكنكِ حتى لو تملكين ما يملكون وأكثر لا تطب كفتك؛ المال الذي يرفع الناس عن الناس درجات يعجز عن رفعة المرأة، ليس بطاقة عبور لها لكل شيء... الجنس رزق!)

***

إضاءة الغرفة ساطعة، كقرص الشمس في منتصف الظهيرة، جلبة المارة في الشارع تصك مسامعها في وضوح يصعب معه التركيز في شيء آخر. دون مقدمات، جرها من المطبخ بمنامة مهلهلة؛ يختار أصعب الأوقات. لو مانعت يزدريها ويقول بملء فمه: «نكدة»! تذوب في حرج عظيم؛ لم تعنَ بجسدها منذ مدة، فكم فعلت! ثم ملت؛ مجهود مؤلم سُدى! رائحة الطبخ في ملابسها تشتتها، لا تحاول أن تفك شعرها المضموم في كعكة، مستحيل أن تشعر بالإثارة الآن، ليس وكأنها معتادة أن تشعر بها في كل مرة، لكن مؤكد أنها لن تفعل هذه المرة.

كانت تواظب على ارتداء الملابس الداخلية الرفيعة التي أصابتها مؤخرًا بحكة شديدة لاهبة، وتزيل الشعر الزائد بشكل دوري معرضة بشرتها للالتهاب، لكنه نادرًا ما يخلع ملابسها، لا تأتي لها فرصة الشعور بجسدها، لا تشعر أن لها دخلاً في إثارته. كانت مواقعتهما تشعرها في البداية أنها حلوة ومرغوب فيها، تحس أنه معجب بها، متلهف عليها، يود أن يضمها ويقربها إليه، ثم لاحظت أنه لا يبدر منه ذلك إلا في الفراش، حين يكون في حاجة إلى قضاء وطره؛ يجاري الشهوة لا العاطفة.

حتى فترة قريبة كانت ترطب شعرها بمستحضرات مستوردة وتمشطه بكثرة وتتركه مغناجًا على كتفيها،

لكن أصابعه لم تتخلله قط، تشك أنه يميز إن كان ملمسه حريريًا أو خشنًا، لن يهتم. لم تنِ رغم حساسية صدرها ترش العطر وراء أذنيها وحول عنقها وجيدها وكتفيها؛ كانت تحضر نفسها لقبلات دافئة مسترخية وحركات أنامل بطيئة، ثم لا يمهدها للقائه، ويتجه كله، بكامل حواسه وأطرافه إلى مكان واحد في جسدها، مكانين على أقصى تقدير، في كل مرة؛ ينصب شباكه حول مصب غريزته.

بات وزنه ثقيلاً وهي في كامل انتباهها، تشعر بلحمها يُنهَش، وتسمع صوت الالتهام، تجز على أسنانها وتشعر بالقرف، وتستميت في المقاومة لئلا تدفعه عنها، تكاد تطفر الدموع من عينيها. لم يقدر ما كانت تبذله للقائه ولم يبذل شيئًا في المقابل؛ ينتظر بدلاً أن تتجاوب بصوت عالٍ، متناسيًا تقديسه المنيع لحيائها، فتشق الآهات حنجرتها غاضبة مشمئزة، وتخور كبقرة تُذبَح، حتى يشبع ويرتوي، ويتركها لا مستثارة ولا منتشية، مجرد وعاء يُفرِغ فيه ماءه، في حال احتقن!

ولا يحب أن تدعوه إليها، يجزع، ويكشر عن أنيابه إن كانت البادئة! لا تعرف ما علة ذلك؟ وقاحة ربما أو قلة حياء في نظره! لمَ يصم فطرة طبيعية في النساء كما الرجال؟ يشعِرها بالعار من غريزة إنسانية وترجمة طبيعية للحب. تذكر المرة الأولى التي أنكر عليها حقها ذلك كأنما هي مومس يشمئز منها؛ طالعها غير مصدق وهتف بما أجهز على رغبتها وأبكاها لأيام حسرة ومذلة:

- لم يكد يمر وقت طويل على آخر مرة!

هو وحده يقرر متى تكون المرة التالية.

***

فرغت آصال من المقاومة، استُنزفت حتى الرمق الأخير، تود الراحة والإذعان، تشعر برغبة صادقة في الاستسلام، كغريق يُنزِل ذراعيه المتشبثتين بالنجاة وتكف قدماه عن الحركة، ويترك جسده للأمواج تتقاذفه والبحر يبتلعه إلى الأعماق، يهبط، ويغوص حتى يلمس القاع.

وصل العمل المنزلي بها إلى حد الهوس، تأمر جلال بغلظة أن امسح قدميك، لا تلمس هذا، ضع ذلك في مكانه، لا تجلس هنا، تطرده أحيانًا من المنزل لتنظف. فقدت بهجة الحياة، لم تعد تجدها ذات مغزى، جافة، قاسية، غير عادلة أو مرضية؛ ما تقوم به كله بغير جدوى، مجهودها ووقتها وأملها مكرس لما هو عام وتافه وزائل؛ يختفي أثره والتعب الذي استلزمه؛ الغرفة تتسخ والملابس تتسخ والأطباق تتسخ، والطبيخ ينفد!

يبدو وجهها منهمكًا، حاجباها منعقدان، ثغرها ملوي، ولسانها معقود. مُنهَكة، دائمة التأهب، تغلق النوافذ، تطرد الضجيج والهواء الذي يصحبه الذباب في النهار والناموس في الليل، الشمس كذلك تأكل قماش الأرائك وتضوّع الغبار؛ لا مكان لها في المنزل، تحكم إسدال الستائر. تكيف البيت الجامد صيفًا وتدفئه في الشتاء.

تبلغ حالة من الفراغ الذهني، ملل، رتابة، آلية، والكثير من فترات الانتظار؛ تنتظر البواب يحضر لها طلباتها من البقالة والخضري والجزار، تنتظر الطعام حتى ينضج، تنتظر المائدة تُرفع حتى تغسل الأطباق، تنتظر الملابس المتسخة تتكوم حتى تغسلها، ثم تنتظر الغسيل حتى يجف لتطويه، تنتظر الليل يرخي سدوله حتى تنام، وتنتظر الصباح يهل لتصحو، وتعاود التنظيف والطهو والغسيل والانتظار...

***

- لو رآني جلال بصحبتك تشربين الأرجيلة يا راندا لمنعني من الخروج معكِ وربما معرفتك كذلك. هل يعرف زوجك بشأن ذلك؟

فركت آصال يديها، متلفتة حولها في توتر. تشعر أنها طفلة مجرمة لو رآها ولي أمرها لمنحها علقة محترمة. فيما نفثت راندا الدخان في وجهها باستمتاع، وهزت كتفيها بلا مبالاة، مجيبة:

- صولا. أنا أدخن السجائر أيضًا، لا يمكن إخفاء ذلك. وفي الحقيقة لو اضطررتُ إلى الإخفاء فثمة مشكلة!

رفعت آصال حاجبيها بانبهار وهتفت غير مصدقة:

- ألا يمانع؟

حركت راندا رأسها نفيًا؛ لتخفض آصال صوتها فجأة بينما تتابع كأنما تبوح بسر خطير:

- تعرفين أن التدخين مضر وحرام؛ فلو أرادك أن تقلعي عنه ستكون لديه حجة معقولة.

قطبت راندا: ليس عليّ أن ألبي لأحد متى طلب.

لوحت آصال مؤكدة على بداهة ما تقول:

- إنهم لا ينظرون للأمر بهذه الطريقة؛ لن يطلب، سيأمر.

اعتدلت راندا في مقعدها نافية:

- عمن تتحدثين بالضبط؟ تعميمك في غير محله؛ عماد يحترم مساحتي الشخصية. عزيزتي، لو منحتِ أحدهم هذه الفرصة؛ أن يملي عليكِ أفعالك، لن يتوقف عند حد الضار والحرام، ستشمل وصايته كل شيء، يجب أن تثقي في رجاحة عقلك – تابعت في سخرية - أنتِ مخلوقة بواحد لعلمك – عقدت حاجبيها مفكرة - بالمناسبة يا صولا، لماذا قد يمنعك جلال عني؟ قلق على صحتك! يخشى عليكِ من التدخين السلبي أم قلق على سمعتك؟ يخشى عليكِ من جارتك المُدخنة المنحرفة التي ستؤثر عليكِ بالسلب وتجرك إلى الرذيلة؟

أطلقت راندا ضحكة صاخبة بينما أطرقت آصال مديرة بصرها في وجوه المحيطين المتطفلة، متمتمة في لهجة متواطئة تحمل المسايرة بقدر ما تحمل الرفض:

- انظري إليهم كيف ينظرون إليكِ. هذا شيء لا يحتمله جلال.

ألقت راندا نظرة عابرة على الجلوس المحدقين بها، ولاكت الكلام ممتعضة:

- لا ينظرون بهذه الطريقة للمرأة المدخنة وحسب؛ ينظرون إلى العامِلة وربة المنزل والمطلقة والآنسة والأرملة، لأم البنين وأم البنات والعقيم، للمنتقبة والمحجبة والسافرة والمسيحية – غمزت بعينها –

والزانية والعاهرة! ينظرون للمرأة في كل حالاتها؛ فيمَ تهمك نظرتهم إذن؟

- إننا جزء منهم.

- لا. إننا جزء مما نؤمن به! لعلكِ لا تؤمنين بالتسلط والتوجيه؛ تؤمنين بالحرية، أليس كذلك؟

سألتها آصال في تردد:

- هل أنتِ حرة؟

- ألستِ كذلك؟

سكتت آصال مفكرة لبرهة ثم أجابت بثقة معدومة:

- لا أعرف! الوضع ليس بهذا السوء لكن...

- ترددك في الإجابة يعني العكس.

- أريد أن أشعر أنني محبوبة.

زفرت في ضيق، وقالتها بلهجة منسكرة روعت راندا التي هبت ثائرة تجلس بالكاد على حافة المقعد.

- أنى لكِ فيما لا تعطين الفرصة لأحد ليشعرك بهذا بينما أنتِ في ذلك القمقم. أنا الوحيدة التي تقضين معها الوقت بخلاف زوجك وابنك؛ لأن بابي شقتينا في وجه بعض ليس أكثر. لا تتمتعين بترف الاختيار يا مسكينة! وهذه المرة الأولى التي تخرجين فيها بصحبتي لأن والدتك تجالس إسماعيل! لحسن حظك أنني لستُ نعجة كالبقية. اسمعي يا صولا، لو أن مشاعر زوجك ناحيتك مشروطة فتأكدي أنه لا يحبك. وشخص

لا يحبك لا تتنازلي عن قيد أنملة من أجله.

شطبت آصال صفا تلقائيًا من حياتها وقد أضحت كل حوارات الأخيرة -بعد وضعها ولديها التوأم - تمر في خط إنتاج الدواجن والبيض؛ لتفتح ذراعيها إلى راندا وتتلقى نفحة من الحياة التي خلفتها وراءها. راندا تساعد على إمدادها بالنفس اللازم للمقاومة، تشعر أنها حية من خلالها؛ ولم تكن راندا على الأرجح لتعير اهتماما إلى آصال لولا ذلك البريق في عيني الأخيرة الذي ما يفتأ يخبو ويضيء كل حين.

راندا فتية، مشاغبة، شغوف، صهباء ذات شعر غجري وهيئة بوهيمية، تحظى بنمط الحياة الذي تريد، تعمل في شركة متعددة الجنسيات للتسويق والإعلانات، متزوجة منذ خمس سنوات غير أن سكان البناية يحسبونها عروسًا جديدة لأن رحمها وبيتها خاليان من الأطفال؛ تؤجل هذه الخطوة إلى ما لا نهاية، تقول إنها ربما لا تقدم عليها حتى. ليست متأكدة، تترك هذه القرارات رهنًا للمشاعر، وهي لا تشعر أنها تريد ذلك بعد ولا تعرف مستقبلاً.

لا تعرف آصال أحدًا يشبه جارتها الجديدة إلا ربما ما كانت هي عليه قبل أن تتحول إلى نعجة ممن أشارت راندا إليهن، ولا تنفي أنها تشعر أحيانًا ببعض الغيرة والحسد، وتود لو تقعد راندا عن عملها وتنجب وترضع الأطفال كبقرة حلوب! تتفهم الآن إشارة النساء المُلحة إلى بعضهن البعض بالزواج والإتيان بالمزيد من

الأطفال؛ «متى سنفرح بكِ؟ شدي حيلك»! يستحسنَ شعور أن كلهن سواء، يحقدن على الحُرة ذات الشغف والإرادة.

***

صارت عادة لدى جلال في المرات التي يحمو فيها الوطيس وتشتد وطأة الحوار بينه وآصال، أن يضع حدًا لذلك بجملة وحيدة أثيرة:

- ستنقلب الليلة غمًا. أعرف ذلك.

- لن نسمح بهذا!

تمكن منها الانزعاج لاستباقه الأحداث بصورة سيئة قد لا يصلان إليها. لكنه كرر:

- أرى بوضوح إلى أين ستنتهي بنا الليلة.

ساورها الشك أنه يتعمد وضع هذه النهاية؛ لم يقل ذلك لمرة إلا وتؤول فعلاً الليلة إلى ما تنبأ به، ليتخلص منها بضعة أيام ربما، إجازة! يميل إلى الصمت والتجاهل الذي يعقب ذلك؟ إذن.. هل يحبها؟ يبدو أسعد كلما كانت عنه أبعد. لا تحب طريقته في مبادلتها الحب، بل إنها توشك على التسليم بأنه لا يحبها، لم يحبها، أو لم يعد يحبها، مشاعره حيالها لن تخرج عن هذا النطاق. كيف لا يعني الحب له ما يعنيه لها؟ كيف يختلفان في ترجمة شعور واحد لهذا الحد؟ هل يرجع ذلك إلى النوع أم الطبع؟

باحت له بشكوكها وحيرتها فاستنكر فكرتها الخيالية عن الحب التي لا تمت للواقع بصلة، وهاجم الروايات العاطفية والأغاني والمسلسلات التركية والهندية التي

توجه الوجدان الجمعي للنساء، وتجبر شركاءهن على النفاق والتحايل، نصحها ألا ترفع سقف توقعاتها حيث لا يعد شيئًا بعد ذلك يرضيها.

- لا تلوميني على مخيلتك الواسعة.

قال لها ذلك ضاحكًا باستهزاء؛ لتغمض عينيها متمالكة أعصابها، آخذة نفسًا عميقًا يمدها بالقدرة على التغاضي وعبور الحواجز.

- لم يزل لدي أمل أن تنتهي الليلة على نحو آخر.

ومضت في تلطيف الأجواء بالغنج والتقبيل، غير أنه لم يقبل يدها الممدودة بالسلام؛ نحاها عنه ظانًا في قبلاتها دعوة جنسية، أعرض بترفع:

- لا أظن ذلك! - ألقاها في وجهها بطريقة جارحة - أنا متعب وأريد أن أنام. ألا تقدرين؟ ألأنكِ لا تبذلين مجهودًا!

(مجهود! يعمل ويدرس ويبحث ويسافر لكنه يقف عند عتبة هذا البيت ولا يود أن يمد يدًا فيه، لعله يرى فيه فندقًا للمبيت مزود بمطعم وخدمات بائعة هوى توفر عليه المجهود المصاحب للمتعة!)

يهاجمها كأنها تهمة أن تطلب منه وتنفيها عن نفسها كأنها جاءت شيئًا نكرًا! لقد أرادت أن يتفاهما وحسب. لكن ماذا لو كانت تقصد ذلك فعلاً؟ وقد سألته:

- هل القبلة مقصورة على أوقات الرغبة؟ أنا أشعر بحاجة إلى ملامستك والقرب منك طوال الوقت دون

أن يفضي بنا ذلك بالضرورة إلى الفراش.

ألم يقل لها قديمًا إنها أخطأت حين لم تشر عليه بما يجب عليه فعله؟ ها هي تتدارك خطأها فلمَ لا يجدي ذلك نفعًا؟ بل ويسوؤه. لقد قالت! أفصحت عن الحرج والاحتياج الذليل في نفسها إليه، ولم يجد ردًا غير أنه ليس بالوقت المناسب لمناقشة مثل هذه الأمور.

كيف باستطاعته أن يجنب كلامها ويدفع تفكيره في اتجاه آخر؛ يلومها وهو يحسب كم من الوقت سيحظى به في نومه ليصحو باكرًا ويغادر لعمله، يغادر تلك التي قالت كلامًا لا يمكن أن يكون أكثر وضوحًا – كما أشار عليها سابقًا بأن الطلب شرط الإجابة – تلك التي كانت تشحذ عناقًا قويًا في تفهُم، وإحساس منه بالتقصير، لكنه زاد على الحرمان ذِلة حين رفسها لينام ويعمل. لم تلحظ قبل ذلك أنها التي دائمًا ما تطلب منه احتضانها دون أن يبادر بذلك، «ضُمني.. احتضني»، كلمات لصيقة بلسانها، منتهى البؤس! إنها شحاذة مقرفة تشمئز من نفسها. تستجدي الحنان والتفهم وهو بعد يضن عليها رغم ذاك التذلل. يضمها مكرهًا!

تنظر آصال بعين الدهشة إلى الحاضر؛ لم تتوقع ما آل إليه حالهما بعد الرجوع الدراماتيكي إلى بعضهما، تلك الانعطافة المفاجئة التي قاما بها على شفا جرف قبل أن يهويا مباشرة.. لم تشفع لهما! ماذا حل بهما؟ لم تفت ثلاثة أعوام بعد وكأنهما أنهيا حكمًا بالمؤبد! لم تتوقع قط أن يحدث لها ذلك. قصة الحب الكبيرة تصغر يومًا

فيومًا، والمشاعر التي صارعت السنوات وبقيت؛ تتناثر يمنة ويسرة، تكاد تندثر تمامًا كأن لم تكن، تساؤلات مؤرقة تلح وإحساس بالندم يتعمق ولربما يبتلع كل شيء.

كان الجنس يحل كثيرًا من المشكلات العالقة بينهما دون الحاجة إلى مباحثتها أو إعادة الكلام حولها، وتوجيه الاتهامات وتصفية الخلافات وما إلى ذلك، كان بمثابة خاتمة نظيفة لكل ما سبق؛ ينهي ويقلب الصفحة لبداية جديدة، تبيت نارًا تصبح رمادًا! يوثق ويؤكد على ما يهم حقًا وما هو موجود بداخل كل منهما من حب ورحمة ورغبة في المواصلة مع هذا الشخص بالذات. أما ولم يعد كذلك، فإن الهفوات والأخطاء والخلافات المستمرة الناجمة عن اختلاف الطبائع وأهداف الحياة تأخذ في التراكم على هيئة جدران مشيدة عن عمد، مسلحة بالغضب والفتور والتصيد وعدم القدرة على التسامح والبدء من جديد.

***

كل نشاط ممتع في الحياة يحتاج إلى أكثر من شخص واحد لتأديته، يحتاج إلى رفقة؛ هذا شيء قاتل وغير منصف للوحيدين والمنبوذين أمثال آصال.

تتكالب الهواجس فوق رأسها لترى أيها الأقوى التي ستسقطها أولاً. لم تعد تحتمل الشعور بأنها ستنفجر في أي لحظة! الفجوة تتسع فيما بينها وجلال، تغيبه عن المنزل زاد إلى حد غير معقول، لم يعد نائبًا صغيرًا في السن لينام في المستشفى! فضلاً على أنه يطيل السهر خارج المنزل في الليالي التي يعود فيها إليه، ويؤثر الصمت والانفراد بنفسه، لا يرغب في الحديث إليها، لم يعد كلامه معها يزيد عن الجفاء والتوعد، والمشاحنات على أتفه الأسباب، لم تعد تؤتي محاولات الصلح ثمارها، نادرًا ما يكونان متصافيين. جرت العادة أن يأخذ كل منهما جانبًا وإسماعيل ضائع بينهما.

لا ترغب في الإحاطة باحتمالية أن ثمة أخرى في حياته؛ ما حدا بها إلى التفتيش في أغراضه، غير أنها لم تجد دليلاً، لعلها تختلق خيانته لها لأنها لا تضع يدها على سبب للوقيعة بينهما، تشك في أن ما يجري بينهما مجرد فتور من الزواج، أو حقيقة كونهما يريدان أشياء مختلفة.

- هل تزوجت عليّ أم أنك تعبث فحسب؟

كان يهم بالخروج في أوج أناقته؛ ليستدير إليها

مشدوهًا، تقف أمامه عاقدة ذراعيها على صدرها، وعاقدة العزم كذلك على نبش الجراح المتقيحة. مرت بسمة عابثة على شفتيه وماتت هناك. تنهد بينما يتخذ مقعدًا ويستعد لمحادثة طال أمد تأجيلها. أشار إليها بالجلوس قبالته، شبك كفيه أمامه وهو يقول في هدوء يغلب عليه الاستنكار:

- تتصرفين بالطريقة نفسها التي تكرهين أن يعاملك أحد بها؛ الأحكام الجاهزة التي تصنف الأفراد وتضعهم في خانات محفوظة، فما دمت رجلاً فأنا إذن أخون! يمكنني التصرف بنفس الطريقة معكِ والمجتمع يقف في صفي في الكثير من هذه الأمور. لنتعامل إذن بصورة عادلة.

شعرت بحمل ثقيل ينزاح من على كاهلها. ابتسمت بعفوية بينما تقول بدلال مختلط بالتشكي:

- أي عدل فيما أصبحتَ عليه؟

- ماذا عنكِ؟ أصبحتِ أنانية وغير مطيعة في كل شيء أطلبه منكِ. جف ريقي معكِ.

اتسعت عيناها مصدومة، لا يعقل أن يكون هذا هو السبب. كان يلح عليها أن يسافرا لتأدية العمرة ويعرجان على قاسم تطلب وده كي لا تكون ابنة عاقة لأبيها. هي العاقة! ولم يزل يستعجل الإنجاب ولا تنفك تمدد الوقت الذي تحتاجه لتصير مستعدة. لقد كادت تموت في المرة الأولى ومات جنينها في المرة الثانية.

وفي المرتين شُقَّت ونزفت وماتت من الألم.

مغرور! يرى أن يطلب فتجيب في الحال، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى. عددت على أصابعها في حرقة:

- والحجاب الذي فرضته عليّ؟ والورشة التي منعتني عنها؟ وأحلامي في المعرض والمرسم التي سحقتها؟ والحمل المستعجل بعد إسماعيل دون رفق بي، وتريد أن أعيد الكرة بعد!

لم يبدُ متأثرًا وهو يمط شفتيه بلا اكتراث:

- ليست تضحية عظيمة! كل الناس تفعل كذا.

دفنت وجهها بين كفيها مُحبَطة:

- ما لنا بالناس؟ ما الضير في أن نسن حياتنا بالشكل الذي يرضي كلينا ولو خالفت سنتنا سنن الأولين والآخرين؟

زفر حانقًا:

- ومن قال إني راضٍ؟ أنا تعيس.

- تبني سعادتك على حسابي وتدعوني أنانية؟

نظر لها بعين لائمة وقال بلهجة تقريرية:

- يفترض أن تكون سعادتك من سعادتي.

- أنت تلوي ذراع الكلام ليعاكس الإحساس الطبيعي للإنسان؛ تُصوِر الألم والإرهاق والإجبار سعادة! الشخص الذي يتلذذ بالتضحية بنفسه من أجل الآخرين شخص

مريض. لستُ ماسوشية.

نظر إليها شزرًا:

- النغمة النسوية مجددًا!

تنهدت في ملل واستياء:

- لأنك تعيق تفكيري في أي اتجاه آخر.

قام جلال من مكانه قائلاً في حزم وبلهجة لا تقبل النقاش:

- طيب. لقد أجلت هذه الخطوة لأقصى حد، وكنتُ نبيلاً لآخر درجة. لكنكِ لم تتركي لي خيارًا آخر؛ سأصحبك غدًا إلى المستشفى رغمًا عن أنفك – تابع بقرف - ستزيلين هذا الشيء الذي يجعلك قادرة على الوقوف في وجهي.

***

تبدو آصال سابحة في وعاء مملوء بالماء، مرفوع على النار؛ تحاول جاهدة التكيف مع الارتفاع التدريجي لدرجة حرارة الماء. حين يقترب الماء من درجة الغليان؛ ستعجز عن التكيف، وتقرر القفز خارج الإناء للنجاة بحياتها؛ ستحاول دون جدوى! قد فقدت كل قوتها خلال عملية التأقلم، وسرعان ما ستموت! ليس الماء المغلي هو الذي جنى عليها، بل عدم معرفتها التوقيت المناسب لاتخاذ قرار القفز خارجًا متى صار التأقلم مميتًا؛ فلا تستمر حتى يُقضى عليها.

يجب أن تقرر متى تقفز قبل أن تخور قواها.

هكذا عرفت أنها صمدت أطول مما ينبغي؛ حين دلف جلال إلى المنزل مفسحًا مجال الدخول لقاسم، واجهها الأول بابتسامة رزينة كأنما أعد لها مفاجأة سارة. قد اتصل بها قبل ساعة وأخبرها أن تعد العدة لاستقبال الضيف الذي بصحبته. تسمرت فاغرة الفم متسعة العينين، تتحاشى النظر إلى قاسم الذي وخط الشيب فوديه وامتلأ رأسه بالشعر الأبيض، غزت التجاعيد وجهه لكنه لا يزال يضج بالعنفوان والصحة والجسد الفارع دون انحناء.

راحت تحدق في جلال بصدمة جلية، ترتعد، تغرورق عيناها وينسال الدمع على خديها بغزارة، تتصاعد حموضة معدتها، تشعر بالغثيان، وتكاد تقيء!

- تفضل يا عمي، خطوة عزيزة، إسماعيل سيطير فرحًا لرؤيتك. سيعود من الحضانة بعد قليل.

كان جلال مستمرًا في الترحيب بقاسم، غامزًا بعينه إلى آصال أن لا يصح وجومها وتخشبها، يدعوها خفية إلى أن تلقي التحية على والدها وتُحسِن استقباله في بيتها! ومضى يشكر قاسم على قبوله دعوته إلى مصر لوضع حد لهذه القطيعة التي حرمها الله!

تتطلع آصال إلى جلال غير قادرة على التصديق، مخذولة، مُحطَمة. لا يعرفها البتة! ليس لديه أدنى فكرة عن الشخص الذي يشاركه الحياة تحت سقف واحد. قد ناضلت كثيرًا من أجل الاحتفاظ بالشيء الجميل بالغ الضآلة بينهما، لكن ليس ثمة جمال، قد تجلى بقبحه، يكاد يعمي بصرها القبح الذي ينشره حوله، لم تعد تستطيع النظر إليه، تؤلمها عيناها.

أطرقت تستنشق دمعها، وتبلل شفتيها بلسانها، مستجمعة ما تبقى من قوتها الهزيلة. لا ترهب قاسم كطفلة قليلة الحيلة، لن تخاف أن تُضرب وتُسحل وتُقتل، لن تُرمى من الشرفة في قطعة أرض مهجورة ويفلت المجرم من العقاب؛ البناية عامرة بالسكان وصوتها سلاح. لا تعول على جلال، لم يحمها في المرة السابقة، فر ككلب جبان وتركَ الخراف لقمة سائغة في فم الذئب، بل أرشده إلى مكانها هذه المرة.

عضت على شفتها السفلى لبرهة ثم زفرت في حرقة،

وقالت بصوت مشروخ:

- كيف بلغت بك الوقاحة أن تأتي بقدميك إليّ؟ تدخل بيتي وتجلس بأريحية كأنك لم تجنِ شيئًا! ألم أقل لك أن تخرج من حياتي إلى الأبد أم أن جلدك ثخين لا تحس ولا تفهم؟!

برقت عينا قاسم الذي كان قد اتخذ مجلسه للتو؛ ليهب واقفًا يرتج جسده من الغضب، يبين من قبضتيه المغلقتين صراعه أن يسحقها بينهما بلا رحمة، بينما زعق جلال وسارع بتقويض كتفيها:

- آصال، اخرسي. أنتِ تكلمين أباكِ!

صرخت، نافرة الأوردة، محتقنة الوجه:

- لا تقل أبوكِ. هذا أب يندى له الجبين! رمى لحمه وهج؛ لم تكفه محاولات قتلي بمشرط القابلة وتكسير عظامي، أراد أن يميتني أيضًا من الجوع والحاجة. لقد باع بيته الذي كان يؤوينا قبيل سفره! تركنا في العراء. سيحاسبك الله حسابًا عسيرًا يا قاسم، سيجحمك في النار.

التهم قاسم الصالة بخطواته الواسعة، أمسك بمقبض الباب ملقيًا عليها نظرة مشمئزة كارهة، وهو يدمدم بقرف:

- لا تزالين فاجرة وعينك بجحة. قلت لك يا دكتور ليس لي بنات في مصر.

- أرجوك يا حاج، إنها...

- لا تحاول. لستُ باقيًا عليها لأتحمل سفالتها – طالعه شامتًا – الله يرحمك يا رجولة!

صفق قاسم الباب في وجهيهما بعنف، ليتحول جلال إلى آصال كذئب جبلي يعوي، قد أهانته وخسفت به الأرض، وتطاولت على والدها أيما تطاول؛ خرجت على الدين والتقاليد وأبسط قواعد احترام الذات والآخرين التي تربى عليها.

كانت مستغرقة في النظر إليه بازدراء زامة الشفتين، فيما يتقدم ناحيتها وقد انتفخت أوداجه، جازًا على أسنانه، يتوعدها بالتأديب والضرب، متلفظًا بالكثير من السباب في أثناء ذلك؛ لتنتفض آصال وتزيح الغبار عن حنجرتها، يهز صوتها الرنان أركان البيت:

- وتجرؤ بعد! أحسن خطابي وإلا سأسيء خطابك بالمثل. كأنما هو حق متاح لك أن تضربني وتتنازل عنه عن طيب خاطر ولكرم في أخلاقك! هذا التعالي والمغالاة في تقديرك لنفسك على حسابي لمجرد أنني امرأة هو ما يكرهني في نفسي ويحقرني في النوع الذي أنتمي إليه.

- مقهورة يا عيني! انظري إلى غيرك لتحمدي الله على النعمة التي ترفلين فيها.

تطاير الرذاذ من فمها من فرط الانفعال:

- العلاقات الإنسانية ليست هي التي تنظر للدنيء منها لترضى بل تنظر للسامي منها لتقتدي به. كونك أقل

سوءًا من الآخرين لا يعني أنك أحسن، وقد أثبت اليوم أنك في مثل سوئه.

طوح كفه الغليظة على وجهها الأبيض المحمر من الصراخ، زافرًا بارتياح:

- تستحقين الضرب. يسعدني أنني أخيرًا أقدمت على ذلك.

رفعت عينيها إليه مذهولة، مأخوذة من شدة الصفعة، ثم ألقت نفسها عليه وأخذت تضرب صدره بقبضتيها الضعيفتين:

- طلقني يا جلال، طلقني، طلقني.. طلقني حالاً.

- أنتِ طالق.

تلفهما الصدمة بإحكام، يخيم هدوء من نوع غريب على المكان، يشتد الصمت بينهما، وتبقى النظرات المشدودة ويذهب كل شيء آخر. يذهب كل شيء آخر كأنه لم يكن يومًا. الطلاق لم يكن يومًا جديًا ككل شيء آخر في حياتهما، كانت تحثه عليه فيفعلها بلا تردد، يرميها بالكلمة بعنف كرة الإسكواش وتتلقاها بصمت الحائط الذي تُضرَب عليه.

***

الفصل الخامس

لا يهم أي امرأة ستصيرين لأنكِ ستتمنين دومًا لو أنكِ الأخرى.

إليف شافاق

(لعلك تتساءل يا إسماعيل في صحوك ونومك، في الوصال والخصام، في حبك وكرهك لي في آن؛ أي ذنب اقترفتَ ليبتليك الله بي؟

ولعل نقمتك عليّ ستبلغ أوجها الليلة عندما تعرف لمَ أرسلتُ في طلبك المستعجل؛ تقطع المسافة البعيدة إلى المنصورة متأففًا، لتُدرِك أنني أخلفتُ وعدي لك؛ قد حذرتني أنك لن تريني وجهك مجددًا إن فعلتُ، قايضتني أن تزورني كل سنة مرة بشرط ألا أطلب المزيد)

حواس إسماعيل يقظة؛ إذ يماطلها في المجيء! لكنه يجيء في نهاية المطاف. مُضطرًا، مدفوعًا بالشفقة وأحابيل الأم العجوز.

تفتح آصال الباب على مجيء ابنها المتردد، تحتضن تخشبه بين ذراعيها، وترحب بحضوره المُكرَه عليه. يجلس على بعد مدروس منها، مواجهًا استجداءها قُربه بتباعد مقصود منه.

كانت آصال تعد العدة لاستقباله منذ وقت ليس بالقليل، تستمهله، وصبرًا تستجديه، تود أن يدعها تهنأ به قليلاً. إنها فرصتها الأخيرة وقد يضيعها التسرع! والضياع صار كل ما عليه حياتها، وما قد تنتهي إليه؛ فلا تتعجله.

ستحكي له عن أشياء يجهلها، وأخرى يعرفها، لكنه

ليس حقًا عليمًا بها. ستبرر له وتلتمس العذر. وعندما تكف عن الكلام، ولا يعد يصير بإمكانها فعل شيء آخر؛ تبتهل: لعله لن ينفذ تهديده، لعله يجيب مطلبها.

لم يكن قاسم يسمَح لابنته المراهقة بإغلاق باب غرفتها، مواربًا أبدًا. من ليطرقه إذن؟ إنه مشرَع أساسًا للدخول دون استئذان. تنحنح جلال ملقيًا التحية وهو لا يزال خلف الباب؛ لتهب آصال فزعة تلقي عليها أقرب قطعة ملابس التقطتها من الدولاب، وتقف مستنفرة وسط الغرفة، تلف عباءة كيفما اتفق حول شعرها ونصفها العلوي بينما يكشف سروال منامتها عن قدميها الحافيتين. تجيب تحيته مرتبكة. وقف بمحاذاة الباب وعيناه العسليتان تخترقان زجاج عويناته إلى قلبها الذي راح يهدر كماكينة قديمة صوتها يصم الآذان، محولاً بياض وجهها إلى حَمار صارِخ. كادت تنسى أن لأحد مثل ذلك التأثير المدهش عليها. كأنها حية!

سألها لماذا تضع العباءة عليها بهذا الشكل؟ ولما لم تحر جواب ونظرت إليه دامعة العينين، خفض بصره حرجًا وقال إنه وجد باب الشقة مفتوحًا ولا أحد يجيبه بالداخل، فاضطر إلى أن يجد طريقه بنفسه. أشارت إلى السقف وبالكاد خرج صوتها:

- ماما تطعم الطيور على السطح.

- لقد جئت لأطمئن عليكِ. إجازة طويلة، هه؟ ولم تخرجي للقائنا حين جئتُ وأبي للترحيب بعودة والدك من السفر، عمتي أخبرتنا يومها أنكِ نائمة. انتظرت أن تفتح المدارس أبوابها بفارغ الصبر، ثم انتظرتك أمام

المدرسة عدة مرات! وأخيرًا اضطررت إلى سؤال إحدى زميلاتك عنك، كادت تفضحني في الشارع لأنني جرؤت على التحدث إليها! تحسنين اختيار رفقتك.

غمز بعينه وابتسم لها فابتسمت بدورها رغمًا عنها، وضجت قسماتها بالحياة إثر أول حوار حقيقي بينهما، ليُشبِّه وجهها بسحابة، تحولت في غمضة عين إلى زعابيب!

- ما هذا! ماذا تفعل معها وحدكما في غرفتها يا حثالة؟ قد هيأت لك عمتك الجو! اخرج حالاً يا صعلوك من بيتي ولا تطأه بقدمك القذرة ثانية.

شده قاسم من ثيابه وألقى به خارجًا. يطارده متوعدًا على السلم. كادت تبول على نفسها! ألقت عنها العباءة وخرجت مسرعة من الغرفة محاولة الهرب إلى السطح حيث تحتمي بأمها، لكن قاسم سد عليها الطريق كغول أسطوري محمر العينين، عائدًا إليها بخطوات تهتز لها الأرض من تحتهما.

- وأنتِ يا فاجرة؟ لا رجاء فيكِ! أنتِ فضيحة.

طالتها يداه؛ أمسكها من شعرها لتكاد تخرج عيناها من محجريهما طافحتين بالدموع، تنزل كفه الضخمة على وجهها فتدمي شفتيها. تراجع عنها ليركلها بقدمه في بطنها، وهو يقول بفم مُزبِد:

- سأخرجك من المدرسة اليوم وأزوجك غدًا وأخلص من شرك. لا، ليس حبيب القلب. سأزوجك بفلاح يعزق

الأرض ويعود إليكِ بوسخه من الطين والعرق لتنظفيه كل يوم حتى مماتك.

قامت كالملسوعة من سقطتها، وأخذت تتقهقر، والجزع والغضب على ملامحها يحيلان براءتها إلى وجه عجوز متغضن، متراجعة بظهرها حتى سور الشرفة. نهاية المطاف. نهاية كل شيء! لتصرخ بعزم، بكل القوة التي تملك والتي طفت تنبش طريقها إلى السطح كأنما كانت تغرق!

- لا، لا، لا.... لن تفعل بي هذا! لماذا عدت؟ لماذا عدت؟ أنا أكرهك. أمقتك. حِل عنا، حِل عنا بلا رجعة...

تحشرج صوتها المجروح وأخذت تسعل في قوة، بينما كور قاسم قبضتيه وانتفخت أوداجه، معاودًا الهجوم عليها، لتصيح مستنجدة.

- لا تقرب مني! ماذا تريد بعد؟ اعمل معروفًا واخرج من حياتنا.

- آه يا مقصوفة الرقبة!

كانت آصال شوكة في قدمي قاسم تجرحه أينما ذهب، وكان هو غصة في حلقها كلما ازدردت لعابها؛ يمكنه أن ينتزعها فيمشي دون ألم، ولم يكن باستطاعتها ذلك نحوه.

***

ترقد آصال على سرير المستشفى المعدني كالجماد، مقيدة الحركة، مكممة الفم، لا تنبس بحرف بينما قاسم

ينفرد بها، يحقنها بالسم المتدلي من لسانه كحية رقطاء. يروح ويجيء في الغرفة ساخطًا:

- العمر يجري وأنا بطولي لا سند لي. من يتولى تجارتي؟ من يحمي ظهري؟ أمك الأشبه بالخرقة لم تستطع أن تنجب لي إلا بنتًا واحدة، المهزلة أني تزوجت عليها أخرى تنجب لي الولد؛ ولمدة عشر سنوات لم تحسن غير إضافة خمس أخريات إلى رصيدي! لكنكِ لا تشبهين بناتي.

بصق على جانب في ازدراء. قال «بناتي» وليس إخوتك، قاصدًا أنها ليست واحدة منهن، وقد أمّن على مقصده متعمدًا إغاظتها:

- لسن قبيحات اللسان والخِلقة مثلك؛ جميلات كالبدر، معسولات الكلام. أحسنت أمهن تربيتهن.

تنهد بصوت عالٍ فيما احتشدت في عيني آصال كتائب لا حصر لها من الدموع؛ تقف على استعداد للانهمار الوشيك، متأوهة من النغزات المؤلمة في قلبها. تابع بلا اكتراث، مُؤمِنًا الحطب اللازم لئلا تنطفئ جذوة الحريق المستعر في جوف ابنته:

- لم أكن لأضطر للعودة لهذه المخروبة لولا الشديد القوي؛ تحتم عليّ اقتفاء أثر عائلة نساؤها ولاَّدة للصبيان، ولم يخذل الله مسعاي – أردف في ظفر - الثالثة حامل في الولد، لستُ باقيًا من أجل سواد عينيكِ، لم أكن لأعرضها لخطر السفر؛ ننتظر أن تضعه

بين أهلها، ثم نعود من حيث أتيت. أعود بالولد.

اقتحمت روحية غرفة المستشفى بعد تغيبها لإجراء مكالمة متعجلة. دلف عبد الرحمن في أثرها؛ ران على المكان هيبة ووقار في حضرته، ولاذ قاسم بالصمت، مضى ينظر إلى صهره في توجس وترقب، فيما استرعت زوجته انتباهه حين صاحت فجأة والشرر يتطاير من عينيها الطيبتين للمرة الأولى:

- سأقاضيك يا قاسم. والله لأحبسك.

عقد قاسم حاجبيه مصعوقًا من ردة فعل زوجته العنيفة وعلو صوتها على غير عادتها، لم تكن روحية تحسن أن تتنفس في حضوره! التفت إلى آصال التي تلألأت الدموع في عينيها فجأة بالتشفي والغل، بادلها نظرتها بأخرى متوعدة وهو يجز على أسنانه:

- أيتها المعتوهة! لقد اختل توازنك. ما ذنبي أنا؟

هتفت روحية في شراسة وكمد:

- ذنبك! لقد أعدمتها العافية. ضرب كان ليفضي إلى موت لولا ستر ربنا، انظر إليها. لا تستطيع أن تحرك ساكنًا. ورميتها من الشرفة كذلك يا عديم الرحمة. هذا شروع في قتل.

تطاير الرذاذ من فمه وهو يقول مؤكدًا في انفعال:

- قلت اختل توازنها. وليس ثمة شهود على ما تدعيه هذه الكاذبة، كلمتها مقابل كلمتي.

صاحت روحية في تحدٍ وتصميم:

- سأشهد ضدك يا قاسم.

حدق قاسم في أخيها هاتفًا في استنكار:

- زور يا سيادة المستشار!

تكلم عبد الرحمن أخيرًا بصوت رخيم متزن:

- كفى! حفاظًا على سمعة البنت يا قاسم؛ كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف.

افتعل قاسم ضحكة وتنهد في راحة:

- بسيطة. أنت تسدي لي صنيعًا يا سيادة المستشار. أختك طالق بالثلاثة بشرط أن تخط تنازلاً عن مستحقاتها وكذلك نفقة ابنتها الملعونة.

بكت روحية قهرًا واحتجاجًا:

- يا مفتري يا ناقص!

نادى عبد الرحمن شقيقته محذرًا ومال عليها هامسًا:

- رفقًا بالبنت.

وأردف وهو يشد قامته ويتقدمهما لإخلاء الغرفة:

- فضلاً دعونا نتابع حديثنا في الاستقبال، آصال بحاجة إلى الراحة. سلامتك يا بنتي.

لم يفت قاسم أن يدير بصره إلى آصال قائلاً في شماتة:

- ما صدقت أن أتخلص من عبئكما.

علا صوت أبويها واشتد الجدل بينهما حتى اضطر عبد الرحمن إلى جذبهما بالقوة وسيرهما أمامه خارج الغرفة؛ ليدلف جلال إليها كقط متلصص؛ قد جاء بصحبة والده لكنه بقي مترصدًا في الرواق مختبئًا من قاسم. كانت آصال تتنفس الصعداء مغلقة عينيها بشدة على مآقيها. بنيان مرصوص داخلها يتساقط كالحجارة، أطرافها أحد من نصل السيف، تنغرس في قلبها الهش وتدميه.

هاله منظرها وشمله التوتر حتى وخزته عيناه، يكاد ينفرط منهما الدمع؛ كانت في هيئة لا تُحسَد عليها، مجبرة في أماكن عدة، صفحة وجهها لم تعد بيضاء من غير سوء؛ ملأى بالكدمات والخدوش، ثغرها منتفخ ومدمى. لقد انخلع قلبه حين سمع بما جرى لها. أراد أن يطمئن على سلامتها ويبرر لها نذالته وفراره كفأر مذعور من بين يدي قاسم دون أن يتصدى له ويذود عن محبوبته. لم تكن لتتعثر على الدرج بينما تهرب من والدها لو أنه حال بينه وبينها.

انتبهت آصال إلى الأزيز الذي يصدره حذاؤه الجلد على أرضية المستشفى المصقولة، لترفع عينيها إليه وقد تبدلت السكينة والانكسار اللذين كانت عليهما؛ كانت لتحرن لو أن بإمكانها ذلك! بدت متأذية إلى أقصى درجة، تجلى الرفض في عينيها في أبهى صوره، لم يفهم لمَ أحالتها رؤيته إلى نمرة شرسة مسلسلة تكاد تنقض عليه بأسنانها! لم تمهله الفرصة للدفاع وتقديم

فروض الأسف والاستسماح. صاحت بعصبية:

- نعم! ماذا تريد أنت أيضًا؟ لا أريد أيكم، كلكم سواء.

تغلب على مفاجأة استقبالها له وسارع بالاقتراب منها، يبحث عن مكان آمن في جسدها يضع يده عليه ليهدئها دون أن يوجعها:

- آصال! اهدئي. ما خطبك؟

ردت في استهانة:

- ما لَك أنت؟! لا تتدخل، إياك أن تلمسني، ابتعد عني. اخرج، هيا اخرج. قمت بالواجب مشكورًا.

تشبعت عيناها فجأة بالعزيمة:

- سأعيش. وحياتك لأعيش كل دقيقة في عمري كما يحلو لي، أنا سآمر وأنهي، لن أمكن أحدًا مني.

قال في إشفاق:

- آصال. أنتِ في حالة صدمة يا حبيبتي.

صرخت منفعلة:

- لستُ حبيبة أحد. لستُ حبيبتك ولستَ حبيبي – تابعت مهددة - وسأقول لخالي إنك تلاحقني وتغرر بي، سأقول إنك حاولت تقبيلي عنوة. اتق شري يا جلال. لا أريدك. ألا تفهم؟!

تجمد جلال في وقفته، يتطلع إليها في جزع وانزعاج. متسائلاً في دهشة: ماذا ألمَّ بها؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ لتمتد يدها إلى زر أبيض معلق إلى جوار الفراش:

- سأستدعي التمريض!

رفع كفه مستسلمًا، تلفح الصدمة وجهه كشمس صيف حارقة، يتراجع بظهره إلى باب الغرفة، مُحرَجًا ومغاضبًا.

- هذا يكفي. أنتِ مجنونة!

زفرت مستمتعة:

- هذا شأني.

- بالتأكيد.

همهم في تحفز وهو يصفق الباب خلفه بينما تشيعه بثبات.

***

-٣-

ترك جلال الشقة لئلا تعود طليقته إلى المنصورة فيبقى ابنه قريبًا منه، واستدعى عمته للعيش معهما. يرسل نفقة آصال ومصاريف إسماعيل بانتظام دون أن يُطلب منه، ويمر بسيارته حين يفرغ من عمله، ينتظر ابنه داخلها ريثما يُنزِله له بواب العمارة، لينطلق بها ويقضي مع الصغير بعض الوقت في الخارج، وفي طريق العودة يوسعه أحضانًا وقبلات ويترك بعضهم لها بين ذراعيه؛ كلما اقتربت من إسماعيل تشتم رائحة أبيه، فيحضر في التو كاملاً في خيالها وتراه رأي العين. تدمع عيناها ويختلج قلبها. هل يود أن تتجنبه فتضطر إلى تلافي ابنها، إمعانًا في مضاعفة العذاب؛ البعد عن كليهما! أم أنه يرسل تحياته إليها ويذكرها بقربه. ماذا يريد بعد منها؟ لماذا لا يتركها وشأنها؟ قد تعبت في قربه وبُعده. غير أنها مسحت عبراتها مرة وللأبد حين جاءتها نادرة تمصمص شفاها وتقول شامتة، مسدية النصائح ومدعية الإشفاق:

- لو كنتِ امرأة شاطرة لحاوطتِ زوجك وحافظتِ على بيتك. أنتِ الخسرانة؛ ها قد راح وتزوج بنت بنوت في العشرينات وأنتِ بعد في عدتك.

أخرستها آصال وهي تصيح في عصبية وتنفث النار في وجهها كتنين مجري مجنح:

- بيتك من زجاج يا نادرة! أليست حسناء امرأة خائبة

بدورها؟ قد تزوج زوجها أخرى عليها أيضًا. اسمعي. لا داعي لنغمة المرأة المسؤولة عن كل صغيرة وكبيرة، بسببها الدنيا تبقى وردية أو كحلاً! هذا افتراض غير سليم، وكثيرًا ما يكون العكس بالعكس. في الغالب في مجتمعنا الذكوري الرجل متصلب الرأي لا يحس ولا يُعقِل ولا يسمع لواحدة يعتبرها ناقصة عقل ودين – تابعت مزدرية - الهم طائلي وطائلك يا سِت نادرة.

اجتهدت آصال للصق الشرخ الكبير الذي صدع روحها وأصاب مشاعرها في مقتل؛ قالت لنفسها أن افعلي كل ما يلزم لتعودي إلى ما كنتِ عليه قبل ثلاث سنوات.

- ستبلغين أربعين سنة وبدل السعي إلى الحج أو العمرة تخلعين الحجاب؟ خافي ربك.

قد قامت بجمع كل الأقمشة التي كان جلال يجبرها على لف رأسها بها كالكرة، وشحنتها في صندوق إلى جمعية خيرية مُطلِقة سراح شعرها، قاطعة الطريق على أي محاولة لروحية تثنيها عما اعتزمته؛ اكتسبت مناعة ذاتية ضد الترهيب والترغيب. ثم أعادت الاتصال بمسؤول ورشتها الفنية تستأنف عملها، متوصلة كذلك بسهولة إلى فرصة عمل ذات راتب مجزٍ يعيلها هي وأمها؛ نظرًا لخبرتها الطويلة في العمل بالبنوك والمحاسبة وتوسط راندا لها لدى قاعدة معارفها من ذوي العيار الثقيل العاملين بالمجال ذاته.

***

ساء روحية النهج الذي مضت آصال تتبعه مع إسماعيل؛ موجودة معه على مدار الساعة لكنها لا تمنحه شيئًا من وقتها أو اهتمامها. لا تحاول كفاية. ليست ملتزمة بالعمل الجاد الذي تستلزمه تنشئة طفل لا يعيش بين أبويه.

والأدهى أنها أضحت مهووسة بدرجاته وتحصيله منذ بدأ الذهاب إلى المدرسة، ترفع صوتها عليه وتعنفه ليذاكر بينما تنشغل عنه بالتلفاز، والهاتف الذي أصبح ملتصقًا بيدها تدردش مع راندا وتلج إلى مواقع التواصل الاجتماعي، دون مراعاة لميل الولد فطريًا في هذه السن الصغيرة إلى المتعة واستثقال الجهد. وحين تنقصه درجة أو درجتان عن العلامة الكاملة في أي مادة؛ تصرخ بهياج:

- أبوك طبيب! جراح كبير. هل تريد أن يعيب عليّ ويقول إنني أملتُ بختك وخيبت رجاءه فيك؟

حتى أيام إجازته تخيره بين المذاكرة أو توضيب حجرته والمساعدة في شؤون المنزل، لا تسمح له باللعب مع أبناء الجيران أو النزول إلى الشارع، تنهر روحية إذا تدخلت وتوسطت له، تدافع بإصرار:

- ما هو غير مسموح للبنت غير مسموح له، لا يحسب أن عضوه الصغير سيمنحه امتيازًا!

وعندما يلح عليها الولد محاولاً أن يثير شفقتها نحوه، تزجره بحدة:

- لا أريدك شوارعيًا. تعلم أن تمكث في المنزل تجالس والدتك وجدتك ومن ثم زوجتك وأولادك.

ولا تنفك تعدد له المشاق التي تكبدتها في ولادته وتربيته، رافعة يدها إلى السماء في سأم ونقمة:

- يا رب أموت حتى أرتاح من هذه العيشة.

فتقف لها روحية مؤنبة:

- أنتِ أم. أدي الأمانة دون تبرم أو معايرة. هذا واجبك. تراكِ لا تمنين على رؤسائك بعملك! هل تستدرين عطفه أم تكسرين عينه؟ إنكِ تدفعينه لكره نفسه وكرهك حين يجد موتك راحة لكِ منه! لن يشعر بالذنب ويسترضيكِ، في مرة من المرات سيؤمن على دعائك على نفسك. هل هذا ما تريدينه؟

اعتاد إسماعيل ألا يفضي إلى أمه بشيء مما يجيش في صدره أو يمر في خاطره، بات يلجأ إلى جدته الرؤوم؛ إذ جاء يومًا إلى آصال متشكيًا من لؤم زملائه في المدرسة واعتدائهم عليه بالضرب، فلم تحنُ عليه أو تنبرِ للدفاع عنه ضد المتنمرين، بل زمجرت وأكدت لائمة أنه المخطئ، بلا نقاش:

- ماذا فعلت؟ لن يقوموا بأذيتك من الباب للطاق!

كان يسمع أحلى الكلام من جدته ووالده وزوجته الجديدة، يقومون بتشجيعه والإغداق عليه بالحب والتدليل، بينما تشكك أمه في قدراته، تسمم بدنه بقبيح الكلام؛ ظانة أنها تحفزه! لا تفتأ تعلق عليه إحباطاتها

ومخاوفها، تشتكي إليه بينما لا تسمع منه، تعاتبه في استجداء وتململ:

- من سيشعر بي؟

ولسان حال إسماعيل: من سيشعر بي أنا! لا يجيد تصنع الاهتمام بما تقول طيلة الوقت فتدفعه بعيدًا وتصيح كارهة:

- أنت سيئ وقاس. عاق.

يشعر أنه يتحول تدريجيًا إلى ذلك.

لا تنفك تضربه. اضطرها إلى ذلك! تقول إنه قد استثار أعصابها، إنها خائفة على مستقبله، تريده الأفضل. لا تريده على شاكلة الرجال من حولهم.

- تحاول أن تكون قويًا؟ قل أي، قل أي وإلا لن أعتقك من بين يدي.. ضربة في قلبك!

تقسم إنها تحبه، وتفعل ذلك لأنها تحبه؛ تُصوِّر له الضرب فعل حب! ثم سرعان ما تأخذه بين أحضانها مهدهدة، وتتمتم:

- ربنا يهديك ويهديني.

تُمسِك روحية يد ابنتها في نوبات غضبها وتخلي طريق الهرب لإسماعيل، توقفها عند حدها، باللين مرة والشدة مرات.

- أمسكي أعصابك يا آصال؟ هل مددتُ يدي يومًا عليكِ؟ وكنتِ أعند منه ألف مرة. تُحملين الولد فوق

طاقته. تريدين أن تثبتي لجلال أنكِ سوبر ماما وابنك فلتة. تضربينه لأنك ضعيفة قليلة الحيلة، تظنين نفسك قوية وبمئة رجل، غدًا يكبر الولد ويفوق طوله طولك وتطنحك عضلاته لو أراد. تُرسين فيه العنف يا بنتي وتعلمينه أنه من المقبول أن نضرب ما دمنا نقدر! انظري ماذا فعل فيكِ الضرب والإهانة؟ هذا ولد. لا تكسريه وتشرخي رجولته!

تعترض آصال في تحفز:

- رجولته! كفانا تمييزًا. هويته إنسان وليس رجلاً.

تضرب روحية كفًا بكف في أسى بالغ:

- وهل هذه معاملة تليق بإنسان! لقد ضربك جلال مرة واحدة فطُلقتِ منه على الفور، أنى لإسماعيل الطلاق منكِ؟ فيمَ تختلفين إذن عن قاسم؟!

لم تكن عظة روحية لتؤثر على نحو كبير في آصال، تنفي أن ثمة مقارنة بينها وقاسم؛ تخلد إلى فراشها، تغص في البكاء، متمتمة:

- أنا أم صالحة، أنا أم صالحة. أنا أحبه، لا أريد أن أؤذيه، أقوم بهذا لمصلحته.

ولا يغمض لها جفن قبل أن تطيب خاطر ابنها وتصالحه. هل فعل قاسم هذا يومًا؟

- هل سامحت ماما؟

تمسح على شعره وتسأله فيومئ على أي حال.

كان يسامحها وهو بعد صغير، لكنه لم يعد منذ اخشوشن صوته وازداد طوله وقسا قلبه ونما له شارب أخضر زغبي.

***

-٤-

تعرق إسماعيل بغزارة وتسارعت نبضات قلبه فيما تشد أمه حاسوبه المحمول من على مكتبه وتفتحه متوجسة، ملقية نظرة واحدة كانت كافية لتشهق:

- هذا ما تفلحون فيه! لا تفكرون في شيء آخر، لا تكترثون لمشاعرنا. تبًا لكم جميعًا.

احتقن وجه الشاب غيظًا وصاح بغلظة متنصلاً من لوم أمه له:

- ألن تكفي عن اقتحام غرفتي دون استئذان؟

قطبت غاضبة، ألا يكف هذا الولد الشقي عن استدعاء الضرب؟! قبل أيام تطاول عليها بالكلام إثر اكتشافها علاقته السرية بفتاة في مثل عمره، زميلته في كلية طب الأسنان؛ أمرته أن ينتبه لدراسته ويصرف نظره عنها، محذرة:

- لا أريدك أن تتسبب في كسر قلبها، ما زلتما مراهقين، لن تنجح القصة. سأبارك لك عندما تصير رجلاً قادرًا على معرفة ما تريد.

ليجيب في حنق:

- لا تتدخلي من فضلك. لستُ بحاجة لمباركتك مشاعري.

صفعته يومها رغم الألم الساري كالنار بيدها، أخذت تدلكها دون أن ينتبه، متغلبة على آلامها؛ لا تريد أن تبدو

أمامه شائخة عاجزة عن تأديبه. غزت الدهشة وجهه لبرهة ومن ثم حل الوجوم، لبث في مكانه لا يرفع عينًا إليها ومضى منذئذ لا يحاورها أو يرد سلامها حين يخرج ولا يعود قبل أن يغلبها النوم. لتشعر نوعًا بالندم وتقرر تطييب خاطره؛ وتدلف إلى غرفته مبتسمة تفيض عيناها حبًا ولهفة، فتضبطه يعتدل بسرعة في مقعده ويرفع سحاب سرواله فيما يغلق حاسوبه المحمول!

همَت بصفعه ليفسِك يدها هذه المرة بقبضة من حديد، معتصرًا إياها حتى تأوهت وجحظت عينيها من الألم، مدللاً على قوته:

- لن أسمح لكِ بتكرارها. لم أعد صغيرًا أو طيعًا، أقدر تمامًا على الدفاع عن نفسي.

اغرورقت عيناها وهي تشد يدها متوجعة، غير مصدقة. ألفت نفسها تهرول مسرعة قدر الإمكان إلى غرفتها، تود لو كان باستطاعتها الركض والارتماء على الفراش كمراهقة عنفها والدها! ارتجت نوافذ المنزل إثر صفق إسماعيل لباب الشقة خلفه. هو المخطئ، وهو المُعتدي، وهو الغضبان!

لم يعد إسماعيل تلك الليلة، ولم تحاول الاتصال به؛ تشعر بالغدر واليتم والوحدة. (أين أنتِ يا ماما؟ أين السبيل إلى حضنك؟) لم تعتد بعد غيابها ليغيب عنها بدوره آخر الأحبة! ورد إلى هاتفها اتصال من جلال قرب منتصف الليل، ردت في وجل. الطبيب المحترم يلقنها

محاضرة عن فن معاملة الأبناء. لو كانا أنجبا بنتًا وأخطأت لقال «اكسر للبنت ضلعًا يطلع لها أربعة وعشرون»!

- الولد كبر يا آصال، ينبغي التعامل معه باللين لا بالشدة. إنه يمر بمرحلة حرجة لكن طبيعية لمن في مثل سنه – تابع ضاحكًا - لقلقث لو لم يفعل ذلك.

وجرؤ أن يبوح لأبيه أيضًا بفعلته الشنعاء! رفعت حاجبيها مشدوهة واعترت ثغرها بسمة اعتراضية؛ كان جلال يجبرها هي المرأة البالغة المتزوجة أن تغمي عينيها حين تجيء قبلة على الشاشة - وإن كانت سريعة خالية من الشهوة كلصق طابع بريد - ويسمح للمراهق بذلك! كأن النساء مخلوقات من جماد، آلات معدنية منزوعة الشعور، بينما الرجال مخلوقون من الأهواء!

- سبحان مغير الأحوال! كيف تتساهل في أمر كهذا؟ أعجز عن فهمك بصراحة.

اكتست لهجته بطابع حاد على الفور:

- اسمعي. لم نزل نتحدث في ما يخص إسماعيل وحسب. لا دخل لكِ بي، أنتِ لم تفهميني قط لتفعلي الآن.

تنهد بصوت عالٍ وقال بلهجة تقريرية شابتها الاستهانة والتقريع:

- إسماعيل الآن بحاجة إليّ. لن تستطيعي السيطرة عليه أو توجيهه ولا حتى مصاحبته، أنا سأعتني به

وأحرص على أن يكون بخير. لقد انتهى دورك يا آصال. لا أقول إنكِ قمتِ به على أكمل وجه؛ إسماعيل يشتكي مُر الشكوى، وفي الواقع لا يريد أن يستمر في العيش معكِ. سيبيت لديّ الليلة لكني لن أتمكن من دعوته للإقامة معي؛ زوجتي لن تشعر بالراحة في البيت بوجود شاب في مثل عمره.. لذا لي رجاء...

تردد في الطلب فوضعت يدها على قلبها متخوفة، ليستطرد بعد هنيهة:

- هل يمكنك أن تنتقلي لشقة المنصورة وتُخلي الشقة لإسماعيل – تابع مُحرَجًا - مصيره يتزوج فيها ولن تقيمي معه وعروسه على أي حال.

ازدردت لعابها بصعوبة، تذرف الدمع بسخاء، ويرتج قلبها رجًا مدويًا. جاهدت لتومئ وتقول بصوت مهزوز:

- كما تشاء. إنها شقتك وقد طالت إقامتي فيها، لقد كنتُ حاضنة له ولم أعد كذلك.

ومع كلماتها الأخيرة نشجت وارتعد صوتها وظهر عليه أثر البكاء، ليمط جلال شفتيه أسفًا:

- معذرة يا آصال. لم أكن أحب أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

تنهدت بينما تمسح وجهها الذي أصابته قنبلة دمعية هائلة الحجم:

- لا عليك يا دكتور.. حصل خير.

***

-٥-

تولِج آصال المفتاح الصدئ في القفل، تفتحه بشق الأنفس، تدفع الباب فيُصدِر صريرًا مزعجًا. تدلف إلى الشقة المتربة، تضيء العتمة الغالبة على أركانها، تشعل كل الأنوار، تُبقيها كذلك، تنفض مقعدًا قماشيًا؛ تسعل بشدة، يكتم التراب أنفاسها، تسرع إلى الشرفة والنوافذ تفتحها على مصراعيها، ثم تجلس وبداخلها وحشة خانقة، يرقد الخوف تحت جلدها متيقظًا، تجفل من أدنى حركة أو صوت يتناهى إلى سمعها.

ستعيش هنا وحيدة، منبوذة، لا أحد يحبها، لا أحد يريد أن يكون بالقرب منها. لا أحد يساندها ويشد عضدها؛ لمَ من شأنها أن تستمر في العيش؟ بل وقد عادت إلى جيرة نادرة سليطة اللسان متحجرة الدماغ! عادت إلى الشقة التي لم تقضِ ليلة واحدة إلا ونفس أمها يتردد فيها؛ لم تستطع أن تقضي هنا الليل حين جاءت للمرة الأخيرة قبل سبع سنوات؛ دفنت أمها إلى جوار خالها، ليسوقوها بعدها غصبًا إلى شقة نادرة كي تستقبل المعزين، فطردتهم وعادت إلى القاهرة، تُثقِلها الخسارة والثُكل، قابضة على يد إسماعيل في تملك وارتياع.

صبيحة ذاك النهار المشؤوم صحت على نداء ابنها، نفضت أثر النوم وألقت نظرة عابرة على هاتفها، السابعة صباحًا؛ لا بُد أن إسماعيل يستعد للنزول، روحية تبدأ

يومها بصلاة الفجر وتوقظ حفيدها في ميعاد المدرسة، تعد له شطائر الجبن بالطماطم والبيض المقلي بالسمن البلدي، وتقبله داعية أن تصحبه السلامة، بينما تأخذ هي قسطًا أطول من النوم وتذهب إلى عملها في تمام التاسعة.

خرجت إلى الصالة ملهوفة تبحث عنهما، أعاد إسماعيل النداء عليها في عصبية وإلحاح، لتهرول إلى غرفة أمها حيث كان منكفئًا على الأخيرة. طالعها بعينين متخوفتين.

- لم توقظني كعادتها، قلتُ غلبها النوم. سمعت صوتًا مخيفًا يخرج من غرفتها، ماذا بها؟ قدماها جامدتان كالثلج، ولا تنفك تُصدِر هذه الأصوات ولا تجيبني!

لطمت آصال على خديها، آخذة في الولولة:

- ماما؟ ماما؟ ردي عليّ. ماما! أجيبيني..

تلمست صدق ابنها؛ جسد أمها ثقيل وبارد، جست نبضها، لا يكاد يُحَس! علت حشرجات روحية، لينتفض قلب آصال كطائر مذعور من دوي السلاح، انقضت على هاتفها تستدعي جلال على وجه السرعة. لم تفت عشرون دقيقة على اتصالها إلا وكان حاضرًا يغطي وجه عمته بالملاءة بعدما كفت الروح عن النزاع وصعدت إلى بارئها؛ سقطت آصال فاقدة الرشد، وحين أفاقت تحت تأثير المهدئ الذي حقنها جلال به، بدت هامدة كجثة، لا تعي شيئًا مما يجري حولها؛ ثمة سيدة تُغسِّل أمها،

إسماعيل يتلو سورة يس بينما تغرق الدموع وجهه في صمت، وجلال يرتب مع نادرة عبر الهاتف إجراءات الدفن في مقابر العائلة.

تشارك جلال وبواب العمارة في حمل آصال إلى سيارة الأول في طريقهم إلى المنصورة. تركن رأسها إلى النافذة المغلقة، شبه مغيبة عن الوعي، الرؤية مشوشة، الأصوات مختلطة، الإحساس مُخدَر. إسماعيل ينهنه إلى جوارها على المقعد الخلفي فيما ينظر إلى الشاحنة التي تسبقهم وتحمل في داخلها نعش جدته. جلال يقود السيارة متمتمًا بآيات من القرآن المنبعث من المسجل بصوت الشيخ محمد رفعت، تجلس نورا زوجته إلى جانبه متشحة بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، لا يبين منها غير عينين خضراوين كالزمرد. في أحشائها جنين، وعلى فخذيها ولدين بفارق ضئيل في العمر. شرعت آصال تفيق، تفتح عينيها على اتساعهما، تحدق في مرآة السيارة خفية، تلتقي أعينهم، فيهيأ لها أنه مشتاق وعنده لوعة، لسان حاله يقول: «هذه المرأة التي تحمل أطفالي وودتُ لو كانت أنتِ! أريد ابنة منكِ تشبهك أنتِ".

أثابها نشيج ابنها إلى رشدها؛ راحت تحدجه بجزع، علام يبكي؟ ثم جعلت تتلفت حولها في حيرة: أين هي؟ أي كارثة حلت ليجمعها مكان واحد بكل هؤلاء؟! تلجم لسانها وماتت الكلمات التي همت بالتفوه بها حين توقف جلال بالسيارة وترجل ليساعد قائد سيارة تكريم

الإنسان في تنزيل حمولته. هالها رؤية النعش تتسابق أيدي الرجال لتحمله.

- يا لهوي!

شق صراخ نادرة وجدانها بينما ارتمى ابنها بين ذراعيها منفجرًا في البكاء؛ لتدفعه بعيدًا بحركة حادة وتضع رأسها بين فخذيها محاوِطة أذنيها بكفيها، لا تريد أن تسمع أو ترى. تتهافت إلى حضن روحية حيث تدفن رأسها في راحة ولا تشعر بشيء.

تمتمت نورا في إشفاق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. شدي حيلك يا حبيبتي.

حدق إسماعيل في أمه بضيق لبرهة، ثم سارع بالنزول والعدو خلف أبيه، متشبثًا بجانبه محاوطًا خصره بذراعيه، ليحنو عليه جلال ويربت على ظهره شادًا من أزره.

- يلا يا أختي. انزلي يا آصال، ستفوتك الجنازة! ادفني أمك واقرئي الفاتحة على روحها.

قربت نادرة وجهها من نافذة السيارة وخبطت بعنف على الزجاج تعيد كلامها؛ ليرتج جسد آصال وتضغط أكثر فأكثر على أذنيها.

أنزلت نورا زجاج السيارة الأمامي ونادت على نادرة، مشيرة إلى آصال أنها بعد في حالة صدمة وإنكار، لتمصمص نادرة شفتيها ممتعضة وتمضي في طريقها، تقف بين الجمع المتجمهر تشاهد التربي يهيل التراب

على عمتها في مثواها الأخير.

***

لم تكن بها علة! آلام الشيخوخة لا تعجل بالوفاة بين ليلة وضحاها. كيف يخطفها الموت دون سابق إنذار للأحبة؟ ليتحينوا ساعة الفراق ولا ينزل الخبر على رؤوسهم كالصاعقة. كانت سليمة معافاة ليلة أمس، وجهها بشوش، ابتسامتها ناصعة، وعيناها تفيضان بالحب والرحمة والسلام. توضأت وصلت العشاء ثم خلدت إلى النوم؛ لتنازع سكرات الموت فجرًا ثم تلفظ أنفاسها الأخيرة وتفيض روحها!

قد عاشت روحية تعسة، بائسة، عثرة الحظ، لم يعرف الفرح سبيلاً إلى قلبها المسكين. عاشت تفي بالعهد لرجل واحد بينما هي ليست على ذمته؛ لأخذ ابنتها بقوة القانون لو تزوجت، بناته يحتجن خادمة تعفيهن أعمال المنزل! واحد من شروطه المجحفة لإطلاق سراح روحية التي لم تكن بحاجة إلى تهديد لتُحجِم، لما أقدمت على ذلك، واضعة ابنتها فوق أي اعتبار؛ ليشيخ قلبها الخاوي على عروشه طوال العمر، وتنتهي صلاحية أنوثتها، تتعفن في غلافها الذي لم يُفتَح لمرة واحدة!

اندثر عمرها هباءً؛ لعاشت روحية قبل أن تموت لولا آصال! غير أنها لم تشك أو تحملها الذنب ولو مرة واحدة. تتساءل آصال في جنون: أنى لأمها تلك المقدرة الضخمة على الرضا والتسامح والعيش في سلام دون

أحقاد وضغائن؟ لم يهدها شيء رغم كل الخطوب التي مرت عليها! ماتت راضية. كيف لا تحسن هي أن تكون مثلها؟ لم تطلع البنت لأمها!

أي حياة في انتظارها بلا روحية؟ أي حياة؟! انقسم ظهرها من بعد أمها. قد انهد حيلها، لا تقوى على الوقوف على قدميها أو رفع رأسها عن الفراش الذي تتمدد فوقه في وضع الجنين. لم تزل عاجزة عن التصديق والتصرف. ما أحلاه الوهم! ستدخل أمها عليها الآن تمسح على شعرها وترقيها وتهدئ من روعها، ستحمي إسماعيل من جنونها وتطاولها. ستبقى لها الدرع الآمنة والصدر الحنون.

دلف أحدهم إلى الغرفة، لترتعش عيناها المنتفختين بفعل البكاء، ثقيلتان ككرتين من الحديد، تعجز عن فتحهما لترى، تهمهم بلهفة رضيع:

- ماما.. ماما؟

جلس جلال على حافة الفراش، يهز رأسه في إشفاق، يقول بصوت رخيم:

- آصال. الناس بالخارج يريدون تعزيتك. انهضي كلي لقمة حتى!

لاكت السؤال بين شفتيها ببطء كأنما تهذي:

- آآ..كُ.. للل!

تملأ أنفها رائحة طبخ وشواء! تتصاعد نار محرقة في جوفها تنهب الطريق إلى حلقها وعينيها. اتقد وعيها

الكامن في الحزن؛ تبدل إلى الغضب في لمح البصر. قوة مفاجئة سرت في جسدها كالسحر حولتها من حال إلى حال، رفعت رأسها محدقة في جلال بعينين مفترستين، توشك على الانقضاض، صارخة على حين غرة أجفلته:

- ناس؟ وأكل! أين هي؟ أين هي؟

هبت من الفراش تتوعد نادرة، تمتلئ عروقها بالأدرينالين من جراء الحنق والكمد. حانت ساعة الانتقام، لتمزقنها بأسنانها! كانت نادرة تُخرِج طاجن البط من الفرن وتقلب الأرز في إناء على النار حين هجمت آصال على المطبخ كريح صرصر عاتية.

- يا حيزبون! ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

خطفت آصال من بين يديها الطاجن الزجاجي الساخن، لسع راحتيها لتفلته بعنف مصوبة إياه على الحائط، ليخلف رنينًا مدويًا فيما يتشظى لقطع بالغة الصغر ويغرق الأرض السمن المتساقط من البط كالزبَد، حملت آصال كذلك حلتي الأرز والبازلاء وألقت بمحتوياتهما في سلة القمامة مزمجرة، مصدرة أصواتًا متوحشة. تسمرت نادرة متسعة العينين عن آخرهما، لا تحسن الكلام للمرة الأولى! فيما حاول جلال تقييد حركة آصال دون جدوى؛ أكسبها الانهيار قوة متوحشة، بدت فاقدة أي قدرة على التعقل، كأنما أصابتها عدوى من كلب مسعور! خرجت إلى الصالة التي ران عليها صمت مطبق؛ تكاد تُسمَع دبة النملة. الجلوس مشرئبو

الأعناق يتبادلون النظر في توجس، مناشدين بعضهم البعض المشورة. ماذا عساهم يفعلون؟ لتوفر عليهم آصال العناء حين صفقت بيديها كمن يهش مجموعة من الدجاج إلى العشة.

- لا أظنكم جئتم تملأون بطونكم! سعيكم مشكور يا جماعة. كلُ يعود من حيث أتى.

كأنما كانوا محجوزين وأخلت سبيلهم! أطلق كلٌ ساقيه للريح، وتهاوى جلال على أحد المقاعد إلى جانب زوجته، يدفن رأسه المتجهم بين كفيه، متنهدًا بصوت عالٍ في يأس، مؤثرًا الصمت؛ لا فائدة تُرجى. قد جرب مرارًا! عادت آصال إلى القاهرة في اليوم نفسه، ملتصقة بابنها لا تفارقه كظله، تقاسمت معه حجرته، وضعت فراشها إلى جوار فراشه، مراقِبة صدره يتحرك في نومه، تنتفض من نومها مذعورة تتأكد أنه لا يزال يتنفس.

صحت في اليوم التالي أصابع كفيها متورمة، منضغطة في وضع معين، لا تستطيع تحريكها، لتتحسن حالتها آخر النهار، تكرر ذلك لأيام متتالية، إلى حد أعجزها عن الإمساك بفرشاة أو قلم! أخذت رقبتها كذلك تتشنج حركتها، تصيبها بآلام غير محتملة، من ثم مفاصل قدميها وركبتيها. شخص الطبيب أعراضها بروماتيزم نفسي وأوصاها بالراحة التامة وتناول المسكنات والأدوية، غير أنها راحت تنهش معدتها الضعيفة وتصيبها بالقيء والغثيان، فتمتنع تلقائيًا عن

الأكل لينخفض ضغط دمها وتُصاب بالدوار. أوقفت الدواء محاوِلة ممارسة حياتها بشكل طبيعي، إلا أن محاولاتها الصبيانية في معاندة المرض باءت بالفشل، واضطرت إلى ترك الرسم إلى غير رجعة!

***

انتاب إسماعيل ارتياح غامر على الرغم منه، قد حلت أمه عنه؛ تعود من عملها في المحاسبة منهكة مستنزفة القوى، لولا الاحتياج الذليل للقمة العيش ما بارحت البيت. تخلد إلى الفراش في ساعة باكرة، تنام كجثة هامدة، بينما يطيل إسماعيل السهر خارج المنزل دون أن تتبين ذلك أو يقضي الوقت في غرفته دون رفقتها التي كانت تجثم على أنفاسه.

وها قد حلت عنه للأبد، ليعش مرتاحًا هانئًا في بعدها عنه، وتنتهي هي محطمة الفؤاد، مخذولة، عاطلة، مسحوقة الأحلام، شائخة قبل الأوان، ميتة على قيد الحياة.

***

فرغت آصال من الحكي والتشكي، تمسح دموعها مطيلة النظر إلى إسماعيل بعينين مستعطفتين كقطة شريدة بحاجة إلى مأوى ويد حانية، راجية الرحمة والود والغفران. كانت على يقين من أنه سيأخذها بين ذراعيه آسفًا على ما جرى لها ومتسامحًا فيما بدر منها، غير أنه لم يبدُ متأثرًا أو متعاطفًا، تجاوب مع ما سمع بطريقة أخرى؛ كان مشحونًا بالغضب والنقمة والاستياء، كأنما دفاعها أثاره ضدها. هز رأسه بغير رضا وقال أخيرًا بلهجة اتهام:

- كما كنتِ تعبة من عاداتنا وتقاليدنا التي لا تعجبك كان بابا متعبًا من خروجك عليها وعدم مراعاتك لطبيعة النشأة والدين.

أشار إليها مزدريًا:

- ما زلتِ تكشفين شعرك! ألا تستحين؟ على أقل تقدير احترمي سنك، أنتِ في الخامسة والخمسين، واحترمي ابنك الذي أصبح محط سخرية الناس؛ يسألونه عن ميعاد صلاتك المقبلة في الكنيسة!

اتسعت عينا آصال جزعًا، متشبثة بحافة مقعدها، كأنما كانت تكلم حجرًا، هذا الشبل من ذاك الأسد. كلهم سواء! استطرد إسماعيل منفعلاً:

- وما قلتِه لا ينفي أو يبرر أيًا مما فعلتيه معي. بل على العكس يضيف إليكِ تهمة جديدة؛ لقد كررتِ ما

فُعل فيكِ بحذافيره، لم تتعظي! وجهتِ انتقامك ضدي! كنتُ بلا حول ولا قوة وعمدتِ إلى أذيتي كما تأذيتِ. كيف أتفهم شيئًا كهذا؟ وكيف أغفره؟ هل استطعتِ مسامحة جدي؟ قولي. هل تمكنتِ من تجاوز كل أفعاله في حقك؟

هبت من مكانها هاتفة في ذعر:

- لا، لا، لم أسامحه، لم أسامحه يومًا.

هز كتفيه ومط شفتيه بلا مبالاة:

- ذات شعوري نحوك. لذا لا يمكن أن نعود للعيش معًا.

اقشعر جلدها، تكاد تموت رعبًا.

- أتوسل إليك يا إسماعيل. لا أستطيع الحياة دونك.

قام واقفًا استعدادًا للمغادرة، وقال في حزم:

- تستطيعين. لن تموتي بدوني.

رددت في هلع ممسكة بساعده:

- سأموت، سأموت.

قاطعها في استياء وألم ممض:

- أرجوكِ! دعيني أذهب. لا تلوي ذراعي؛ لا تتصرفي بنفس الطريقة التي تصرف بها الكل معكِ على حد قولك. أنا تاركك. أعجز عن مسامحتك. دعيني أذهب، دعيني أنسى. لعلي أرتاح. أشقيتني!

تمتمت ملتاعة:

- أردتُكَ مختلفًا.

لاحت على شفتيه ابتسامة جامدة:

- وتحققت أمنيتك. أنا مختلف؛ جرحك فيَ يميزني عنهم! حولتِني إلى شخص متردد وجبان ومعقد؛ هل ثمة مخرج من هذه الحلقة المفرغة؟ كيف أمحو أثرك عن نفسي فلا أعيد التاريخ نفسه متسببًا في كارثة جديدة؟!

هتفت في حرقة، تعض أناملها ندمًا، مُحاوِلة احتضانه:

- ماذا فعلتُ بك يا ضي عيني! أنا آسفة يا حبيب ماما. لقد أخطأت في حقك مرارًا دون قصد. أعدك ألا أتدخل في حياتك، لن أفرض نفسي عليك، لن أملي عليك أمرًا، لن أرفع صوتي أو يدي عليك، لن أوجه لك كلمة واحدة، اتركني فقط أعيش في سلام إلى جوارك.

- فات أوان ذلك.

قالها بلهجة قاسية وأفلت نفسه من بين ذراعيها؛ لترفع حنجرتها بالعويل كالذئاب فيما يلتهم درجات السلم نزولاً.

- يا إسماعيل! يا بني. يا ضي عيني. لا تتركني. سأموت يا بني.

وبينما يتردد صدى توسلاتها في البناية، وتسمعه نادرة في الطابق الأول فتمر نغزة مؤلمة في قلبها لاشعوريًا؛ كان إسماعيل يدير محرك السيارة ويخرج من شارع توريل للمرة الأخيرة.

***

قد عاشت بعد الطلاق لسنوات تسير على هدى من قلبها؛ ليست في حاجة إلى إذن للحياة، تروح وتجيء وتعمل وتنطلق بصحبة راندا، لكن أحلامها ظلت محلك سر، لا تتقدم قيد أنملة، تتقلص لضيق ذات اليد! حتى تهدم الجدار الوحيد الذي كان يقوض سقوطها المدوي بموت أمها؛ لتذروها الرياح كرفات روحية. دائمًا ما كانت آصال هشة؛ ذرة هواء كفيلة بإيقاعها أرضًا، لا تملك جذرًا متينًا يمتد تحت الأرض يقوِّم وقفتها ويثبت قدميها. لا نبتة فتية تنمو في تربة عجوز! روحية كانت أقوى وجذعها صلب لكن دون أحلام تقض مضجعها! كذا ماتت راضية.

قاسم وجلال والأرض التي أنجبت أمثالهما من الرجال وأمثال نادرة من النساء؛ أرادوا أن تكون على شاكلتهم، مادة يعبئونها في قالب نسخ يرضون عنه، لا ترى ولا تسمع ولا تنطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحون به! قد خرجت عن طوعهم، مسلسلة بعاطفتها، كأن لم تخرج! أقامت الحد على ابنها لئلا يكون على شاكلتهم لتتحول إلى واحدة ممن حاربتهم عمرها كله، تسيِّر الناس على هواها ضد رغباتهم. ماذا تكون هي لتحكم على الآخرين، تأمر وتنهى كما الإله بغير أن تملك عدله وحكمته ورحمته وقدرته؟!

تكومت على قبر روحية تناجيها، متورمة العينين، محتقنة الوجه. تناديها بأعلى صوتها، تجتذب انتباه

زائري المقابر، مثيرة استهجان بعضهم لغرابة ما تفعل وتطيُر البعض الآخر من الحرمة، مروعة أبناء الغفير، دافعة أصغرهم إلى الانخراط في البكاء على صدر أمه.

خفتت الجلبة الصادرة عنها رويدًا حتى اختفت، ولم يعد يُسمَع صوت من المرأة الخمسينية التي كانت تنوح وتولول بهستيرية، تنادي أمها كطفلة تائهة! ليصرِف كلّ انتباهه إلى مسعاه، وتُترَك آصال دون عين مُستطلعة.

يكاد يكون الهواء شحيحًا! تحدق في فضاء المقبرة المفتوح بعينين مذهولتين، تلهث بقوة، تعب الهواء دون جدوى، أنفاسها تتردد على صدرها بثقل. ثمة غصة متحجرة في حلقها لا تحسن كيف تزدردها. تتعرق، شاعرة بالغثيان والبرد الشديد، ألم رهيب يسري في كتفها اليسرى وأسفل رقبتها.

لا تقدر على الاستنجاد بأحد، لا تريد كذلك. فلتَمُت ويرتاح الجميع! ستستمر الحياة دونها، وبالكيفية نفسها!

أيا قاسم، أنتَ الكسرة لكونك أنتَ بالذات ولستَ بآخر سواك، أنتَ فقدي من يوم خُلقت إلى يوم أُبعَث.. بغير عودة.

بينما أنتَ يا جلال الفرحة التي جاءتني على مضض، ولم تهنأ في مقامي فشدت الرحال عني، أنتَ الحاكم بأمر لا أأتمر به؛ فأسقطتُك عني رغم الخيبة، أنتَ خيبتي، وعودتي إلى نفسي سالمة، إلا من قلبي الشاغر بعدك.

أما أنتَ يا إسماعيل. كلك أنا وكلي أنتَ، أنتَ الروح المفارقة بدني عندما شاءت نفسك الخروج عليّ.

وأنا.. العِوج في نفسي، روحي في اعوجاجي الذي حاولتم ثلاثتكم تقويمه، فانكسرت. تدحرجت ككرة صغيرة فتية من أعلى قمة ثلجية، أتفتت بفعل الانحدار والبرد والزخم، في طريقي نزولاً إلى قعرة هائلة الحجم.

***

تمت